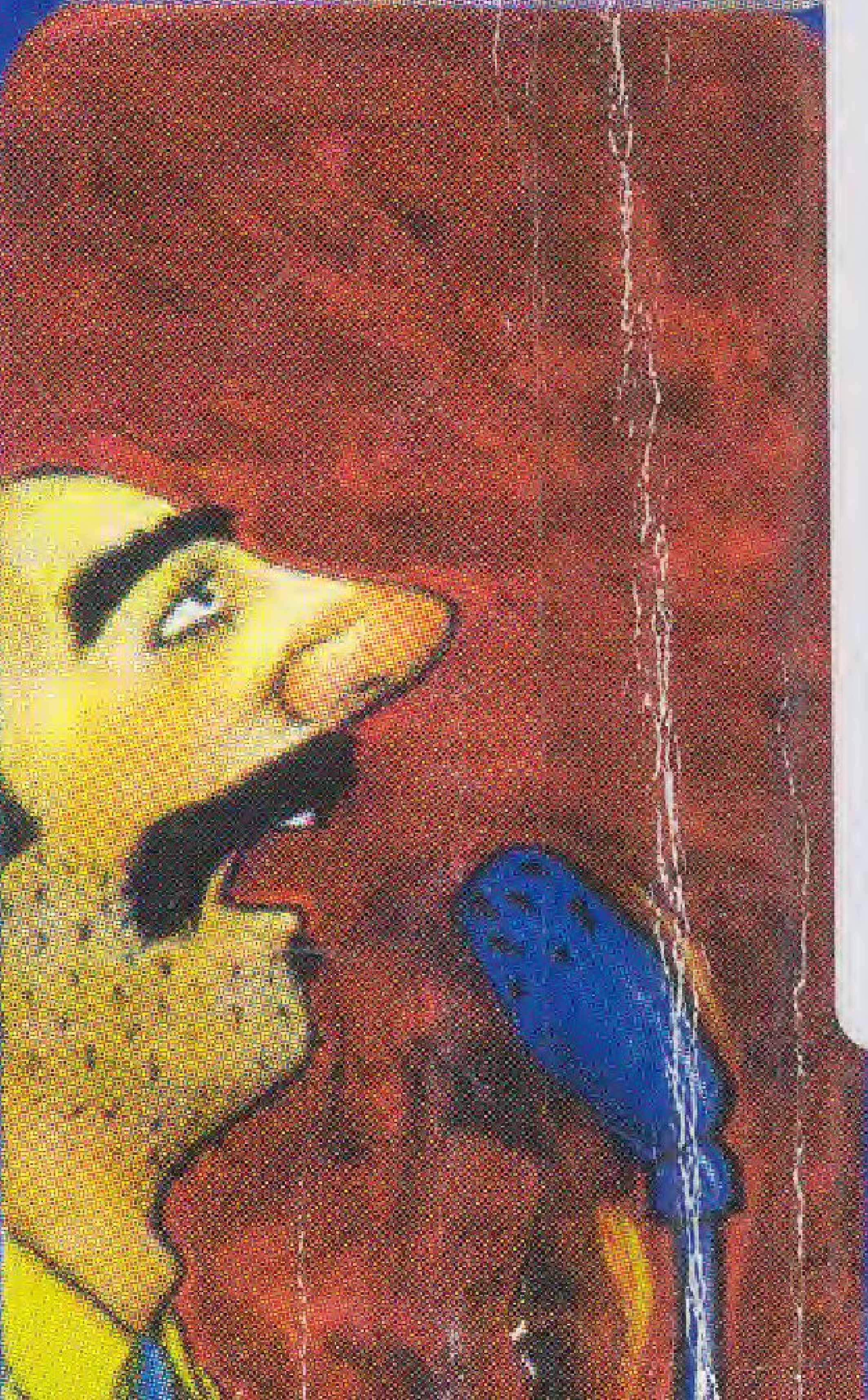
كتاب العربي ٧٤
AL ARABI





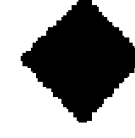


نبش الغراب

«المجموعة الثالثة»

محمد مستجاب

محمد مستجاب



نبش الغراب

«المجموعة الثالثة»

كتاب العربي
AL-ARABI

كتاب العربي
AL ARABI

سلسلة فصلية تقدم مجموعة من المقالات والموضوعات لكاتب واحد
أو موضوعا واحداً تتناوله عدة أقلام.

رئيس التحرير

د. سليمان العسكري

عنوان الكتاب:نبش الغراب «المجموعة الثالثة»
تأليف: محمد مستجاب

الناشر: وزارة الإعلام - مجلة «العربي»

الطبعة الأولى ١٥ أكتوبر ٢٠٠٨

رقم الإيداع في مكتبة الكويت الوطنية:
Depository Number: 272 /2008

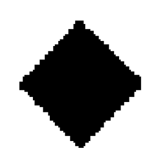
ردمك: ٩٧٨ - ٩٩٩٠٦ - ٣٨ - ٣٧ - ٠ ISBN:978 - 99906-38-37-0

العنوان: ص.ب: ٧٤٨ الصفاة - الكويت - الرمز البريدي: ١٣٠٠٨
بنيد القار - قطعة ١ شارع ٤٧ - قسيمة ٣

Al -Arabi Book، 74 th
Acrow digging (Third Collection)
15 October . 2008
Publisher: Ministry of Information
AL-Arabi Magazine.

E. mail: alarabimag@alarabimag . net

تصميم الكتاب : حافظ فاروق



محمد مستجاب

نبش الغراب

«المجموعة الثالثة»

محمد مستجاب .. من النبش إلى النقش

د. سليمان ابراهيم العسكري

يكتب مستجاب بأسلوب يكاد يخترق هذا الحاجز الذي تمثله اللغة حين تقبع قبوع الثعلب الماكر بين الكاتب والقارئ. فاللغة الثعلبية هي تلك التي لا تنفذ إلى القارئ لتوصل إليه ما يعتمل في نفس الكاتب بكامل أبعاده؛ وهي من ناحية أخرى لا تمكن الكاتب نفسه من ناصيتها فتبقى عصية عليه أقوى من أصابعه تراوغه حتى تعييه فلا يجد الكاتب بداً من الاكتفاء منها بالحد الأدنى بعد أن يسأم تمنعها عليه، فيأتي هذا الحد الأدنى دليلا جازما على ضعف الكاتب وعلى سطحية من يضيع وقته بالقراءة له.

الحاجز الثعلبي هو الحاجز الذي يعطي كاتبه وقارئه الانطباع بأنه حي، ولكنه يهرب بمجرد أن يقترب منه أيهما فيحافظ على المسافة بينه وبين كل من الكاتب والقارئ، فلا تنشأ بينهما أي علاقة تواصلية حقيقية، بل مجرد تأويلات مضللة يوحي بها ثعلب اللغة الماكر، وفق مسافات المراوغة التي يقفزها بين الحين والآخر ليثبت لكل من الكاتب والقارئ عجزهما الكامل عن الإمساك به.

فاللغة المراوغة كالثعلب تتفلت من الكاتب ومن القارئ وتحيا لنفسها حياتها السرية البعيدة عن العيون والأذهان والسطور، حيث يستلزم الأمر حواة لغة من أمثال فوكو ودريدا لإخراج الثعلب من جحره والتقاط صور فوتوغرافية سريعة له وهو يحاول الهرب مرة أخرى، فيعودون إلينا من رحلة الصيد ليخبرونا بما شاهدوا فنكتشف أننا كنا مخدوعين طوال هذه "السنين النصية" بما كنا نقرأ ونحسب أننا نفهم.



ليس الأمر على هذا الشكل مع كتابات مستجاب، فلغته تنسف حاجز اللغة الثعلبية المراوغة.

انظر إليه عندما يكتب عن البئر:

«ثمة رواية من أعمال احسان عبدالقدوس: بئر الحرمان، وأخرى لفيصل الحوراني: بير الشوم، أما سلك البيرة فهو نوع من الحبال المعدنية المرنة التي تستخدم في توثيق حمولات المقطورات والشاحنات، ولا تزال بيرو دولة لها وضعها المتميز في غربي أمريكا الجنوبية، كما أن شارل بيرو شاعر فرنسي ... إنني أحاول أن أبدو مثقفا كي أبتعد بكم عن بير السلم في البيوت والعمارات وما حدث فيه من كوارث صغيرة .. مع أنه أهون مما جرى في بير العبد في سيناء أثناء الاحتلال الاسرائيلي».

لنفهم هذا النص علينا أن ندرك حال لغة الكتابة قبل مستجاب ونقارنها بحالها مع مستجاب الذي يشق تاريخ الكتابة إلى ما قبل وما بعد.

كانت لغة الكتابة قبل مستجاب أقرب إلى ذلك المسئول الرسمي الساكن في أبراج العاج البعيدة والذي لا يرتدي سوى بزة رسمية ليذهب إلى عمله كل صباح في الطابق الثالث من ذهن كل منا. فيوقع في كشف الحضور ثم يهبط إلى الطابق الأول ليوقع في كشف الانصراف، ولا نراه في أيام الإجازات الرسمية ولا نعرف له رقم هاتف لنستدعيه إذا ما احتجنا إليه، ذلك أنه يرفض التهاتف من حيث المبدأ.

تعاشر مستجاب مع هذا المسئول الرسمي سنين طوالاً عندما عمل في مجمع اللغة العربية حتى سن التقاعد، لذا فهو من الكتاب القلائل الذين يعلمون كيف يستدعون هذا المسئول الرسمي إلى بيوتهم فيخلع عنه بزته الرسمية ورابطة عنقه ليدلف إلى الحمام ويغسل عن يديه دهون طعام العشاء، وقد يستلقي أثناء احتساء الشاي الصعيدي متخم البطن فيغلبه النعاس على كتف مستجاب فيترك له الأريكة، ليستيقظ في وقت الظهيرة ليجد نفسه مرتديا جلبابا شعبيا بدلا من البزة الرسمية، حيث ترفع الكلفة ويحبس الثعلب وتبدأ الكتابة.

اشتهر مستجاب بقصصه التي تحكي حالات أشخاص من عائلة مستجاب، فتصور الواقع في ربوع الصعيد في شكل قريب من الواقعية

السحرية. لذا فأغلب من يريدون التعرف إلى كتابات مستجاب يتوجهون صوب قراءة قصصه، بينما قلة فقط من القراء هم من يتعرفون إليه من خلال قراءة مقالاته.

وتفسير ذلك أن أغلب القراء يتوقعون أن كاتب القصص الساحر، يندر أن يكتب المقال بواقعية متزنة.

لكن المجلد الحالي الذي يحوي الجزء الثالث من مقالات محمد مستجاب في مجلة العربي، يحطم هذه التصور الخاطيء عن مستجاب الواقعي السحراني. فمجلدنا الحالي يثبت أن الكاتب المجد ليس مجرد فنان – مرسوم بريشة عصر الروكوكو – حالم ومغرق في الخيال لدرجة أنه يرفض أن يغادر بلاد الخيال طوعا ليقيم في بلاد الواقع ويملأها شغباً وصخبا.

إن أقل ما يفعله المجلد الحالي، هو أنه يثبت في كل صفحة منه خطأ هذا التصور المثالي المغلوط عن الفنان بشكل عام، وعن محمد مستجاب بشكل خاص.

في المجلد الحالي نقابل محمد مستجاب وهو يعمل على نقل الواقع ورسمه من داخل اللغة، فلا يكاد القارئ يدرك أثناء القراءة أهو في مجال الكلام أم في مجال الواقع، ولا يعود يميز متى يخرج من الواقع ويسبح في اللغة. إن ما يفعله مستجاب بالقارئ هو بالضبط قلب مسار المعادلة التي استقرت طويلا فيما سبق على أن الكاتب هو الذي يغوص في الخيال ويحاول أن يغوي القارئ بالغوص معه، ويبقى الأمر بيد القارئ ليقبل الغواية أو يرفضها. فمع محمد مستجاب ينقلب مسار هذه المعادلة فلا يعود القارئ يدرك أيهما الغريق وأيهما المغوي: هل يغرق القارئ نفسه في خيالاته بفعل لغة مستجاب التي أبسط ما تفعله هو أن تصبح نفسها ذات اللغة التي يستقبلها القارئ دون أن يتوقع أن تغزوه لاعتياده؟ القاريء – على تاريخ طويل من اللغات الثعلبية المرواغة، فيجد نفسه فجأة إزاء لغة جديدة غير ثعلبية فيستقبلها على أنها تنتمي لفهمه هو فتأخذه في طريقها فلا يعرف أهو الذي يركبها أم أنها هي التي تركبه على غرار العفاريت في التصور الشعبي، فيحدث ما يشبه "التقمص اللغوي"

الذي يفرز تقمصا في معاناة حالات فهم مباشــرة أشبه إلى ما تكلم عنه برجســون، حيث يحدث الفهم وكأنما بدون لغة وكأنما بالإحساس، بينما تشــف اللغة المكتوبة لدرجة تعود معها أشــبه بطبقة الجلد نفســها لدى القارئ فيدرك ما يصوره مستجاب وكأنما باللمس لا بالقراءة.

تلك الحالــة العجيبة التي تعتري القارئ أثناء قراءة مســتجاب، حيث تذوب اللغة لتصبح أكثر من مجرد أداة توصيل، بل تترقرق وتشف لتصير أداة كشــف مباشــر. تلك الحالة هــي ظاهرة فريدة تمامــاً على الكتابة والقــراءة ؟ والعربية بالذات. فنادرون جدا هم الكتاب الذين اســتطاعوا تحقيقهــا، وتمكنوا من تجاوز نظريات العوالم غير المتكافئة الأفلاطونية، بل وتخطي العوالم المتوازية الإسبينوزية ورفض العوالم المنغلقة الأرسطية، ليصنعوا جســورا لغوية لحظية يكاد القارئ من فيض شفافيتها لا يشعر بانتقاله عبرها من عالم لاخر، فيشعر بالوجود على شكل عوالم متداخلة، فــلا يعود يميز بين اليقظــة والحلم، ولا بين الواقع والمثال. بل إنه لم يعد بحاجــة للتمييز لأنه أصبــح من خلال اللغة يســتمتع بخصائص الاثنين معا ممزوجين دون تنافر، في لغة مســتجاب، فــي المجلد الحالي، حيث اندمجت عوالم الحلم والواقع وأصبحت كلها محازة بشــكل مباشر وليس كامناً على الصفحة المقروءة.

يكمن سر لغة مستجاب، في المجلد الحالي، في طريقته السردية. فهو يتنقل بالقارئ بين عوالم مختلفة تماما، ويربط بينها باستخدام اللغة التي تصبح المشترك الأوحد بين هذه العوالم. ولكن ذهن القارىء المستحث بلغة الكاتب، لا يقــف عنــد هذا الحد، بل يحــاول أن يربط بين هــذه العوالم ويبحث عن علاقات مشــتركة جديدة بينها، وتكون نتيجة هذا الجهد الذهني أن يجد القارئ نفســه خلال لحظات القــراءة يدخل ويخرج ويغوص ويطفو فــي عوالم متعددة لم يكن يظن أن بمقدوره التنقل بينها بهذه الســرعة، بالضبط كزائر مدينة الملاهي عندمــا يركب القطار الأفعواني roller-coaster الذي ينتقل به من علو شاهق إلى درك سفلي في لحظة، ليعود إلى العلو الشــاهق في لحظة تالية. هذا الفــن الكتابي التنقلي الخاطف يفعل بالروح تماما كما تفعل الأفعوانية بالجســد، إنها تخطفها بين عوالم

مختلفة فتصير تعاني هذه العوالم وكأنما هي متداخلة فتتولد حالة غريبة من الكشف الذهني لدى القارئ.

مثـل هذا الفن الخاطف والكاشـف لـم نعرف من سـبق إليه محمد مسـتجاب، في الآداب الغربية ؟ والتي يحلو لكثيرين أن يبحثوا فيها عن أصول كل الآداب المعاصرة.

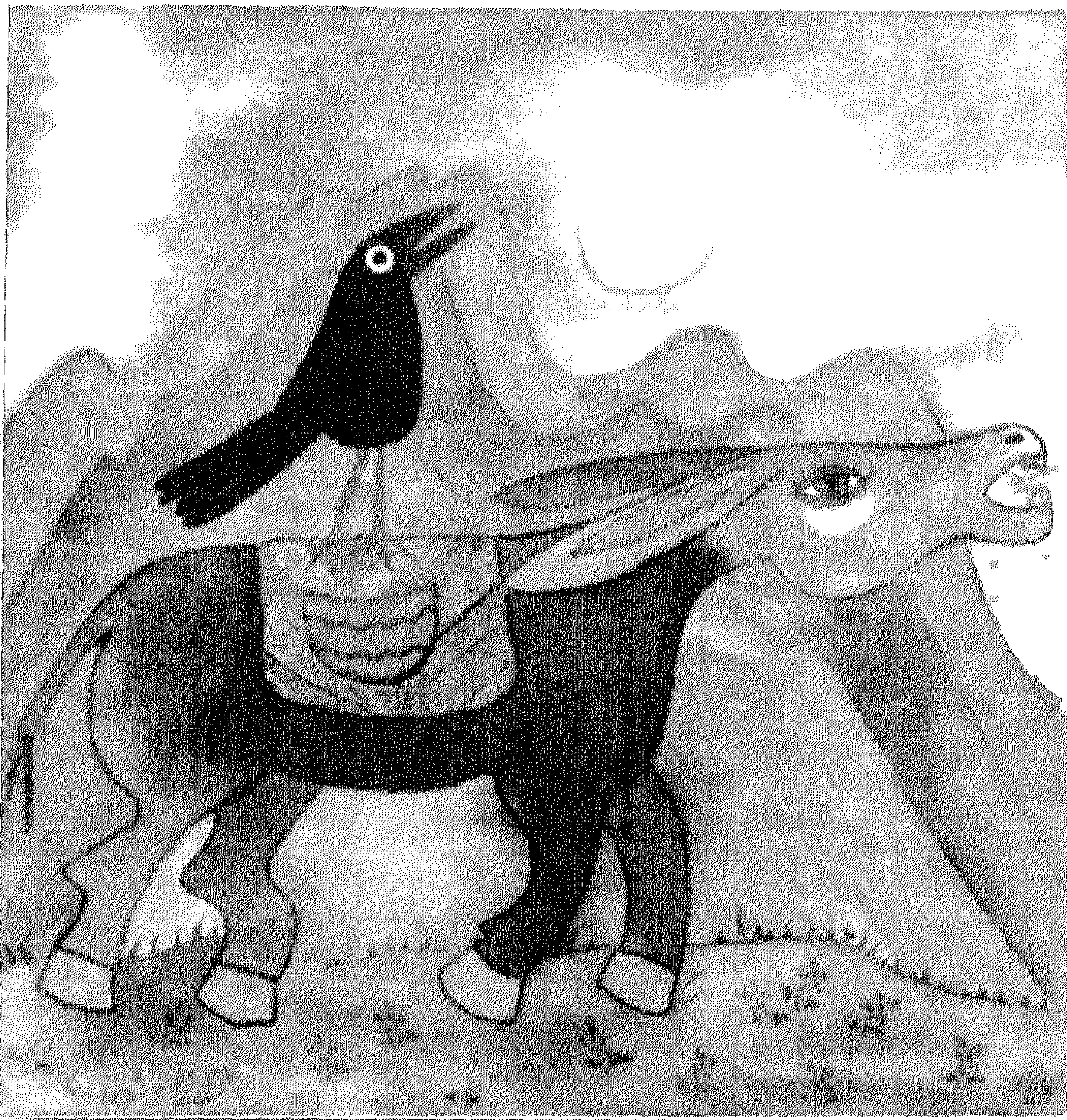
قد يكون هناك شبه بين أسلوب الانتقالات المفاجئة بين العوالم المختلفة لتصبح متداخلة على الطريقة المسـتجابية، وبين الهدف الذي سعت إليه المدرسـة السريالية بقيادة الشاعر الفرنسـي أندرية بريتون من محاولة تحقيق التداخل بين عوالم الحلم والواقع.

إلا أن سـر فشل السريالية، إنما يكمن في إغراقها في ممارسة الحلم كبديل عن الواقع، لدرجة أنها أصبحت مسـتقطبة بالكامل داخل الحلم، ونسـيت الواقع، فتحول الحلم إلى أكذوبة كل هدفها الهروب من الواقع، وتمثل ذلك في كتابة مستحثة بعقاقير الهلوسة.

لكـن ما نصادفه لدى مسـتجاب يتمثل في الانطـلاق من جذر الواقع نفسه بهدف إعادة تشكيله وفق الحلم، وذلك من خلال ضغط الواقع في آليات الحلم، وكأنما يحاول مسـتجاب حشـر أكبر كمية من الواقع داخل شـنطة اللغة، فتبقى لغته مهددة بالانفجار في كل لحظة، ومع انفجارها ينفجر الوعي بالواقع وتتسـاقط النثرات المنفجرة لتعيد تشـكيل الواقع مرة أخرى.

هذه المهارة المسـتجابية تتجاوز مهارات السريالية بمراحل، بل هي أكثر صدقا منها. ويمكن أن نطلق على الممارسـة المستجابية مصطلح الواقعية المفرطـة Hyper-reality بامتيـاز، حيث يتعمد الكاتـب تكثيف الواقع وضغطه وتسـييله، فيواجـه الواقع كمصارع يعتصر غريمـه ويثبته ويعيد تشـكيل أضلاعه بدلا من أن يهرب منه. فالطريقة المسـتجابية تقوم على قلب التصوف السريالي بمجالدة الواقع ومصارعته بدلا من الهروب منه.

بهذه الطريقة الفريدة نجح مستجاب في تحويل محاولاته الكتابية في النبش في واحة العربي، بحثا عن المعاني والعلاقات، إلى نقش سـرمدي لن يزول عن واقع الأدب العربي المعاصر.



الفصل لاول

حيوانات ونباتات وحجار

.. ترنيمة الحياة

الحياة *

هنـــاك - خـــارج قريتي - كان بيتنا الواســع محــدود الحوائط، ذو النخلات الســبع، يقف طيبا هادئاً وكأنه لا يخشــى الزوابع، وأقدامه الموحلة اســترخت على حافة المســتنقعات السويســرية، وأذناه قــد انفرجتا، واحدة تنصت لحركة الحياة المتوجســة فــي مزارع الأذرة والقصب والبرســيم، بما فيها من ثعالب ونمــوس (أنماس أفضل جمع للنّمس) وجرذان، وأذن أخرى تصغي إلى همس القرية الناعســة النائمة التي يوقظها صوت خاشع في شجن السَّحر القديم يمهد لصلاة الفجر، حتى يعلو معلنــاً: حيّ على الصلاة، حي على الفلاح، بعدها تبدأ الحياة تدب في النــاس والعصافير والــكلاب والقطط والغربــان، مازال هذا الصــوت - مع كل تغيير الأماكن والعصور وآلات التنبيه - يوقظني حتى الآن.

وربما كان ذلك وراء عشــق يخصني وحدي - أو هكذا أزعم لنفســي - لحيٍّ بن يقظان الذي عاش حياته منذ بكور الطفولة في جزيرة نائية، وحيداً متوحداً مع كل ما ينتبه إليه من حياة، شديد التوجس والانتباه كي لايصبح ضحية لكل ما يحاصر حياته، كان مؤلف هذا النص الحيوي ابن طفيل في القرن الخامس الهجري (الثاني عشر الميلادي) قد فتح أبواب انطلاق السليقة والفطرة والعقل كي تتحقق الحياة التي يميل بعض غلاة الأثرياء في العالم أن يمارسوها أحيانا لمدة محدودة يستمتعون فيها بما لا يحققــه الترف والإنجاز العلمي، الحيــاة الحية التي تتيح للحواس أن تعمل في يقظة واسترخاء ممتزج بالسحب والنسيم والمطر - والعواصف

(* العربي - العدد ٥٣٢ - مارس ٢٠٠٣).

أيضـــا، حتـــى لو لم يكن فـــي بالهم حي بن يقظان مـــا أنجبه في فراش الفكر الإنســـاني من روبنســـون كروزو للإنجليزي دانيـــل ديجو (القرن الثامن عشـــر) ثم تلك القفزات الرائعة المدهشة بين الحيوانات المفترسة فوق أشـــجار غابات الســـينما لمغامرات طرزان في العصر الحديث التي اقتحمت جماجم الجماهير في كل أنحاء العالم.

والحياة تظل - منذ نشـــوء الكون - هذا الفعل الساحر الغامض الذي ينبض بالنشـــاط في الأحياء من حيوانات ونباتات: تغذية ونموّاً وتناسلاً وتآمراً وذكاء وحقداً وآمالاً وطموحاً ولذة وطمعاً ورغبة وســـطوة وخوفاً واختفاء وتواضعاً وتكبراً وازدهاراً وإزهاراً وإبداعاً وبؤســـاً وحزناً وظلماً وتشـــكيلاً (لرســـومات أو جيوش أو بحثاً عن أنيس)، والعقل البشري لم يستطع - حتى الآن - أن يصل إلى هذا السر الساحر المعجز في الحياة، حتـــى لو اختـــرق - هذا العقل - الحجب والســـحب والخلايا والجينات والذرّة والسموم والانفجار وحركة الدم في العروق وأنسجة المخ والأشعار والطاقة والسرعة والوميض والفيروسات. ولا يزال - أخطر العلماء في أي عصر ابتداء من خروج آدم وحواء من الجنة واغتيال قابيل أخاه هابيل حتى تدمير الحياة في هيروشـــيما ومـــا ترتب عن ذلك من كوارث تحيق بحياتنا ذات الإشـــعاع التلفزيوني، لا يزالون يقعون في مأزق تفسير هذا الســـحر الرقيق المتألق في عيون أنثى تنظر إلى واحد منهم باســـتحياء هادئ يضطرب بســـببه المجهـــر والنظريات وقواعد إطـــلاق الصواريخ وأوراق النقد الحديث، حتى لو كانت أنثى أشـــرس الثعابين قد اســـتولت لنفسها بجزء يسير لتصبح حيّة تسعى، (رمزاً للشر الحيّ الناعم الزاحف نحو الشـــقوق والظلمات)، أو بعدة كتب انشـــغلت في فلسفة الحياة، أو مـــا هيمنت به الحياة المتفائلـــة على مجموعة مـــن الصحف في أقطار متعددة لتحتل الاســـم الثابت لها باللاتينية أو العربية - أقصد في أوربا وأمريـــكا (لايف) أو الحياة في لنـــدن والقاهرة، أو ما نجحت فيه الكتب المدرســـية بمقرراتهـــا عن علم الأحياء، أو ما ينهمك فيه أخطر وأشـــهر علماء الوراثة - (دعك من الوراثة الناجمة عن الملكية والتوريث الشرعي الآن) - والذين على قمتهم أحمد مستجير - من محاولة دائبة للاعتقاد بأنهم كادوا يقتربون من أســـرار الحياة فـــي الخلية الحية، حتى أن هذا

العالم بدأ حياته يحلل الشـعر العربي ويقوم بوزنـه في دقة يخترق بها البحور، فإذا به يستغرق في تحليل الخلية الحية: النبات والحيوان ويقوم بوزنها في دقة يخترق بها - كما يأمل - كل الغموض، وبين بحور الشـعر وغموض الخلية يحيا أحمد مسـتجير في بساطة الخلية الغامضة ذات الكهوف المتعددة في الجبال الشامخة الشرسة، والشاقة أيضاً.

إلا أننا - بعيدا عن العلماء - نجحنا بصفتنا الإنسانية الحذرة المتفائلة الحيـة أن نحقـق ما لم ينتبه إليه أحد، فقد كانـت القاهرة - العاصمة المصرية - تسـبغ على المناطق السكانية القريبة أو المواجهة لمناطق دفن الأموات - أي القبور - صفة الحي، فكان حيّ الدراسة، وحي البساتين، وحي العباسـية، أقدمها حيث تواجه مباشـرة مناطق المقابر، لكن صفة الحي انتشـرت بعد ذلك - وفي الخمسين عاماً الأخيرة - لتشمل روض الفرج وشبرا والزمالك وقصر النيل، ثم لم تلبث أن زحفت الأحياء صفة لتقسـيم إداري في كل مناطق القاهـرة والجيزة، وبدأت تظهر أيضا في مختلـف المناطق المصرية خارج العاصمة. ولا أجد مناصاً من الاعتراف بأننـي أعتبر النبي محمـد - صلى الله عليه وسـلم - أعظم من أحب الحياة بالمعنـى الفاضل الحي العظيم، وهو الرسـول الوحيد الذي قاد جيشـاً، وجرّب الهزيمة والانتصار، إنها الحياة: الحركة والقدرة الفائقة في التفكير، الإمعان والصبر، الحب الجارف للخلق، الإحساس بالطبيعة والتضحيـة وتجنب الخطأ، والاعتراف بـه إن وقع فيه، حتى أن صفاته توزعـت بين أصحابه ليواجهوا بها الحياة، وليجعلونا ندرك - في حيوية - معنـى ألا نكون ضحيّة لأحـد، وأن نحيا، كي تتفتـح جوانحنا للمتعة الكبرى، حتى لو بدأت حياتك في كوخ تسـوخ أقدامه في المستنقعات... السويسرية.



● تضطرب العيون حين تواجه الضوء الشـديد، فظلّت الأحلام - في هدوء - تحب الليل، أقصد الظلام.

● أصغر حفيداتي تنطق كلمة (بقرة) كاملة واضحة، ولا تزال تفشـل في نطق كلمة (غزال).

● السماء لا تمطر ذهباً، ولذا فإني أمعن فيها مرتاحاً، وأنت كذلك.

الأسد*

من المملكة القديمة إلى السجن الحديث

في كتب المدارس، الأسد ملك الغابة، وفي علم الحياة، ملك الأحياء في الغابة وخارجها، وفي التاريخ رمز السطوة والقوة والجبروت على هامات القياصرة والملوك والسلاطين وأمراء المقاطعات، وآخر أسد تاريخي كان هيلاسلاسي، أسد يهوذا وملك الحبشة، وشاهنشاه إيران اتخذ من الطاووس رمزا دون الأسد، ثم هناك الأسد البريطاني الذي عاشت إمبراطوريته تحت ظله، حيث لا تغيب عن عرينه الشمس، بعد ذلك انهمر الأسد في الزمن الحاضر من غابته وتحول إلى ماركات سيارات وعلامات لأغلفة الأدوية المقوية وقافزا في السيرك ولاويا عنقه في زئير مضحك على مقدمات أفلام شركة مترو، وترى أثر الأسد في الوشم على صدور وأذرع مواطنينا تحديدا للهوية والاسم والبلد، قبل ظهور عصر البطاقات الشخصية وأوراق الهوية وجوازات السفر.

وقد احتفى عالم الحيوان العربي (الدميري) بالأسد فأفرد له صفحات تضم كثيرا من أسمائه ابتداء من السبع وقسورة وورد، وانتهاء بالغضنفر ودرغام - أو ضرغام-، ولا يزال حكام جمهوريات إفريقيا الوسطى يزخرفون اسمه على عروشهم، ذلك أن هذا السبع ظل موضع تفاخر البشر- والعرب منهم- بصفاته القوية والجبارة التي تشغي بها قصائد الفخر والحب أيضا، ويمكنك أن تخاطب أعداءك وأصدقاءك بلقب الأسد في حرية تامة ودون أن تقع تحت طائلة قانون السب العلني

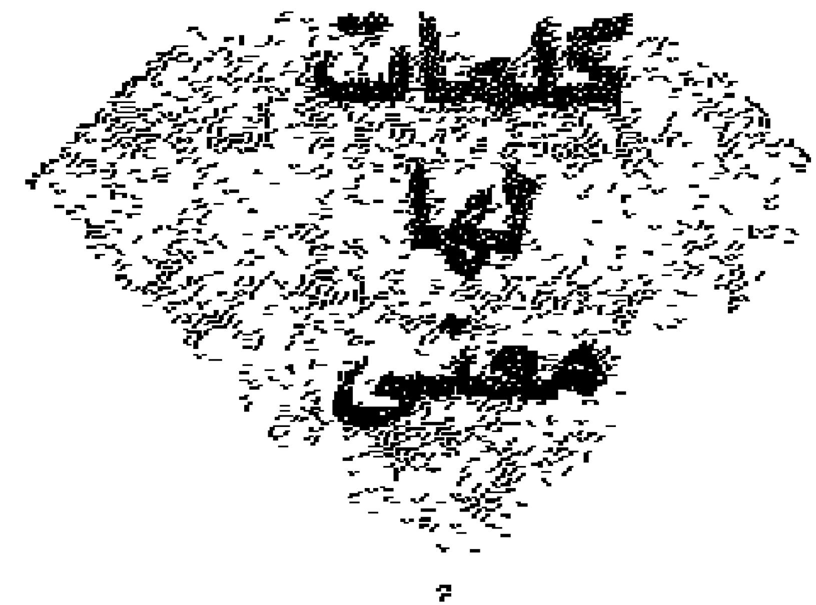
* العربي - العدد ٤٠١ - أبريل ١٩٩٢م

إذا ما استخدمت لفظ اللبؤة- أنثى الأسد- وصفا لزوجاتهم، وأيام كان الأسد أسدا ذا ضراوة وزئير وعرين ولبؤة وأشبال، كان يأنف أكل الرمم وبقايا صيد الآخرين، ولم يكن يهاجم الآدميين إلا إذا جاع جوعا شديدا، أو إذا استشعر منهم خطرا، في حين أن اللبؤة تفعل ذلك دون تقصير ودون اهتمام بفكرة القوة والعزة والكبرياء، لذلك نجد اللبؤة هي التي تطعم السبع الشائخ العاجز أو الجريح المكلوم.

وأشهر حكايات الأسد هي التي أنشأ منها برنارد شو مسرحيته عن ذلك الأسد الذي رفض رغم جوعه الشديد أن يأكل عدو القيصر حينما ألقوه إليه، لأن عدو القيصر كان صيادا عالج ذات مرة- منذ زمن- شوكة دخلت في قدم هذا الأسد بالذات، وليس هناك حكاية معاصرة توازيها.

ومع أن الأسد ارتبط وجوده بالغابات، فإن مجده الأدبي فاق هذه المساحات، ومن المؤكد أنه كان يعيش في بعض وديان البلاد العربية، إذ ورد ذكره كثيرا في فنون الآداب القديمة، من مجاز وتشبيه واستعارة. ولعل عنوان كتاب ابن الأثير (أسد الغابة في معرفة الصحابة) – ثم قبيلة بني أسد التي عاشت في جنوب شبه الجزيرة العربية – والتي منها الشهير امرؤ القيس – خير شاهدين على ذلك. كما أن اسمه لا يزال يعلو أسماء وألقاب بعض القبائل والأسر في المجتمعات المعاصرة، في الأردن الدكتور ناصر الدين الأسد الذي كتب أجمل وأرقى نقد في الرد على كتاب (الشعر الجاهلي) لطه حسين، وهو كتابه «مصادر الشعر الجاهلي وقيمتها التاريخية»، ويبز في موضوعيته ورصانته ودقته كتابي الخضر حسين ومصطفى صادق الرافعي.

وقد أحكم الإنسان سطوته على حركة الأسد، وحد من حريته داخل الحدائق المسورة في غابات تنزانيا وكينيا، أو مسجونا في حدائق الحيوان بالمدن الكبرى، أو أسيرا في برامج التلفزيون التي نرى فيها ملك الغابة وهو يغمض عينيه ويفتحهما اتقاء الذباب والبعوض وتعليقات المذيع، ودون أن يبكي.



● هــذا الصمــت البالغ الذي يحط على الذيــن تزوجوا ممن يحبون، بليغ أيضًا.

● إنني أعرف ضعف ما تعرف، وأملك ربع ما تملك، إنني أثرى منك.

● اقتضى الأمر تســعة شــهور لتتحول علامة التعجب الهيفاء الأنيقة إلى علامة استفهام ذات كرش غليظ.

● الفقر ليس عارًا، لكنه أبدًا ليس فخرًا.

● لا بــد أن يكون ذا عمر طويل ومديد هــذا الذي لا يكف عن الفرح بالأشياء الجديدة، حتى لو كانت كفنا.

● كان سلسًــا مرنًا يمكنه أن يتســلق جهلك ليحط داخل جيبك، هذا تفسير لمصطلح خاوي الوفاض.

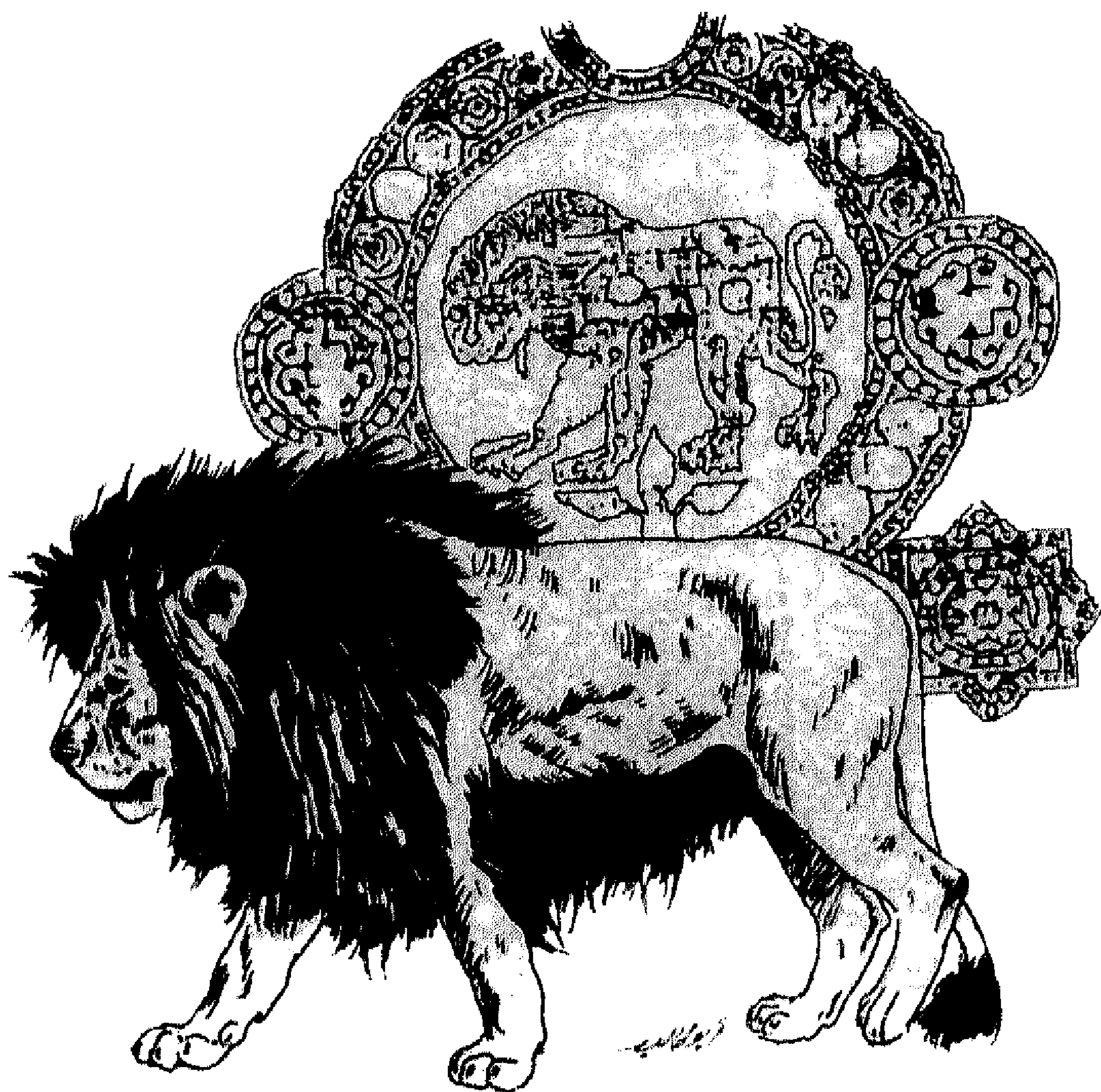
● بريق الذهب لا يدانيه بريق، ولا يعلو عليه سوى بريق عيون أنثى.

● الدبلوماســية هــي قدرتك على إخفاء مخالبك في دفء ابتســامة واسعة.

● يدهشنا مرتين: أن يكون شاعرًا، وأن يظل صيدليًا.

● س: هل توافق على زواج ابنتك من محبوبها الفقير؟
جـ: اســألوا أمها، فقد وقعت في المأزق نفســه معــي، ولاتزال تندب حظها، أنا لا أذكر.

● هذه الخضرة التي تنتشــر على الموائد، آخر ذكرى من أيام الحرية في السهول.



الذئب *

عاشق الدم والقمر والخراف والقصائد

مع أن الذئب ينتمي إلى فصيلة الكلاب، في علوم الأحياء، فإن ذلك أهون وأكثر قبولا من انتماء الأسد لعائلة القط، ومن بين آكلات اللحم يظل الذئب مشهودا له بالوفاء لروح الجماعة، وأكثرها تنفيذا لخطة مداهمة جماعية، وإصرارا على جني ثمار جهده منها دون التحلي بالفداء والتغني بالنصر، مع إقامة الأقواس المناسبة، وأحيانا المناقضة للنصر ذاته، ويشارك الشعراء في الهيام بالقمر، وعواؤه المعروف يبدأ من المقام الأدنى بطيئا ثم يتصاعد - كلما تفاعل مع القمر والحب - إلى المقامات الأخرى، وهو بطل لواقعة تاريخية لم يكن طرفا فيها، لكنها صنعت له شهرة مدوية، وهي ما أثاره أبناء يعقوب لأبيهم من أن يوسف - عليه السلام - فتك به ذئب في حين أنه كان قد بدأ أولى سلالم المجد في قاع جب، ويتمرغ الذئب في الحكايات الشعبية الشرقية كقاطع طريق للأطفال الذاهبين إلى بيوت جداتهم، لكن أثره في الأدب المكتوب قليل، أشهرها قصيدة للبحتري وبيت شعر للمعري (عوى الذئب فاستأنست بالذئب إذ عوى، وصوت إنسان فكدت أطير)، أما في الغرب فإنه يمتلك شريحة واسعة ورائعة من النثر والشعر، أعظمها على الإطلاق رواية للألماني هيرمان هيسه: ذئب البراري - أو ذئب البوادي - كما وضع الغرب، أيضا، كتابا عن زعيم تركيا كمال أتاتورك تحت عنوان: الذئب الرمادي أو الأغبر، وقام الممثل العتيد مارلون براندو بتمثيل فيلم شهير:

* العربي - العدد ٤٠٢ - مايو ١٩٩٢م

ذئـــاب الميـنـــاء، قمنا في مصـــر بتفريغه في عدة أفلام مشـــابهة، مع أن كل ما ورد ســـابقا يســـتخدم الذئب مجازا للتعبير عن السعار والشراسة وعنـــف المداهمة، والذئبـــة لا تقيم وزنا لزوجها العاجـــز، ولا تهتم بنقل الصيـــد إلى الوكر إلا لجرائها، بـــل وكثيرا ما تهجر هذا الوكر تحللا من الوقـــوع في براثن الأخلاق الفاضلة، ولعل ذلك يعد امتدادا للروح النازية التـــي تجعل قطيع الذئاب يتخلـــص- أولا فأولاً- من مرضاه ومجروحيه وعاجزيه، ليظل القطيع شرســـا فتيا، وعيون الذئب حمراء غامقة كأنها قـــد انتهت توا مـــن نزيف دموي، لكن ذئاب الحقـــول انقطعت منها روح القطيع ولم تعد ســـوى أفراد يخلون من حركات اللف والدوران والمناورة، وتقلصت ذؤوبتها التاريخية إلى مجرد اقتناص ضفدع أو دجاجة أو فتح بطن بطيخة أو عصر عود قصب (أمر منتشـــر في حقول صعيد مصر)، ويكاد الذئب العصري ينهي حياته دون اصطياد حمل أو ماعز أو خروف واحـــد، ولذا فقد تقلصت أعـــداده إلى درجة الندرة في كثير من المناطق التي تسيطر عليها نقابات العمال والصحف والمجالس النيابية والمدارس والأحـــزاب، ويعاني من الوحـــدة حينما يطلع القمر فيصبح كالشـــعراء الصعاليك لا يلبـــث أن يداهم الخيام والقصائد والأكـــواخ المنقطعة، ثم يعود فيعوي ويزوم مفعما بالشـــجن فيتشمم الندى والحصى والأعشاب وبقع الدم، ويطارد السحالي وقصائد النثر والجرذان وأبيات الحشرات، وهو يبز الإنسان شوقا واندفاعا إذا ما تسللت إليه روائح الضأن غير أنه لا يعود إلى شاة سبق له أن أكل منها على غير ما هو معروف عن رفاقه مـــن المغرمين بالضأن، لكنه يظل أمينا لتوحشـــه وطبيعة الافتراس فيه، ويحكي الدميري عن أعرابية حملته جروا صغيرا لم يجاوز مرحلة اللبن، ولما عادت إلى خيمتها وجدته قد فتك بفراريجها كلها، فالذئب لا يخضع للألفة والاســـتئناس والتدريب والوفاء كالأسد والنمر لكنهم يعشقون فيه قدرته على التخويف التي تجعلهم يطلقون اســـمه على أشخاصهم، بدر الديب وعلاء الديب ومحمود دياب وكمال أبو ديب، وكذلك الديبة، الذي كان واحدا من قدامى الرياضيين المصريين.



● حتى الصداقة تقبل التهجين، فكثيرًا ما أنتجت فسائل التفاح جميزًا.

● قالــوا إن أباهــا يخفي كنزًا، فتزوجتها لترتكــز كارثتي على ثلاث قوائم: زوجتي وأبيها والكنز، ولم يسقط أحدنا حتى الآن.

● حريتي الكاملة هي تلك اللحظات المبكرة والثمينة التي أغني وأصفر وألحن فيها: تحت الدش.

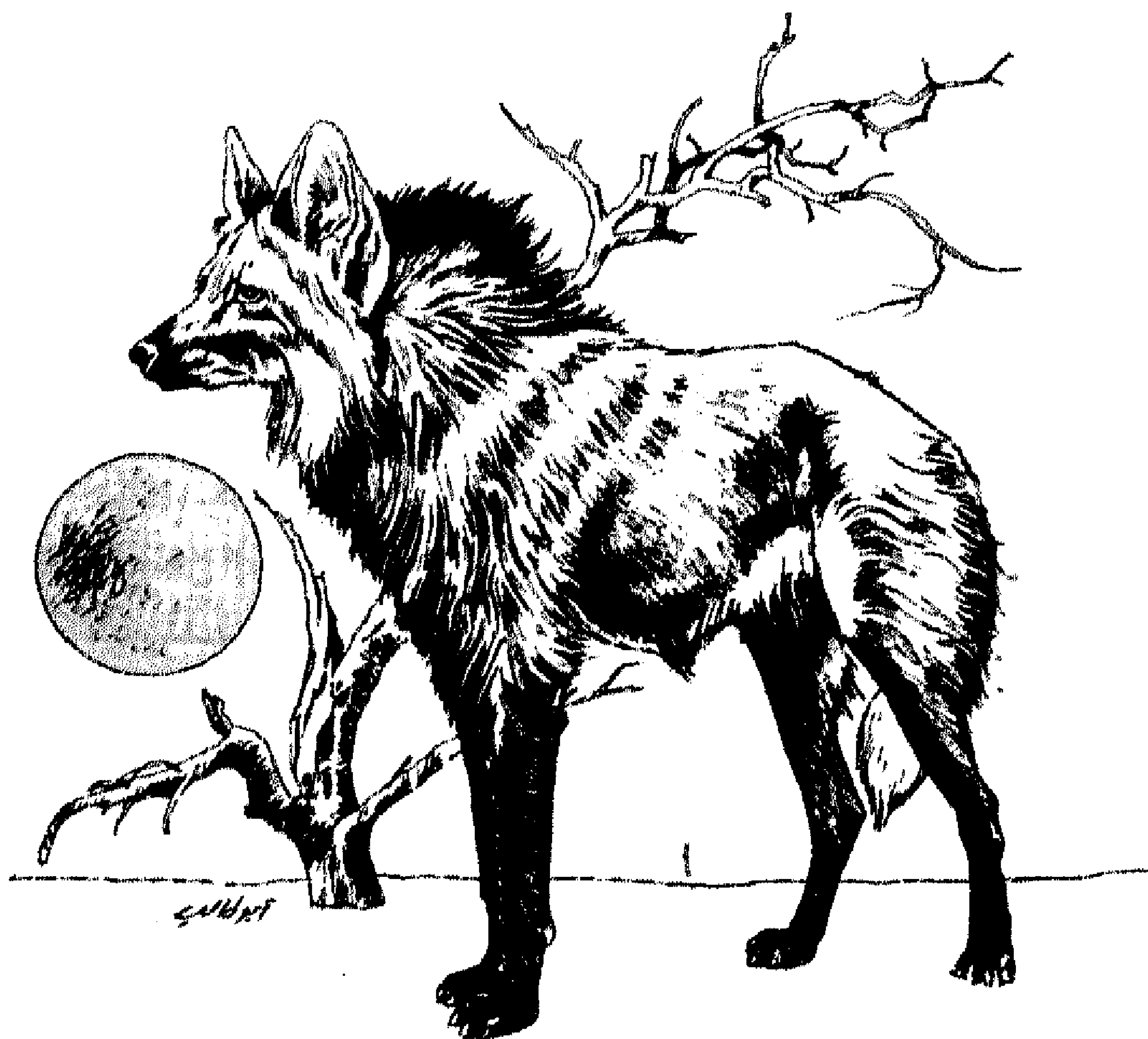
● المخ أوار ذكي متأجج، فإذا برد أصبح قابلاً للطهو.

● يرحمه الله، فقد كان في صحة جيدة، لأنه استفاد كثيرًا من الأسبوع الذي قضاه معنا.

● أين أجد أسطوانات وأشرطة موسيقى (البوب).

– هناك، فنحن نعزلها عن ركن الموسيقى

● إذا كانــت العصا من العصيان، والهراوة من الهراء، فمن أين جاءت السكين.



النمس*

الفاتك بالثعابين، والمنتظر في الوظائف الحكومية بين الدرجة الثانية ودرجة وكيل الوزارة

يكافح وينافح ويرتحل إلى بلاد الله كي يحقق لزوجته وأولاده الحياة المنشودة تحت سطوة زوج آخر يبرز فجأة لمشاركة الأسرة الترحم على الفقيد، موعظة عصرية.

النمس حيوان لاحم- أي مفترس يحب اللحوم- صغير، أكثر رشاقة من الثعلب، وأكثر انسيابا من الكلمة الشريرة، يعشق الحقول والأماكن القريبة من الدواجن. والنمس لا يحظى بالاهتمام المدرسي كالثعلب والذئب والقط والكلب، مع أنه أكثرها ورودا على لسان العامة بما يمثله من استخفاء وخفة ونعومة ولصوصية وتهذيب، كما أنه لا يعمل بأي شكل في الموروث من القصص والتي تحملت أثقل منه وأقل ذكاء كالفيل والأسد، وأخف منه وأردأ أخلاقا كالنمل والفأر والنحل والبعوض، وربما يرجع ذلك إلى كون النمس محققا بشكل واضح في أخلاق عتاة الموظفين، وخصوصا المحجوزين بين الدرجة الثانية ودرجة وكيل الوزارة، وفي سلوك الضباط الذين يختارون من العساكر المثابرين، والعاملين في مجال الكتابة الطامحين لموقع رئيس التحرير، وملاحظي مواقع العمل الذين ينوبون عن المهندسين المؤهلين، وحملة المفاتيح من رعاة مصالح البيوت، وتجار الآثار القديمة، والوسطاء في إعادة المسروقات، والقادرين على تمثيل الأدباء في محافل الأدب دون أن يكون لديهم أي رصيد يسمح، والباعة الجائلين للقماش الذين يبيعون على عتبات البيوت ما هو مكدس

* العربي - العدد ٤٠٦ - سبتمبر ١٩٩٢م

في المحلات القريبة، وأصحاب الحظوة في العمل السياسي الذي تحكمه المصادفة فلا يبارحونه بعد أن تنتهي المصادفة، وبؤسـاء التعبير الأدبي الذين لا يزالون يكتبون عن شهامة المرأة التي ضبطت وهي تسرق علاجا لزوجهـا العاجز، كما أن النمـس يتحقق آكثر في الـكلاب التي يتركها أصحابها ويهاجرون، حيث يصبح الكلب يتيما هادئا متسللا وهائما.

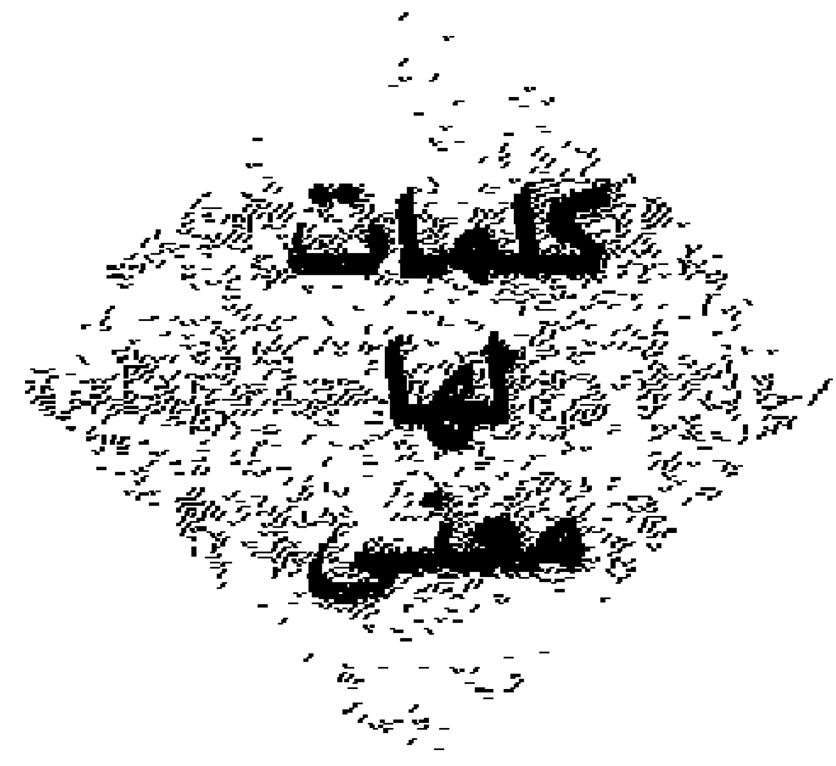
والنمـس حيـوان وحيد متوحد مع نفسـه لاينشـق عليهـا، لا تجيد الحيوانات الأخرى اسـتعارة اسـمه في أنواعها مثل الكلب: كلب البحر وكلب السمك، والثور: ثور المسـك والثور الآدمي، والبقر: بقر الماء وبقر الصحـراء، والحمار: الجحش الحديد (وهو الدراجة)، والظبي والغزال: الحبيبة المعشوقة، والجمل: سفينة الصحراء، والخروف: كل من لا يدرك حقيقة ما يجري، وفي حالة استثنائية فإن النمس هو الموظف القادر على التواصل مع رؤسائه، يأخذون منه صفاته ويمنحونه أخلاقهم المعاصرة.

وليـس هناك- فيمـا أعتقد- حيوان غير النمـس مولع بقتل الحيات والثعابين، يداورها ويحاورها ويحاصرها حتى يداهمها في أكثر نقاطها قـوة: مؤخرة الـرأس، أو الرقبة، وهو قـادر على التربـص، والانتظار والتدقيق عند المهاجمة، ولعل ما يسـاعده على ذلك أن المعجم الوسيط وضـع كلمة (تنمس) مقابل: (تربص) في حذر وحيطة، دون أن يهتم بأن الفعـل (تنمـس، منحوت من النمس ولذلك فقد جـاء النمس في قائمة معبـودات القدماء، وفـي أوامرهم ونواهيهم ألا يحيقـوا به الأذى، وأن يراعوا معاملة جثته بالحسنى والإكرام إذا ما عثروا على النمس ميتا، مع ملاحظة أن كبد النمس علاج للاستسـقاء، وقلب النمس علاج للتوجس والاضطـراب، ومخ النمس علاج لإدمان السـهو والخطأ، ورقبة النمس علاج للظروف الصعبة التي تواجهنا بعد سـن السـتين، وعيون النمس علاج للظروف الصعبة التي تواجهنا قبل الستين، أما أقدام النمس فهي علاج لنا في كل الظروف دون اهتمام بأن بعضنا لم يشـاهد نمسا حتى الآن.

ولقد كان النمس شاهدا على مرحلة حضارية، فقد وقف وزير الثقافة المصري محمد عبدالحميد رضوان عام ١٩٨٣ مفتتحا مؤتمر طه حسين بجامعة المنيا، وخطـب مادحا إقليم المنيا قديما وحديثا بما فيه من قوة

النمســاء، وهرعنا إلى المراجع لنعرف شيئا عن قوة النمساء، لكن بعض العارفين أشــاروا إلى أن المقصود قوة النماء- لكن كاتب الخطبة سحب الكلمة قليلا لتملأ السنتيمتر الباقي لتصبح النماء: النمساء.

ولم أصدقه، ذلك أنني متأكد أن ثمة مرحلة حضارية مرت علينا هي: النمساء، حتى ولو لم يعلن ذلك وزير ثقافة.



● كل المعاجـــم اللغوية ســـوف تظـــل تضحك عندما تقتـــرب من هذا التعبير: الاتحاد السوفييتي.

● متعة كبرى أن تفهم أكثر ممن حولك، مأساة.

● هذا الذي يخصص في شقته حجرة للنوم، مع أنه في أشد الحاجة إلى حجرة لليقظة.

● قلبـــي مـــع أي رجل يتزوج ممـــن تزوجت من قبـــل، يكافح كي يقهر الماضي، ويكافح كي يسيطر على الحاضر، دعك من المستقبل.

● لقد بدأت المسألة بمناقشة الاستشراق، ثم محاولة فهم الاستغراب، تمهيدًا للانتباه إلى الاستشمال، فمتى نصل إلى الاستجناب؟

الكلب*

صديق أثير هائم في الأرض والتاريخ

ح حيـوان أهلـي، يربـى للصيد أو الجـر أو الحراسـة، ومع ذلك فمعظـم الكلاب التي تغطي أرض العالم قفزت من فوق أسـوار هذا التعريف المعجمي، لتهيم في الشـوارع بروح شـاعرية تتشمم أوكار الطعـام والقصائـد، تهابر وتثابـر وتتجمع وتتشـاجر وتختلف وتتفرق وتتوالد، وخلال كل ذلك تنبح وتعوي وتبث رسـائل في الأفق الليلي تقلق أو تريح في الوقت نفسـه. ويقول العلمـاء إن الكلب من أول الحيوانات التي استأنسها الإنسان، يدعمون اسـتنتاجهم بالتآلف السريع بين هذا الحيوان والبشـر، ولقد رأيت كلبا ضاريا مهيب الشكل يحاول أن يرافق أحدا في الشارع، يبصبص بذيله ويزوم في رسالة رقيقة ويتابع الشخص المقصود الـذي - حينئذ- ترتعـد فرائصه ويلوذ بالمداخـل وانحناءات الحوائط، فلما فشـل هذا الكلب في الارتباط بالبشـر بدأ ينبح ويطارد الناس ساخرا، كان واضحا أنه يعبث، وأنه محبط ويائس، وأن المأكولات التـي يلقيها إليه الناس استئناسـا أو خوفا جاءت بعد موعدها، غير أن القصة انقطعت دون نهاية مناسـبة، فقد وقع فـي معركة مع كلب رعاة مـن (الغجر) كانوا يمـرون بقطيع الأغنام في الشـارع، فتجمعوا حوله بالهراوات والفئوس والحراب ووضعوا له نهاية غير مريحة. وأشهر كلب في الوجود لم يفعل شـيئا طوال حياته، كلـب أهل الكهف الذي ظل مع أصحابه في كهف (الرقيم) ثلاثمائة وازدادوا تسعا، حتى خرجوا من هذا

* العربي - العدد ٤٤٥ - ديسمبر ١٩٩٥م

(الماضي السحيق) ليروا عالما جديدا وأنظمة جديدة ولهجات جديدة، هم رأوا ذلك، أما الكلب فقد تساوى معه أن يأتي في عصر أباطرة الرومان أو فلاسفة اليونان، فالبشر جميعا كائنات لها إحساس، وهذا الإحساس لا يتغير باللغة أو بالعصر، كان أهل الكهف في محنة التعرف على العصر الجديد، وكان الكلب أصيلا لا تثيره هذه التغيرات ما دام أصحابه معه.

ومسألة وفاء الكلب معروفة، وفي الموروثات الشرقية والغربية حكايات عديدة عن كلاب قضت نحبها لائذة - أو لابدة - في أماكن أصحابها الذين رحلوا: سواء في المساكن أو الفيافي أو في المقابر، ولذا فإن الكلب يحظى بتعاطف إنساني قد لا يحظى به الإنسان في بعض التجمعات.

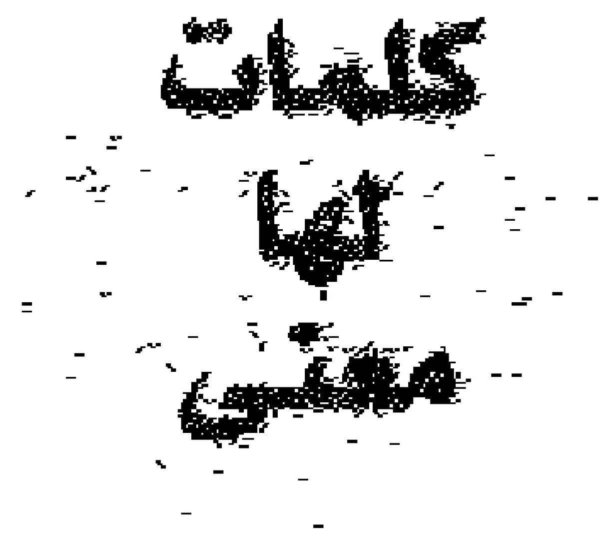
كلب آل باسكر فيلد للسير آرثر كونان دويل هو أشهر كلب روائي، والذي كشف الأخلاق الجهنمية في هذا الكلب هو شرلوك هولمز الباحث عن أسرار الجرائم، استولده عالم بيولوجي من علاقة مهجنة بين بقرة وكلب فجاء المولود كلبا جهنميا له هيكل بقري ضخم وملامح كلب، وطلى عينيه بمادة فوسفورية (كالتي تستخدم في أرقام الساعات) ليبث الرعب في منطقة معزولة له فيها مأرب، إن منظر حيوان غائل في الظلام له خوار البقر وعينان من شرر لكفيل بأن يدفعك رعبا لتتغرز في وحل المستنقع، هذا بالضبط ما حدث لضحايا كلب آل باسكرفيلد.

والأنواع العديدة من الكلاب، والعديدة في الحجم أيضا، تشبع رغبات وحاجات الإنسان، ولعل كلب أرمنت الشهيرة في محافظة قنا بالصعيد المصري هو أشرسها، وأخطرها كلب الرعاة الألماني - الذي عرف فيما بعد بكلب الشرطة (الكلب البوليسي) لتجاوبه مع التدريب للمتابعة وتحديد الروائح، وهو الذي يطلق عليه كلب مكفوفي البصر، وكلب الزيزب الصغير طويل الجسم قصير القوائم الذي يمتاز بالشجاعة والذكاء، كما أن ثمة كلبا صغيرا يدرب للهو ويعتمد عليه في السيرك والملاهي لخفة دمه وميله إلى المعابثة.

والكلب سلوان الأرض، لذوي الإحساس بالوحدة، والمكلومين، والعوانس، والذين خرجوا من وظائف ذات مركز قوي، والمخلصين من مساعدي أهل الشأن الكبير، وذوي الروح الشاعرية فاقدي الأمل، كما أن الكلب صفة

تطلق على الذين يحرسون العجين ويسرقونه، وتابعي أصحاب المناصب، لكن الجهر بتوجيه صفة: الكلب على أي فرد تبيح تطبيق قانون العقوبات الخاص بالسب العلني.

وسيظل الكلب - مع كل الاعتبارات - الصديق القديم الأثير للإنسان، دخل معه التاريخ ووسمه على معابده ومقابره وحوائطه المقدسة، ثم ظل وفيا له حتى شاركه في أولى تجارب رحلات الفضاء لتكون (لايكا) اسما جميلا ومعبرا عن النصف الثاني من القرن العشرين، مع أن جلّ الكلاب مازالت تهيم في الأرض، دون صيد، أو جر، أو حراسة، أو مركبة فضاء، مع إتاحة الفرصة لأن يقف كلبك الوفي - لحظات - على مثواك، دليلا على الإخلاص المتناهي.



- الذئاب لا تعابث السحالي تواضعًا، إنها في انتظار ظهور النعاج.
- زمن عجيب: لقد أصبح الخط المستقيم يثير الدهشة.
- النور الوهاج كالظلام الدامس، لا يبيح للعيون قدرة على الرؤية.
- والعقل أيضًا قد تصيبه شراهة المعرفة فيقع صريع التخمة.
- بالرغم من انفعال قائد الأوركسترا، وحركاته المؤثرة بذراعيه النشيطتين، فنادرًا ما ينظر إليه العازفون.
- الظواهر الطبيعية لم تنشأ كي تولد منها الكهرباء بل جاءت أصلا لخدمة الشعراء.
- الفرق بين بعض الحكام والسلحفاة: أن السلحفاة على دراية بالمكان الذي تعيش فيه.
- حتى مياه المستنقعات جاءتها فرصة للتسامي كي تصبح سُحبًا.
- هدير الشلالات ممتع، لبعض الوقت فقط.

النخلة*

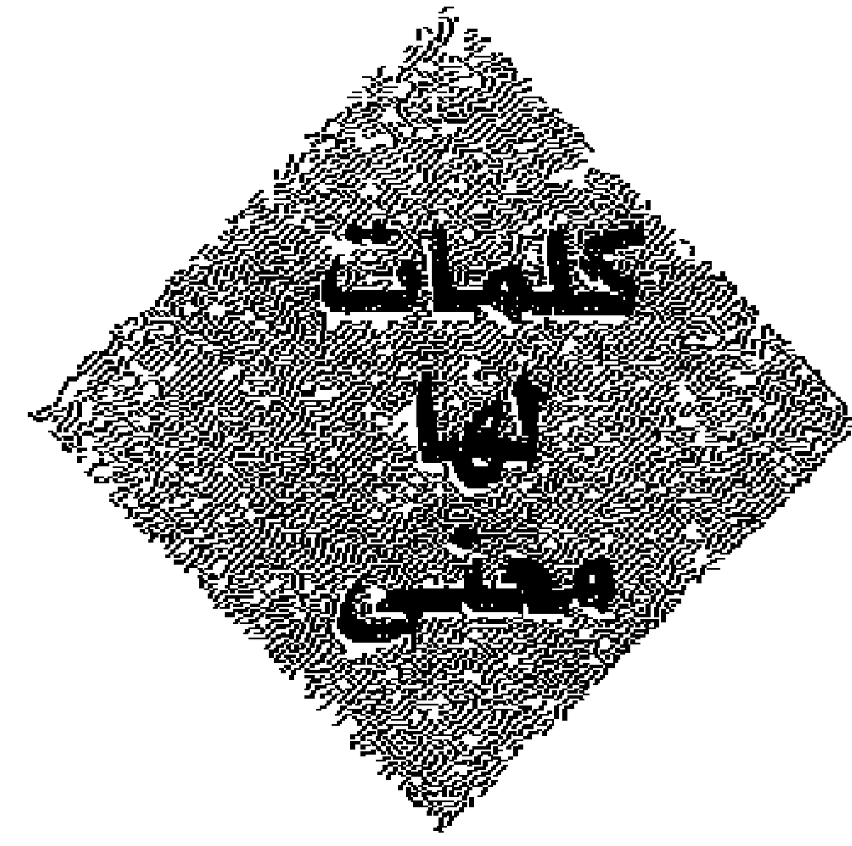
الممتزجة بأخلاقنا وتقاليدنا وقدرتنا الفائقة على الصمود

في التعريف بأمة العرب، انصب اهتمام علماء التاريخ والاجتماع والجغرافيا على الدين واللغة والتقاليد، دون الانتباه الكافي للنخلة، هذه السامقة الشامخة المتأودة مع النسيم المقاومة للريح على شواطئ النيل، ودجلة والفرات والعاصي، وعلى سواحل البحرين والكويت وعمان حتى المغرب وموريتانيا، ولا يخلو بلد عربي من غابة لها أو أجمة أو عدة أفراد تتراقص بين الحقول وفي عمق الصحراوات. شهدت بكور العقل وتفاعل الأساطير مع الخرافات ومولد الأديان وحكمة السماء واجتياح الطوفان وظهور السجون والحدود والكتب والكتاتيب، لترى العيال وقد جلسوا يتلقون العلوم على قفص من جريد وتحت سقيفة من الفلق المنشق من سيقانها، ورغم تعدد الأنواع من عائلة النخيل في الهند وجنوب آسيا والدنيا الجديدة «أمريكا» وإسبانيا وبعض مناطق وسط وجنوب إفريقيا، إلا أن النخلة العربية متفردة في صفاتها وفي ثمارها، وحتى وقت قريب لم يكن يخلو بيت - كوخا كان أو قصرا - من أثر في بنائه من أجزاء النخلة. ولأمة العرب دراية في شق جذوعها لتصبح أفلاقا «جمع فلق» تعالج في الماء وتجفف فترات طويلة حتى تكتسب صلابة ومناعة ضد السوس والحشرات لتصبح ركائز وسقوفا، كما يعالج الجريد ليصبح سقفا قابلا للتحمل والضغوط، لكن أمر الجريد- دون أغصان بقية أشجار العالم- تسلل من أحقاب إلى

* العربي - العدد ٤٢١ - ديسمبر ١٩٩٣م

الأقفاص والأسرة والمقاعد والكراسي والموائد، قرى الشواطىء الراقية الآن لا تزال تتعامل بشكل فني رقيق مع عناصر الجريد لخفته وقدرته على إذكاء نوع من التشكيل الفني البديع، لكن السعف يتفرد وحده ليصبح صلبانا يحملها المحتفلون في اعياد الأقباط يومي أحد السعف وسبت النور استحضارا لموعظة محاولة صلب النبي عيسى بن مريم تلك التي أجاءها المخاض إلى جذع النخلة، والتي أكلت منها رطبا جنيا، عليهما الصلاة والسلام، والرطب الجني- ذلك الذي لا مثيل لحلاوته وليونته وقدراته الشفائية- يقودنا إلى هذه الأنواع المتعددة من بلح النخيل: اللين والخشن والأخضر والرطب والأصفر والأحمر واليابس والتمر والرملي والعجوة والأمهات والزغلول، هي الثمرة الوحيدة التي تتعدد بتعدد النخيل وتعدد مناطق زراعته على غير ما ألفنا من جميع النباتات التي قد لا يزيد تعدد أنواعها على أربعة في أكثر الحالات كالبرتقال مثلا. ويحصي ابن البيطار وأبو زكريا بن العوام وداود الأنطاكي في كتبهم عن النباتات والعلاج بالأطايب والثمار ما قد يصل إلى ثلاثمائة نوع من بلح النخيل، ومع ذلك فإن النخلة تستعصي على التطعيم أو التلقيح مزجا بينها وبين أي نبات آخر كما حدث في البرتقال مثلا، ولذا فإن النخلة تظل شجرة أمينة مخلصة لا تمنح نفسها إلا لذكر النخيل، وتجد ذكر النخيل واقفا وسط إناث النخل شامخا غليظ الرقبة وكأنه ديك وسط الدجاجات، وفي الحالات التي تشاء الظروف فيها أن يبقى هذا الذكر وحيدا دون إناث فإنه لا يلبث أن يضطرب ويحتقن ويتجهم ويصبح وكرا للثعابين والزنابير والغربان الضالة، وهو ما يصف به الناس فاقد التواصل مع الغير «يعيش فلقا ويموت فلقا»، وأصحاب المأثور من الطب العربي يعتبرون البلح غذاء له قدرته على تقوية جهاز المناعة ضد الأمراض، وخصوصا إذا ما تم تناوله مع اللبن، ويؤثر المسلمون عادة أن يفتتحوا إفطار صوم يوم رمضان بالبلح: خالصا أو مخلوطا بالأشربة، ولا يزال كثيرون يعتبرونه خير زاد للسفر، وللذهاب إلى المدارس، وخير مفتتح لتكريم ضيف، ولكن المثلبة الكبرى للنخلة كانت في هذه الوقائع المؤلمة التي ربط فيها الجبابرة بعض الفقراء والمناوئين لهم في جذوعها وسقوهم الويل حتى الهلاك، حدث هذا في عصر الوليد بن عبدالملك

والحجاج بن يوسف الثقفي، وفي عصور المماليك والمداهمين ومحطمي الأوطان وذوي القدرة علـى الاجتياح، قديما وحديثا، حتى أن قاذفات اللهب وحاملات الصواريخ لم توقفهم عن ولعهم بهذا الفعل في العصور الحديثة، لكن النخل سـوف يظل نخلا، فيه كثير من صفات هذه الأمة التاريخيـة، يمتزج بأخلاقها وبأغانيها وبسـلوكها، ثم بقدرتها الفائقة على الصمود والاستمرار.



● أكثـــر المواقع مناســـبة كي يفتـــرس الباطل الحــق: الجيب الخاوي والجمجمة الخاوية، أيهما أظلم.

● لــو أن ناقــدًا أتيحت له فرصة أن يمتطي جوادًا ويسوســـه ولو مرة واحدة لعرف الطريق الصحيح للاقتراب من النص الأدبي.

● ظلـــت زوجتي تقول الحق ولو على نفســـها، ثـــم لاذت بالصمت في الأعوام الأخيرة.

● الحقد العميق في الفاشلين مثل لا يكاد يرى النور حتى يجمع حوله الذباب الأزرق.

● هـــذا التواطؤ الواضح الذي يلتف حولي، فحينما ينقطع مدد النقود أفاجأ بالمياه تنقطع فجأة وأنا في الحمام غارقًا في الصابون.

● الذي يجيد تمزيق ملابس الآخرين لا يحسن اختيار الكساء المناسب لنفسه.

● الســعادة كالفراش لا تخشـــى الروائـــح أو الأشـــواك، بل الصوت العالي.

شجر السنط*

الشرير الشوكي الذي لا ظل له مع صداقته التاريخية للناس

يبدو شجر السنط مصابا بالإرهاق والأنيميا إذا ما قورن بأشجار القـرى: الكافور والنخيل واللبخ، لكنه - مثل الشـر - ينمو خارج إرادة البشر، ثم لا يلبث البشر أن يبحثوا تحت أغصانه المعروقة الشوكية عن الظل، فقد رأيت أبي وهو يجمع في صبر شـجيرات (الحراز) التي اخترقت بواطن حقله، (والحراز هو شوك شجر السنط فقط في منطقة ديـروط - وسـط الصعيد المصري - التي أنتمي إليهـا، وقد تابعت أثر لفظ الحراز في القواميس والمصطلحات بمعنى الشوك فلم أجد). وأهل المـدن قد لا يدركون أن واحدا في الريف نادرا ما ينجو من لدغة عقرب أو زنبور أو شـوكة سـل النخل أو حراز السـنط، ونادرا أيضا ما تخلو منطقة مدارية - أي بين مداري السـرطان والجدي وحول خط الاستواء - من شجر السنط، حتى في الجبال الشاهقة على البحر الأحمر سوف تدهش أن الفسـيلة النامية في قلب الصخور هي من شـجر السـنط. وحينما تأخذ القطار من القاهرة إلى أسوان - جنوبا - لمسافة تصل إلى ألف كيلومتر، سـوف تلاحظ تغير وتباين أشكال المباني والأزياء وملامح الناس والمزروعات والتضاريس واللهجات، تختفي أشجار الجميز وتظهر أشـجار الدوم، يقل البلح الأصفر الصغير ويبـرز البلح الأحمر الكبير، تتراجع الحلي في صدور الإناث ومعاصمهن لتغزو مداخل الأنف وأعلى الرأس، تختفي مزارع البرتقال واليوسـفي ثم تتألق مزارع الرمان، سوى

* العربي - العدد ٤٥٧ - ديسمبر ١٩٩٦م

عنصرين يظلان ثابتين: أبو قردان وشجر السنط.

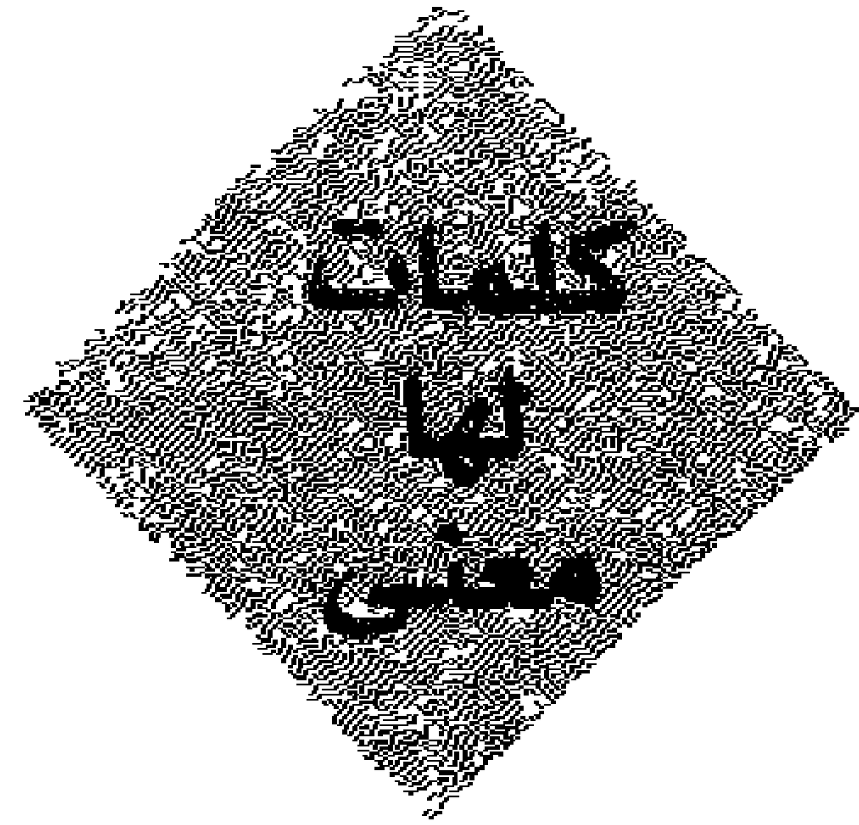
وفي ظاهر الأمر فإن السنط يظل شجرا شوكيا شريرا مؤلما لا ظل له، غير أن أشجاره استخدمت من قديم الزمان عند الفراعنة في تصنيع أخشاب الأثاث المنزلي والأدوات الزراعية، ويجمع أحمد كمال استخدامات الفراعنة للسنط في كتابه الصغير الجميل: اللآلئ الدرية - الذي طبع بمدرسة الفنون والصنائع سنة ١٣٠٦ هـ (وقد حسبتها فوجدتها سنة ١٨٩٠م)، ويقول إن نقوش آثار إدفو ودندرة وما جاء في الباب التاسع عشر من (كتاب الموتى) الفرعوني، تؤكد أن السنط كان منتشرا في مصر منذ البكور - أي في فجر التاريخ، كما أن القدماء كانوا يعدون نار خشب السنط هي الأقوى ولا سيما بسبب رائحتها النفاذة الناجمة من احتوائه على سوائل ومواد راتنجية، لقد استخدمت أخشابه مبكرا في صناعة الآلات الحربية - مع أن أغصانه شديدة التعقيد والالتواء.

والمواد الراتنجية هي الصمغ المشهور، والذي كان يدخل في تركيبات الأثاث وإضفاء اللون القاتم على الكتابة العميقة فوق المقابر وتشكيلات زخارف وتوصيلات العاج، يذوب بعضه في الماء، كما أنه يمتص كميات كبيرة منه، وكان يستعمل أيضا في صناعة الأحبار والمواد اللاصقة. وتذكر الموسوعة العربية الميسرة أن الصمغ يدخل أيضا في صناعة الحلويات، كيف؟؟ لا أعرف، ومالئا في صناعة النسيج، وملطفا في الأدوية.

لكن بلاد الريف أكثر اهتماما بالقرظ من الصمغ، والقرظ هو ثمرة شجر السنط التي تحتوي على بذوره وتشبه قرون شجر الخروب الشهيرة، إذ يستخدمون القرظ في الطريقة الموروثة من قديم في دباغة الجلود، ولعل جلد قربة حفظ الماء، وقربة خض اللبن أكثرها انتشارا، كما يدخل القرظ في كثير من الأدوية القروية لعلاج أمراض الجلد، وبالمناسبة فثمة مرض يصيب الجلد بالدمامل والعقد الجافة السوداء ويسمى طبيا وشعبيا: السنطة.

كذلك فإن بيوت العرسان الجدد لا بد أن تخلو من ثمار السنط - بذور السنط بالتحديد - وهي التي يستعملها خبراء صنع التمائم والأحجبة

فـــي تكوينات (الأعمال) التي تحيق بالأعداء الشـــر، ومع أن رائحة زهر السـنط الأصفر زكية ومقبولة، إلا أن كثرة الحراز - أي الشوك - الذي يطوف بها، وانتشار الدود المسمى - كلاب السنط - زاحفة حولها، يجعل هــذه الأزهار في موقـع الخوف والتوجس، ذلك أن كلاب السـنط هذه تتسلل إلى أقرب المخلوقات الحية وتلدغها مما يثير ذعرها واضطرابها، وحتى دون لدغ فإن الحركة الدودية بما في جسـد الدودة من شـعيرات خشنة يجعل الجسد الحي يقشعر. كتبت قصة مبكرة - وشهيرة - بعنوان كلب السـنط. ويسـتعمل شجر السـنط حتى الآن في صناعة السواقي والمحاريـث والنوارج والطبالى - وما إلى ذلك مـن أدوات ريفية - لكنه يظل شـجرا شريرا وكريها رغم كل ما أفاد به الناس، حيث لا يرتاح إلى جذوعه أحد، لأنه أيضا بلا ظل.



- كل المعادن تشكلت أسماؤها خارج الفعل الماضي، عدا الذهب.
- ينشـئون الشـعر على وقع خطـوات الجمال، وعندما يسـتعملون السيارات والطائرات يدهشون للشعر الحديث.
- هذه القـدرة المذهلة التي يتلمس بها النور الطريق إلى الأذكياء ولو كانوا عميانًا.
- تتشـقق حوائـط المدارس مـن الأناشـيد، وحوائـط المحاكم من الارتجاف.
- مسابقة ذات سؤال واحد: متى وأين عرفت أي كثافة سكانية يهودية السلام؟
- مطلوب منـي أن أتفاءل، بعد أن أهلكت كل هـذه العصور المتوالية المتناقضة.
- تتشـدق كتب مدارس الصناعات الغذائية والمنزلية بما تحيقه إناث الحشرات فتكا بالذكور، تدير هذه المدارس ناظرات.

القصب *
مأوى السكر وذيل القط وناي الموسيقى وقطاع الطرق

ظللنا سنوات ندرس في المدارس المتعددة المراحل القمح والفول والبرسيم والأذرة والشعير، دون أن نقترب من القصب ، مع أننا في صعيد مصر بالذات ندرك أن القصب يؤثر في علوم الاجتماع والتاريخ وتضاريس الجغرافيا. هناك في منطقة ديروط مثلا منطقة زراعية شاسعة تقع بين ترعتين، وظلت هذه المنطقة أحقابا طويلة دون أن يقام فيها بيت واحد، بسبب زراعتها كاملة بالقصب، إذ إن غابات قصب السكر تؤوي الحيوانات المفترسة مثل الذئب والضبع والثعلب والنمس والقط البري، كما تؤوي اللصوص وقطاع الطرق وطالبي الانتقام والساعين إلى الثأر، وجاءنا عصر كنا في منطقتنا نلتوي في طرق جانبية ضيقة كي لا نسير بجوار حقل قصب، وعندما تنطلق كلمة (قصب) فهي لا تنصب إلا على قصب السكر، ذلك النبات المعمر المسالم المؤثر في جميع شئون حياتنا، والمتداخل في الحلوى والمشروبات المتعددة في درجات الحلال حتى تصل إلى درجات الحرام، وفي الفطائر والمهلبية وأمراض ارتفاع ضغط الدم والبولينا والكولسترول وتمزق صمامات الفؤاد، ثم مرض السكر (أو المرض السكري كما كانوا يطلقون عليه منذ خمسين عاما)، مع أن للقصب أتباعا خارج العائلة السكرية الحلوة، تراه في غابات غاب ذيل القط النامي بريا على شواطئ الجداول والبحيرات، والذي يهدينا بين وقت وآخر جثة قتيل مخفاة بين ظلاله

* العربي - العدد ١٦٤ -أبريل ١٩٩٧م

الكثيفـــة، وكثيرا ما تكون الجثة محترقة أو مجذوبـــة من المياه الغريقة، وهناك نوع من الغاب تصنع منه قصبة العزف: الشـبانة والمزمار البلدي والناي، وآلات موســيقية عديدة أخرى، بعضها شــعبي نراه ونستمتع به في عزف الموسيقيين الشعبيين في الحواري والطرق والموالد، يساعد في تكثيف حكايات أبي زيد الهلالي ســلامة وعنترة العبســي والأميرة ذات الهمة، أو حكاية حســن ونعيمة الشــهيرة في صعيد مصر، (وبالمناسبة فإن حســن المغنواتي هذا الذي كان يعشق الغناء والشدو في ريف مصر، وتم قتلــه عقابا له على حب نعيمة، وجــدوا جثته أيضا مواراة في غابة قصــب ذيل القط)، كمــا أن نوعا من الآلات الموســيقية للقصب الغابي نــراه قد انضم إلى الفرق المحترفة وراء مغنيات المدن ومطربيها. وللناي بالذات دوره المهم وراء أم كلثوم وفي الفرقة الموسيقية التي تحمل اسمها، ولموتسارت أو موزار النمساوي الشهير مؤلفاته الشهيرة المخصصة للناي (الناي الســحري مثلا)، لقد انضمت القصبة الموســيقية إلى مجموعة العزف الأوركســترالي من مئات الســنين، دون أن تترك موقعها الأصلي في فم الرعاة، وشمامسة الكنيسة، والمعزوفات العربية والشرقية، ونادرا ما تخلو الألحــان الهندية من قصبة الناي، حتى تلك التي تتراقص على إيقاعهــا الثعابين الضخمة، والفتيات ذات الجســد اللدن في الأســمار والأفراح والليالي الملاح، ولاسيما أن قصب الغاب موطنه الأصلي جنوب آســيا، مثله مثل قصب الســكر الذي تعتبر الهند أكثر الدول إنتاجا له، و كان أول من اهتم بقصب الســكر اهتماما كبيرا في مصر محمد علي باشــا أوائل القرن التاسع عشر، من ناحية زراعته واستيراد ما يكون قد حصــل لأنواعه من تطورات في الهند، وتحققت للســكر المصري مكانة عالمية، وصلــت إلى ذروتها في عصر جمــال عبدالناصر، حيث تعددت مصانعه من كوم امبو وأدفو وأبي قرقاص إلى قوص ونجع حمادي، وفي الســنوات الأخيرة بدأت زراعة قصب الســكر في مصر تواجه مشــاكل عديدة أثرت في كمية إنتاجه، منها اســتيراد السكر من الخارج بأسعار تهدد إقبال الجمهور على السكر المصري، ثم منها زحف المباني والمساكن على مناطق زراعته، ومنها ســقوط الإلزام الحكومي على مناطق معينة بزراعته حفاظا على مصانع الســكر لتظل تعمل، وأصبح المزارع حرا في

اختيار ما يحقق له الدخل المناسب بجهد أقل وفي زمن أسرع، فقصب السكر يحتل الأرض أربعة أعوام حدا أدنى، أي أن كل عام يكون (كسر القصب)، ثم رعاية الجيل التالي من المحصول للموسم القادم.

ولايزال سكر القصب جزءا من هدايا العائلات إلى المرضى، والخارجين من السجن، والعرسان، والعائدين من الحج، والناجحين في المدارس والكليات والانتخابات، لكنه ممنوع في هدايا مجاملات المآتم وذكريات الموتى ومواسم الاحتفاء بهم، كما أن السكر لايزال حتى اليوم خارج استعمالات الأحجبة والتمائم والأعمال في التفاؤل والتشاؤم وما إلى ذلك من اعتقادات شعبية يستخدم فيها الملح دون السكر، فالسكر هو جزء من الذوق العام يطلق اسما على اللطيف من العيال: الذكور والإناث، واسما للقطط والكلاب، ولا يوجد من الحيوانات ما يلتذ بطعم السكر سوى الببغاء والقرد والحصان، كما أن السكر أصبح ممنوعا على الأفراد الذين يتجاوزون في أعمارهم الخمسين عاما (في المشروبات مثل الشاي والقهوة، وفي الفطائر والعصائر والعجائن)، غير أن السكر حين يختفي من البيت سوف تسمع من يهمس متضايقا أعوذ بالله، وكان ذلك يطلق على خلو البيت القروي من الدقيق، لأن نفاد السكر من البيت إشارة للفقر وهي مرعبة للأسرة.

على أن القصب يترك السكر في الأفواه وزجاجات الشربات ليتراقص زخارف ضوئية على فساتين الأفراح، وتيجان العرائس، ليصبح المقصب تكوينا لازما لهذه المناسبات العربية، في كل مستوياتها، الأكثر فقرا، والأكثر ثراء، ولكل مقصب عناصره من (الترتر) أو (الخرز) حتى اللؤلؤ والدر والماس أيضا.



● ذيـــل الكلب لا ينعـــدل لو علقوا فيه القالـــب أو رزمة دولارات: إنها الأصالة.

● لم يعد الجبر علمًا، لقد أصبح عنصرًا أساسيًا في الزواج.

● كثير من المحبين يرحلون وراء حبيباتهم وهم يتعذبون دون أن يدركوا أن الحبيبات قد توقفـــن عند نقطة معينة، وأن العودة إلى الوراء لم تعد ممكنة.

● أي عـــذاب هذا الـــذي يحيق بعصفور صامت يقـــف - في القفص - على جســـد عصفور ميت؟؟ المشـــهد أحال بيتنا إلى سرادق عزاء عدة ساعات.

● كان القطـــار الفاخـــر قـــد أغلـــق عينـــه متناومًا كيلا يـــرى فقراء المسافرين.

● سحر الأنثى يبدأ من العيون، دعها تتكلم...!!

● كان عدد الناس - قديمًا - يســـمح بوجـــود قرين خرافي لكل فرد، عدد الناس الآن تجاوز المسموح به من القرين، فظهر التقدم.

● الحدود بين الأمم، مثل أي حـــدود، قابلة للتعديل، بعد المفاوضات، وقابلة للإلغاء فور التعاشق، أو المداهمة.

الزهر*

أريج الحياة، ومتعة للنظر وواحة للفؤاد، والسلوان، وبهجة العرسان، والمنتصرين

صباح الورد، والفل، والياسمين، كل هذا الزهر يتألق بين التحايا الزاهرة في أقطارنا، حتى بعد أن ينسحب عنا الصباح لنوغل في المساء فإنه يستأثر بنصيبه منها، والزهرة ألمع نجم سماوي- باستثناء الشمس والقمر، وعبد الحميد الزهراوي من زعماء سوريا في أواخر القرن التاسع عشر وأوائل القرن العشرين أصدر جريدة «المنير» وكان يطبعها ويوزعها سراً ليقاوم سياسة السلطان العثماني عبد الحميد، وله تاريخ في إنشاء الأحزاب والمنظمات الوطنية، ولما نشبت الحرب العالمية الأولى حكم عليه بالموت شنقا، أما أبوالقاسم الزهراوي فهو أول من نبغ في الجراحة بين العرب، وقد عاش في الزهراء- من ضواحي قرطبة الأندلسية، أجرى العمليات الجراحية التي وضع تفصيلها في كتابه «التصريف لمن عجز عن التأليف» وكان له أعظم الأثر في النهضة الأوربية بعد أن رحل صاحبه عام ١١٠٣م، وزهران هي قبيلة في منطقة عسير بشبه الجزيرة العربية، وفيرة العدد الذي قد يصل إلى مائة ألف فرد، وزهر اللؤلؤ: يطلق على كثير من نباتات قصيرة تنتشر في أوربا وشمال آسيا، وهي فصيلة مركبة ذات أزهار إشعاعية، وهي غير زهرة الثلج ذات الشكل الناقوسي من فصيلة النرجس، وشنق زهران: قصيدة طويلة كانت لها شهرة مدوية في الخمسينيات لصلاح عبد الصبور، أنشأها حول زهران الذي تم إعدامه شنقاً في أعقاب حوادث دنشواي-

* العربي - العدد ٤٧٣ - أبريل ١٩٩٨م

تلك القرية المصرية التي داهمها الإنجليز بعد أن فتكت ضربة الشمس بأحد جنودها، وزهران سلامة رسام مصري شهير ومؤثر، وتحظى رسوماته بالتميز الجمالي المتفرد، وزهير بن أبي سلمى شاعر من العصر الجاهلي، أسس مدرسة «عبير الشعر» التي تتأنى وتنقح في القصيدة قبل أن تصل إلى الناس. والزهري من الأمراض التناسلية الخبيثة - رعاكم الله - له أعراضه من طفح جلدي وأورام وارتفاع الحرارة ومسائل أخرى عليكم أن تبحثوا عنها بعيداً عن الواحة، أما أدهم زاهر فقد كان مديرا لنا في شركة كانت تعمل في الستينيات في مشروع السد العالي، ومن كثرة تعديه علينا- في الأوقات القليلة التي عملنا معه فيها- قررنا أن نقتله، وبالفعل ترصدنا له مرتين، لكنه مات دون أن نحظى بالمراد، والأزهر: صفة ليوم الجمعة، وللجامع الأزهر الذي بزغ إلى الوجود في ميلاد مدينة القاهرة منذ أكثر من ألف عام بقليل، ليصبح أكبر- وأقدم- جامعة لعلوم الدين الإسلامي منذ نشأته حتى الآن، وقد أضيفت إليها- في عصر جمال عبدالناصر- جميع العلوم النظرية والتجريبية والتربوية الأخرى، والأزهران. الشمس والقمر، وزهر النرد «الطاولة في العامية المصرية» قطعتان من العظم أو العاج «أو البلاستيك حاليا» صغيرتان مكعبتان، ويحفر على كل وجه من وجوهها الستة نقاط سود من واحد إلى ستة، وتستخدم في اللعبة المعروفة، والتي يقلبها البعض من تسلية إلى ميسر، وماء الزهر: ما خرج من الزهر بالتقطير ويستعمل في إضفاء الرائحة الذكية على العصير، ويقال له أيضا ماء الورد، وأول ثلاث ليال في الشهر كانت تسمى: الزُّهر «بضم الزاي» - وهي الآن الليالي الثلاث التي تلي قبض أي أموال وتحتسب فور لقاء الصراف مباشرة، والزهراء لقب السيدة فاطمة بنت الرسول «صلى الله عليه وسلم»، والزهراوان: سورتا البقرة وآل عمران من القرآن الكريم، وزهرة الغسيل مادة تستعمل في الغسيل لتضفي على الملابس البيضاء بالذات تألقاً مشوباً بظلال اللون الأزرق البهيج، وزهرة القمر: نوع من الكروم «الأعناب» التي تنمو في أمريكا «وتزهر بالليل»، والزهرية: الإناء الذي توضع فيه- أوتنمو فيه- الزهور، والمزهر: آلة موسيقية شرقية تشبه العود وتثير الشجن بسبب نغماتها التي تقارب القانون، والدكتور زاهر طبيب مصري التقيت

به في بغداد عام ١٩٦٩، كان مغرماً بالقصة القصيرة والشعر حين كنت – أنا– أحاول العوم في بحر الكتابة، ولا أعرف أين أراضيه الآن، والزهار: بائع الزهور، وتاجر الزهــرة، وصاحب الخبرة في صناعة النيلة «صبغة شديدة الزرقة تستخدم في مظاهر الحزن والالتياع بسكبها على الملابس وفوق رءوس النساء»، وزهر الفول يطلق على الكتكوت الذي تلازم بياض أجنحته نقطة سوداء، ويتيمن أهل القرى به، وهو اسم قصة لي عن ديك عظم أمره واستفحل لهذه الأسباب.

يبقــى مــن الزهر كثير من الأمور التي نشــمها قبــل أن نراها، ترقبا لتواصل وجداني متوقع، وتعبيراً عن امتنان يصعب على اللســان التعبير عنه، ثم إن مروج الزهر– حين تمتد في الأفق– فإنها قادرة على احتوائي وجذبــي إليها، كي أتحول إلــى فتات ودقائق في المعانــي الجميلة التي يشع بها الزهر في الأغاني والأشعار والقصص الرومانسية، وفي أكاليل المقابر، وإكليلات العرسان والمنتصرين أيضا.



● فقرات العنق لا تطاوع الرأس الذي ينحني لغير الله، كثيرًا ما تتكسر فلا يعتدل لها صاحب مرة أخرى.

● ليس صحيحًا أن المدن تخلو من السراب الذي تتميز به الصحارى، إنه فقط يميل إلى الركون في الجماجم.

● يأتي التذمر ثم الكراهية، فالعصيان: من العصا.

● يصل مجدك إلى عنان السماء حينما تهمس الجدة لأحفادها بأنها كانت تعرفك، وتصمت ناظرة إلى البعيد.

● القط الأبيض الذي يعيش معنا بدأ يطعن في السن ويشيخ: انتشرت الشعيرات السوداء في رأسه.

● بعد اندثار مهنة السقا أخيرًا، يصبح من المناسب تعديل المثل الشعبي عن الغبي إنه: يبيع الماء في حارة السقائين، ليصبح: إنه ينشر إعلانات الثلاجات في أصقاع الإسكيمو.

التمر.. من آل تيمور ...حتى تيمورلنك *

مفاجأة حالت دون تحريك قلمي وعقلي بعض الوقت، التمر هو المرحلة التالية بعد نضج البلح ليصبح الرُّطب ثم يتتمّر، أي يجفف، وهو ما يستطيب الصائمون تناوله - في بطء - عندما يستهلّون الإفطار فور أذان المغرب الرمضاني الكريم، إلاّ أن التمر في تاريخي الشخصي المفعم بأنواع البلح: هو المرحلة السابقة قبل أن يصبح البلح بلحًا، وكنت أعاقب من أمي - أكثر من أبي - حينما يستبين لها أنني انتزعت التمر من سباط النخيل، وقد استشرف اللون دون النضج، سبع نخلات ذات أنواع متعددة من البلح في ساحة بيتنا الريفي ذي الحوائط المنحنية - في حنان - على بقايا الجريد والسعف الناشف، وبين تمر المعاجم اللغوية وتمر الأحقاب الأولى من عمري، ظل تمر البلح يستقبلني حتى بعد أن هاجرت من قريتي إلى القاهرة (سوق البلح في السبتية: الحي الشهير) ثم إلى أدفو وإسنا وأرمنت وكوم أمبو والواحات وبلاد النوبة: حيث يصفو التمر ويشف، ويمكنك إذا أمعنت في واحدة من هذه التمور أن ترى النواة كامنة في الجسد اللدن الذي تجاوز مرحلة الرطب، والذي يثير في النفس اشتهاء مهما كنت شبعانًا.

ويذكر داود الأنطاكي في تذكرته الشهيرة لأولي الألباب أن التمر هو المرتبة السابعة في نضج ثمر النخيل، وهو كثير الأنواع يتجاوز الخمسين

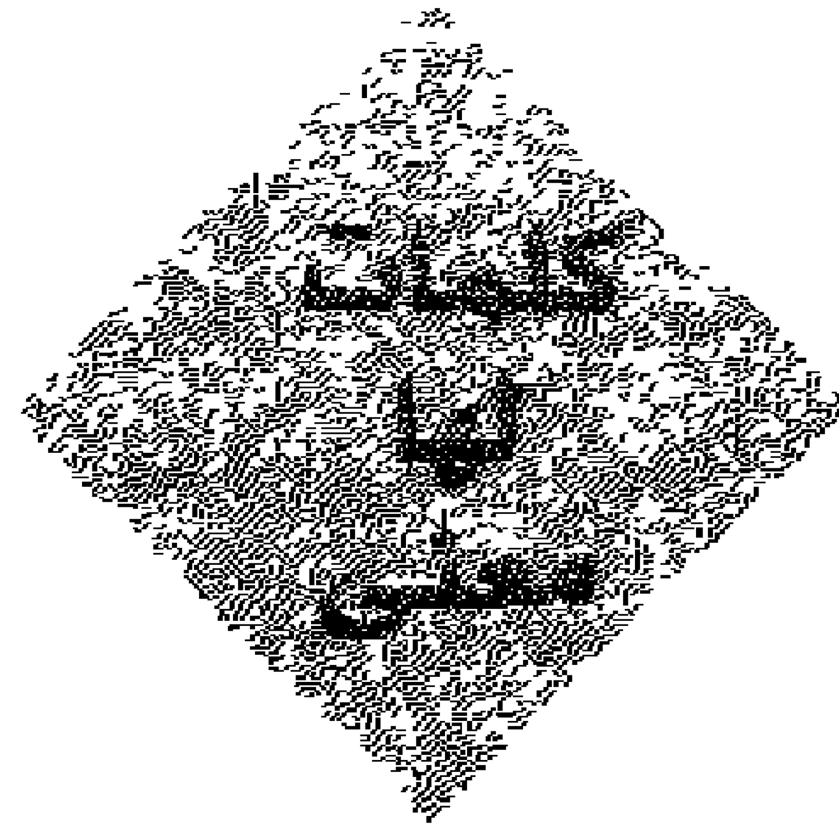
* العربي العدد ٥٥٠ - سبتمبر ٢٠٠٤

صنفًا، وأجوده ما ينشأ في البلاد الحارّة اليابسة (أي التي تتضاءل فيها درجات الرطوبة بما تعنيه من تشبّع الهواء ببخار الماء)، كنخيل المدينة الشريفة (في المدينة المنورة) والعراق ومصر، ويعالج التمر أمراض الصدر والسعال المزمن، ويستأصل مكونات البلغم والفالج (الشلل) وآلام المفاصل - خصوصًا إذا أكل على الريق، ولا أستطيع أن أترك نفسي مستدرجًا في غابات تمور الأنطاكي بما فيها من أنواع علاجات أمراض تداهمنا في العصر الحديث، حتى أتمكن من دخول عالم آل تيمور، وأولهم أحمد تيمور (١٨٧١-١٩٣٠م) العالم اللغوي المصري الذي عاش ورحل في مدينة القاهرة، وهو من أصل تركي، كان ثريًا شغوفًا باقتناء الكتب والمخطوطات النادرة، وكان يجمعها من أنحاء العالم العربي، وقد بلغت مكتبته ثمانية عشر ألف كتاب ومجلد تعد قسمًا مهمًا من دار الكتب الشهيرة في مصر، ومن مؤلفاته (التصوير عند العرب) و(ضبط الأعلام) و(أبو العلاء المعرّي وعقيدته). ثم قام أبناؤه ومحبّوه بإصدار كتابه: المعجم الكبير للكلمات العامية، بل إن تأثير هذا العالم العربي لم يكن في اقتناء وتأليف الكتب فقط، فقد أثمر في بيته وأسرته شقيقته عائشة التيمورية ذات النشاط الثقافي الاجتماعي المبكر، ثم ابنيه محمد تيمور، وقد رحل عام ١٩٧٣م - يرحمه الله - فبكى على فراقه كل أعضاء وخبراء وموظفي وعمال المجمع اللغوي، إذ كان مفخرة لنا جميعًا، ثم كان تتويجًا لآل تيمور الذين ندر من نجد هذا الإنجاز الثقافي والفكري والسلوكي في أسرة واحدة مثل هذه الأسرة التيمورية، وكأني بهذه الجملة أعتذر أن أخرج من هذا الإحساس والحسّ العربي الراقي، إلى تيمور آخر هو تيمورلنك، ذلك الفاتح المغولي الذي ولد قرب سمرقند في وسط آسيا، ويعرف أيضًا بتيمور الأعرج، وكان يدّعي أنه من سلالة جنكيزخان، غزا فارس (إيران الآن) وجنوبي روسيا والهند، ثم اكتسح بلاد الشام، ودمّر مدينة حلب (التي استباحها لمدة ثلاثة أيام من النهب والتخريب)، ثم استولى على دمشق (فأخذ طائفة من أفضل علمائها وأمهر صنّاعها وفنانيها ونقلهم إلى سمرقند)، ثم عاد فزحف على بغداد للمرة الثانية، بعدها زحف إلى آسيا الصغرى وهزم العثمانيين في موقعة أنقرة (١٤٠٢م) وأسر سلطانهم بايزيد، ثم

توفي - تيمورلنك - آخر الأمر أثناء غزوه للصين، اتركوني أخرج من هذا العالم المشتعل المرهق حتى أعود إلى أنواع من التمور المريحة.

ولقد عثرت - بمتعة نادرة - على أول متخصصة عربية في فن الولادة، متجاوزة ما تقوم به القابلات (أو الدايات في العامية المصرية) من مرحلة الخبرة إلى الرقيّ العلمي، إنها تمرهان جليلة، (وقد رحلت عام ١٨٩٩م) خريجة مدرسة القابلات التابعة لقصر العيني (أشهر كلية طب وأقدم مستشفى في مصر)، وقد وضعت خبرتها وتجربتها المؤسسة على العلم في كتاب عنوانه (محكم الدلالة في أعمال القبالة).

إلا أن الشجرة المعمّرة وموطنها إفريقيا الاستوائية، والتي اشتهرت الهند - نعم: جنوب آسيا - بزراعتها ورعايتها وتصديرها، إنها التمر هندي، الشهيرة في كل البلاد العربية مشروبًا له لذّة خاصة، تجده في المقاهي وقاعات الاستقبال ومع الباعة المتجولين، ولايكاد بيت يخلو من حب الناس للتمر هندي، الغني بالأملاح وفيتامين (ب)، ويميل إلى المرارة رغم ارتفاع نسبة السكر به، ويتصف بقدرته الفائقة على الإنعاش، والإحساس بالمتعة، وهو ما يتركه في وجدانك التّمير: تلك الطيور الصغيرة الجميلة، والتي ترفرف حول الأزهار بطريقة منسابة بالغة العذوبة، ولسانها أنبوبي بين أخضر برّاق وأزرق وأسود وأرجواني وبني وبرتقالي أصفر، وتنتشر في وادي النيل، في المناطق ذات النباتات الوديعة التي لا أشواك فيها، وهو ما يساعدني على الإحساس باللذة الطفولية القديمة، بعد أن استدرجتني مصادر التمور إلى مناطق شائكة، لم يكن سهلاً أن أتفاداها، مع أني مازلت - حتى آخر هذه السطور - أسعى كي أتسلق واحدة من نخلات منزلنا القديم، وصولاً إلى لذة قديمة، قد أطلب من أحد الأطباء أن يكتب التمر - والوصول إلى التمر - في تذكرة علاجي - أقصد علاجنا، في عصرنا الحديث، والذي اضطربت فيه كل أنواع التمور.



● هل يمكن لك أن تعود فتتمتع بمشــهد ثمار أشــجار التوت أو التين أو الموز إذا ما طارت ورقة مالية في الهواء فوق هذه الأشــجار..وغابت في الأفق؟!

● غريبة: كليــات جامعية للحقوق، ولا توجد كليــات للواجبات، حتى التعليمات المدرســية التي كانت فوق غلاف الكراســات، وتبدأ بالأمر أن ننام مبكرا ونســتيقظ مبكرا، لم تعد تجد لها موقعًا على أي كراســات بالمرة.

● الأصابــع التي تتعود على ضغط زناد البنــادق، لا يمكنها أن تألف مداعبة أوتار الآلات الموسيقية.

● لعــل القطط تظل الحيوان الوحيد الذي يســتثير فينا الإحســاس بالأســرة، وإلاّ... فكيف تفسّــر مواءك التلقائي حــين تداعب طفلك - لاسيما إن كان حفيدك - في فراشه؟!

العسل *
المؤثر في القوة البشرية، والمعالج لأمور الباطن والدم والانتقام

لعب العسل أخطر الأدوار في حياتي، دعك من حياة باقي البشر الآن، فعندما حملوني هزيلا أصفر العيون إلى طبيب البندر، أشار الطبيب- بعد الكشف والتمحيص والتقليب وفتح الفم، وبعد أن أمرني مراراً باستنشاق عميق للهواء - إلى أن يهتموا بتغذيتي، وبصفة أولية، لابد من مراعاة تزويدي بالعسل قبل الأكل، وكان العلاج- كما ترون- ميسوراً، وهو ما ارتاحت إليه أمي، ثم هو ما أدى بي إلى التفكير في الانتحار بعد ذلك بأسبوعين، عسل قبل الأكل وبعده وخلاله، وبين الوجبات - إن كان ثمة انضباط وجبات عندنا، فازدادت حالتي سوءاً، وبيتنا مفعم بالعسل، في «البلاص» الراسخ دائما في الحقول، ثم إن العسل - مع اللفت، والجبن المصوص الخالص من أي دسم عناصر أساسية في الوجبات الريفية- في تلك الأيام وانتهى أمر هذه المرحلة المرتبطة بالعسل- أي بعد أن ساءت صحتي من جديد- وبعد أن أشار المختصون في القرية أنني بالتأكيد ممسوس بشيطان- أعوذ بالله- قد يحتاج إخراجه من جسدي إلى عدة جولات دق الزار، كان جسدي قد ازداد نحولا وهزالاً، وعيوني اتسعت في صفراوية شريرة تؤكد ذلك، مما جعل الطبيب يعود لتقليب جسمي بين يديه، ويحاور أمي، ثم يصرخ: عسل أسود!؟

كل الشريحة التي ننتمي إليها في صعيد مصر لم تكن تعرف من

* العربي - العدد ٤٨٦ - مايو ١٩٩٩م

أنواع العسل سوى الأسود، وهو المستخرج من قصب السكر، حتى عندما طالعنا النص الكريم: «فيه شفاء للناس»، ثم قرأنا في المدرسة أن ثمة حشرات «يطلق عليها النحل» تنتج عسلاً، لم يطرأ في بال واحد منا أن ذلك ينسحب على عسل آخر غير عسل القصب، إذ إن منطقتنا كانت تخلو من النحل والعسل وعلومه ووسائل استخدامه، أما الآن فقد استعادت قريتنا توازنها وعرفت هذا النوع من العسل الأبيض، الذي يختفي باستعماله المرضى والراغبون في زيادة القوة البدنية، أو قوة التركيز في التفكير أو أي قوة مأمولة اخرى، ولذا فلم استغرب حين عرفت أن معجم السب بالألفاظ النابية قد احتوى على مصطلح جديد هو التشبيه بالشمع الأصفر، والذي يحمي العسل - عسل النحل- كما يفعل الخفراء والخدم إزاء السادة وأصحاب السطوة.

ومع طرد هيمنة العسل الأسود على عقل الشريحة التي أنتمي إليها، بدأ عسل النحل يغزو حياتنا، ولا سيما بعد أن لجأنا إلى المدن، وإلى ثقافة المدن، مع أن بلادنا- في الصعيد- مركز الحضارات القديمة، والتي عرفت عسل النحل مبكرا (عندما بكى الإله رع، وسقطت الدموع من عيونه على الأرض فتحولت إلى نحلة، وصنعت النحلة قرص العسل لتشغل نفسها بأزهار كل نبات، وهكذا صنع الشمع) - بالنص من معجم الحضارة المصرية القديمة الذي قام به عدد من علماء أوربا، وترجمه المرحوم أمين سلامة - أما خارج هذا المعجم فإن العسل مع قطرات الليمون يساعد على الهضم ومعالجة الإمساك، ومع قليل من المستكة يطهر الجهاز الهضمي من أي اضطرابات، فإذا أضفت للعسل مسحوق الحشيش- بغية الوصول إلى أوج المتعة - فمن المحتمل أن تلقى بعد ذلك بساعات حتفك بشكل أكثر احتفالية من المتعة السابقة، فإذا كنت ذكياً فعليك استخدام العسل صافيا في بواكير قطفه- وهو ما يعرف بأول قطفة، ويكون أكثر صفاء من القطفة الثانية التي تميل إلى الاصفرار، أي دون أن تضيف إليه أي إضافات، وعلى الريق صباحاً، حيث يقلل من الكوليسترول ويساعد على تنقية الدم، وينظم السيولة داخل جسدك، ويخفف من ضغط الدم، ويقلل من الإحساس بالإجهاد، كما أن العسل مع حبوب الحلبة سليمة أو مسحوقة- علاج معروف لاستكمال أو استعادة

اللياقـــة الصحية للوالدات حديثاً، أمـــا إذا كنت تود الانتقام من أعدائك فعليك أن تتذكر أن العسل أدى المهام القاسية في هذا الشأن- مع إضافة قليل من الزرنيخ، هي مسألة معروفة جيداً لدى النساء مهضومات الحق إزاء الرجـــال، وهناك احتمـــال أن يكون عدد من العشـــاق لاقى مصيراً مروعاً فور التفكير- في الخيانة- أو التحرر من حالة العشق ذاتها.

أما العســـل الأسود، أي عسل القصب أو البنجر، فأمره يختلف تماماً، لقابليتـــه الســـريعة في التحول إلى كحـــول، كما أن قدراتـــه - الغذائية والعلاجية- تتوقف عند ارتفاع نســبة الحديد فـــي جزيئاته، لكنه يظل بعيداً عن مجالات التأثير الخاصة بعسل النحل، والذي أدى اختلاطهما عندي- في سنوات عمري المبكر- إلى وقوعي في المأزق الذي كاد يودي بـــي، والذي لا يزال يطاردني كلما رأيت حقولاً للقصب، أو رســـماً لنحلة قريبة من خلية يحميها الشمع.

كلمات لها معنى

● الكف – بمفردها – لا تستطيع التصفيق، لكنها – بالتأكيد – تستطيع اللكم.

● تزداد العيون اتساعًا عند المحبين، وعند الأعداء أيضًا.

● الصداقة لها طعم الفواكه اللذيذة، ولذا فهي تستهلك بسرعة.

● أي هدية نقدمها لغيرنا دون أن يسبقها نية مؤكدة، هي باطلة تمامًا.

● طبق الملوخية حين يتحرك في أولى خطواته بينهما، عليهما أن يدركا أن العشق بدأ يتراجع بشطائره الجاهزة.

● أمي مازالت مصممة على أن أبي لم يعرف أحدًا سواها، مع أنه رحل منذ ستة وثلاثين عامًا، ودون أن يكون الموضوع في الكلام مطروحًا.

● إطلاقًا، إنني لا أشعر بالحرج حين أمعن في عينيها، الحرج يبدأ فور اضطراب الرموش بعيدًا عن عينيها.

الحلبة والحليب... والاستحلاب *

خلال حالات الشغب - أو التمرّد - الطفولية: كانت أمي - وأمك أيضًا - تقوم بتهديدي بأن تسقيني الحلبة إن لم أمتثل لأوامرها، وقضيت دهورًا حتى اتضح لي أن هذه الصياغة المريرة بالعقاب تنسحب في جميع أركان حياتنا المتناثــرة: المدارس الابتدائية المبكرة تمهيدًا لمراحل مدرسـية أخرى غير مبكرة، فترات الرياضة الصباحية، مناطق أو أقســام الشــرطة والأوراق الرسمية، أثناء جني القطن أو جمع كيزان الذرة علنًا وسرًا، التسلل إلى دار السينما حتى لا يعرف أهلنا - في تلك الأيام - أننا نحب الملاهي، وأحيانًا كانت كلمة الحنظل تحل في صيغة التهديد مكان الحلبة. هذا النبات - الحلبة أقصد الذي تتطلب الدراية به بعض النضج كي تفرق بينه وبين نبات البرسيم، فهما متشابهان تمامًا، وإن كانت أوراق الحلبة الخضراء الغضّة تســري فيها خطوط ناعمة لا يسهل إدراكها، كما أن صفرة تحيق بأزهارها بالغة الرقة، تمهيدًا للنضج إنتاجا لبذور الحلبة المريرة الشهيرة، والتي يعترف بها مختلف الأطباء والمعالجين والدجالين والمهيمنين على شــئون بيوتنا: علاجًا لأنواع عدة من الأمراض. ويذكر داود الأنطاكي في (تذكرة أولــي الألباب)، مجموعة من تلك الأمراض تحتــاج إلى كل التخصصات الطبية «تحلل ســائر الأورام، ومتى طبخت بالتمر والتين والزبيب ومزج ماؤها بالعسل، أذهبــت أوجاع الصــدر المزمنة والقروح والســعال والربو وضيــق التنفس، كما تحلل - أي تخفف - المغص» و«الجلوس في ماء الحلبة بعد نقعها يســهّل الولادة للحوامل»، ومع زبيب الجبل تمنع تولد حشــرات الجســد (ولا أحب أن أسجلها هنــا). كما أن الحلبة إذا نقعــت في ماء الورد عالجت الدمــوع والحمرة وبقايا

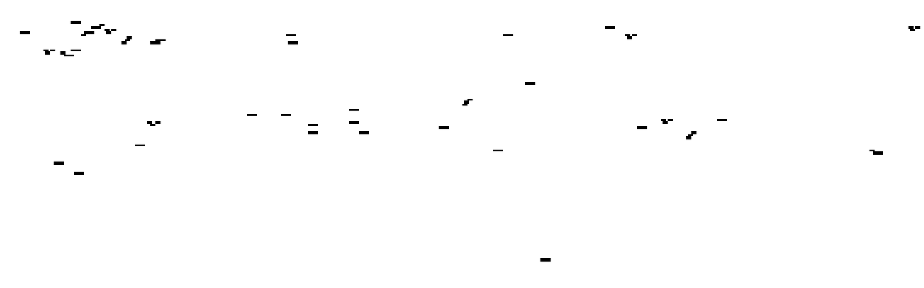
* العربي - العدد ٥٥٤ - يناير ٢٠٠٥م

رمد العين، مع أهمية دقيق الحلبة الذي يصلح الكلى وينشط الكبد، وعشرات الأمراض المختلفة الأخرى في الفم والبلعوم والشرايين والأهداب والآذان والعنق والرُكب (جمع ركبة)، وأعضاء عدة ليس من السهل الوقوع في مأزق الكتابة عنها، حيث لابد لنا من الخروج من الحلبة المريرة المعالجة والمنتشرة مشروبًا ذا طعم جميل يميل إلى المرارة في البيوت والمقاهي والنوادي في بلادنا - إلى الحليب الذي تحس بنوع من المتعة المبكرة عندما تنطق لفظه. فالحليب لبن مبكر سلس في فترات طفولتنا عندما ينساب من ثدي الأمومة الدافئ في أفواهنا - قبل أن تلتاث هذه الأفواه بالقهوة والشاي والكركديه والشعارات والاحتجاج والشد على النواجذ غضبًا. وقد يعني الحليب البراءة والتي يمكن لك أن تحس بها - دون لف أو دوران أو مداهنة عصرية - إذا ما زرت منطقة حلايب وشلاتين في جنوب الشرق المصري قريبًا من الحدود السودانية، وقد يكون ذلك اللفظ البريء مصدرًا وراء مدينة حلب السورية المعروفة شمال غرب الشام، وكانت لها شهرة قديمة في الألف الثانية قبل الميلاد، حيث ازدهرت باعتبارها واقعة على طريق القوافل الرئيسي المتجه نحو أرض الرافدين - العراق الآن، وكانت مركزًا لمملكة الحيثيين، ثم دخلت مجال بداية الازدهار العربي خلال القرن السابع الميلادي، وظلت حلب عنصرًا أساسيًا في ظروف الاستعمار الأجنبي للمنطقة العربية، السلاجقة والأتراك والصليبيين والمغول والعثمانيين. وقد اشتهرت مدينة حلب بإنتاج الحرير والمنسوجات القطنية والصوفية، والاتجار بالجلود والفاكهة، وأطلق عليها العرب لقب (الشهباء) لسموّها وعلوّ صيتها وشهرتها، والتي وصلت إلى أوجها بفضل أحد أبنائها - الذي ولد ونشأ فيها - ثم اكتمل نموّه ووعيه بالأزهر الشريف في القاهرة، ليكون البطل سليمان الحلبي الذي قام بقتل الجنرال كليبر قائد الحملة الفرنسية على مصر فور عودة قائدها الأصلي نابليون إلى فرنسا، وعوقب هذا البطل العربي الحلبي - فور محاكمته عسكريا - بالإعدام صلبًا على الخازوق بعد إحراق يده اليمنى، ليلقى بجسده بعد ذلك ليكون طعمة للعقبانِ والغربان، ومازال خنجر سليمان الحلبي الذي طعن به القائد الفرنسي محفوظًا في مدينة كركاسون بفرنسا.

وإذا كان الحلب هو استخراج اللبنٍ من الثدي، عن طريق التلمّس الحنون بأصابع اليد - والأنثى أكثر دراية وتفاعلاً وحساسية بأناملها من الذكور وآلات الحلب الحديثة - فإن الحلب - إن أصبح فعلاً جماعيًا يقوم به القوم: فإنما يعني أنهم يجتمعون قادمين من كل الأنحاء، ثم يدخل الحلب معنى آخر حين يقال: حلب الدهر أشطره، أي جرب أموره المختلفة خيرها وشرها، فهو حالب،

وهـــي حالبــة، وأعتقد أن ذلك يعنــي أنه – وأنها – تحت هــذه الصفة الحالبة، أصبحا أصحاب خبرة، فــإذا قيل (احلبوا معهم) أي كونوا أنصارًا لهم، وبالتالي فإن حالبت أحدًا فإنك تباريه – أو تناصره وتعاونه، فإن تحلب المائع – أي فاقد الصلابة – فإنه يصبح ســائلاً، ولذا فإن العرق إن تحلّب فإنه يســيل على الجلد أو البشــرة الإنســانية، فإذا ما تحلب الفم يكون الروال مقصودًا، لكن العين إن تحلّبت فإن الدموع تبدأ بالتعبير عن الحزن والشــجن، مع أن العيون قد تتحلّب – دموعًا – وابتهاجًا أيضًا.

وقد حاولت تفادي الاســتحلاب بصفتــه مصدرًا مقلقًا يتجاوز ما قد يأمر به الأطباء من اســتحلاب بعض الأقراص العلاجيــة لالتهاب الزور أو الحنجرة، أو ضيق التنفس، لكن الذي استشــرى في مختلف المجتمعات هو اســتحلاب مواد مخدرة معينة مثل المورفين والأفيون، وبالتالي فإن اســتحلاب الذكريات – هـروبًا مــن هذه التعاســة المريرة – أفضل حينما أجد نفســي على شــاطئ نهر النيل، فتقوم الذاكرة باســتحلاب قدرتها لتشــع في الوجدان شــجنًا يتسلل من حياتي المبكرة وســط الحقول وعلى شــواطئ الترع، فأزداد اختناقًا – تحت سطوة هذا الاســتحلاب – من جو المدينة الضاجّة الصاخبة حتى ولو اكتسبت الهدوء، وذات مرة – في شهر أبريل من عامنا هذا – كنت في مدينة أسوان، وكان الفندق الذي استضافتني فيه وزارة الثقافة يقف شامخًا نقيًا على ربوة عالية فوق شاطئ نهر النيــل، ومضت ليلة، وفي اليوم التالي ذهبت للتجوّل في جزيرة النباتات وســط مجرى النهر، وخلال إمعاني في المباني التي تخفي خلفها مكتب المحامي الشهير الــذي كنت أعمل كاتبًا فيه، ثم شــواهد البيوت والعمارات التي بدأت تســتثير الذكريــات، وبدأ الاســتحلاب يضغط على العقل، فتفــرز الجمجمة أنواعًا من البهجة الصبيانية لم نعد نمارســها، وظللت أتحرك في هدوء بين أشجار جزيرة النباتات، كان الهدوء غامرًا، والشمس بدأت تحمرّ خجلاً لتغيب، فإذا بي أجلس علــى مقعد حجري، والذكريات تضع فردوسًــا ناعمًــا، جعلني – هذا الفردوس أجلس على الأرض، ثم لا ألبث أن أضع ذراعي تحت رأســي، وأنام على الأرض، وغرفــة نومي في الفندق الفاخر الشــامخ على الشــاطئ الآخر، تمعن من بعيد انتظــارًا، بعدها: انغلقت الرموش تاركة اســتحلاب الدنيا الماضية لتأخذني إلى أعمــاق ليل وحيد وجميل حتى الصباح، ثم ما ألبث أن تنبّهت لأمر غامض، فقد حملت المعاجم ودوائر المعارف تعريف بالفجر – تلك الجماعات البشــرية المتنقلة – دون أن يرد أي تعريف بالحلب؟



كلمات لها معنى

● لـــم أفطن لذلك - بالرغم من ذكائي، الحق يتكون عندنا من حرفين الحـــاء والقاف، وهذان الحرفـــان بالذات لا يمكن نطقهمـــا في اللغات الأوربية والأمريكية.

● كل الحيوانـــات المرنة النشـــطة الجميلـــة: لا تنطح ولا تعض وتمعن في الأفق كثيرًا: الغزلان والظباء والشـــياه (دون الخراف) والأرانب وكل الأمهات حينما يصبحن جدّات.

● الأبـــواب التي تصدر أصواتًا مقلقة عند فتحهـــا، تعبّر عما يجيش بصدرك إزاء عائلتك، أو ما يجيش بصدر عائلتك ضدك.

● الفرق بين الليل الطويل والقصير: الهم والغم والقلق، عناصر تعويق حركة الزمن فيهما.

البئر*

عين الماء والأمل في الصحراء

ورد لفظ البئر مرة واحدة في القرآن الكريم ﴿**فكأيِّن من قرية أهلكناها وهي ظالمة فهي خاوية على عروشها وبئر معطلة وقصر مَشيد**﴾ الآية ٤٥ من سورة الحج، والبئر المعطلة رمز قوي للخراب والعقم وبؤس الحياة، وفي واحة كركر غرب أسوان في الجنوب المصري بئر معطلة لها عمق مظلم أصابني بالدوار، وتشير بقايا لافتة باللغة الإنجليزية على حافة هذه البئر بعدم استعمال مائها مما يعني أنها خضعت ذات عصر لنوع من السموم كانت القوات البريطانية المحتلة تلقي بها في آبار يحتمل أن تصبح تحت يد الأعداء الألمان أيامها، ومن الغريب أن النباتات والأشجار القريبة من هذه البئر كانت تعاني من جفاف شديد لم يلحق بغيرها من تلك النامية بعيداً. وأي بئر في الصحراء بالذات تثير في النفس الإحساس العميق بالأمل، غير أن أموراً أخرى لا يسهل إخفاؤها بالنسبة لي، فقد ظلت البئر سرداباً غويطاً يحمل في جوفه واقعة الانتقام فتكاً بصبي في قريتنا حينما كنا نتلمس الطريق إلى المدرسة في المرحلة المبكرة، ولا تزال هذه البئر داخل أعصابي تتسرب بين صحراء وأخرى في قصصي وكتاباتي وحكاياتي، وقد حاولت أن أتصور أن هذه البئر من باب الأمل هي الجب التي رأى إخوة النبي يوسف أن يلقوا به فيها بديلاً لقتله، لتنقذه الرفقة السائرة أي السيارة لتبدأ سيرة النبي

* العربي - العدد ٥٠١ - أغسطس ٢٠٠٠م

يوسف في التصاعد. بئر مرحلتي الصبيانية لم يحدث فيها ما يشير إلى هذا الأمل.

وأزعم أن أحداً لم ينج من السقوط في بئره الخاصة التي أعطاها عالما النفس: فرويد وأدلر اهتماما كشف ما في الإنسان من أغوار، أو هكذا بعد إذابة همزة الياء لتمتد في لهجة الحكايات صانعة امتدادها المذهل، نعرفها جيدا في قصص ألف ليلة وليلة ومرتفعات وذرنج «اميلي برونتي» والتي يتعدد مستوى عمقها في الأخوة كرامازوف لديستويفسكي وتجد لها أثرا في ثلاثية نجيب محفوظ، مع أن عوامل أخرى قامت بالتخفيف من كل هذه المعاني القاسية حينما استطاعت الجعة هذا المشروب خفيف الكحوليات أن تعابث البئر مستعيرة منه لفظ «بيرة»، مع أن بيرة جاك مدينة على الضفة اليسرى على نهر الفرات كانت حصنا عربيا إبان غزو المغول للشام في القرن ١٣، أما مدينة «بيرا» في موزمبيق جنوب شرق إفريقيا فهي على المحيط الهندي أخذت اللفظ نفسه دون اهتمام بما يجول في خاطرنا عن البئر أو البيرة، وهذا لا دخل له بما حاق باسم بيراندللو الشاعر والروائي والمؤلف المسرحي الإيطالي «جائزة نوبل ١٩٣٤» والذي حاز شهرته الكبرى بسبب ما أحدثه من كسر للإيهام المسرحي في «ست شخصيات تبحث عن مؤلف»، وقد يؤدي بنا ذلك إلى ما نتصوره واقعا تحت سطوة البئر لنتوه بين الصحارى، مع أن البئر المعاصرة قامت على فتحات آبار البترول التي أحدثت في النظام العالمي تأثيرات أعادت صياغة العديد من نظريات الاقتصاد والسياسة، وما نتج عنها من حروب أيضا.

وثمة رواية تحمل في الأدب العربي عنوانا مباشرا من أشهر أعمال احسان عبدالقدوس: بئر الحرمان، وأخرى لفيصل الحوراني: بير الشوم، أما سلك البيرة فهو نوع من الحبال المعدنية المرنة التي تستخدم في توثيق حمولات المقطورات والشاحنات، ولا تزال بيرو دولة لها وضعها المتميز غربي أمريكا الجنوبية، كما أن شارل بيرو شاعر فرنسي كتب مجموعة قصص شهيرة في الأدب الغربي تحمل صياغة جديدة وجميلة عن قصص «الجمال الناعس» و«سندريلا» و«ذو اللحية الزرقاء» تحت عنوان: قصص وخرافات من الأزمنة القديمة، وهي القصص ذاتها التي

تسللت من التدوين إلى الصياغة الموسيقية في الأوبرا والباليه.

إنني أحـــاول أن أبدو مثقفا كي ابتعد بكم عن بير الســـلم في البيوت والعمارات وما حدث فيه من كوارث صغيرة بالغة الوخز، أو الســـخرية، مع أن بير السلم قد يكون أهون مما جرى في بير العبد. في شبه جزيرة سيناء أثناء الاحتلال الإسرائيلي، أما الهدوء النفسي وما نبحث عنه من ســـلوان فإنه يتسلل إلينا من بئر زمزم بالمسجد الحرام قريبة من الكعبة المشـــرفة حيث يقع بينهما مقام النبي إبراهيم عليه الســـلام، وماء زمزم نتهادى به نحن المســـلمين، وقـــد تم تحليل هذه المياه في العصر الحديث فظهر أنها تتميز بفوائد وتأثيرات صحية تفوق المياه المعدنية الشهيرة في وسط أوربا على وجه الخصوص، وهذا ما يجعلنا نتشمم الطريق الوردي بعيدا عما حاق بنا من آبار أخرى.



● ألم تلاحظ أن أشجار التوت التي كانت تحفل بأوراق تعني الخشية والحرج والحياء، بدأت تندثر في السنوات الأخيرة؟

● قيمة الظلام الكبرى أنه يجعلك في حالة ترقب وتحفز انتظارًا للنور.

● كل العلوم والقواعد الهندسية يتسلّح بها خبراء المباني دون أن تساعدهم على التقاط قوالب الطوب فوق الحوائط بالطريقة التي يمارسها البنّاء الذي قد لا يجيد كتابة اسمه.

● أول من يفسد الذاكرة: أن تحتل الديون مساحة كبرى منها.

● قد يمتد ليل شتائنا – الملل المثير للسأم – إلى أربع عشرة ساعة، ماذا لو كنت في بلاد الإسكيمو؟

● لا تفتح الباب بسرعة، فالذي تنتظره لا يقوم بهذا النوع من الدق أو الخبط، وكثيرًا ما يكون الجرس – في هذه الظروف – تالفًا.

الرّمل *
وعالمه المتسع في الصحراوات والغيبيات والعشق القديم

ظل عنترة بن شداد يواجه المصاعب بين صليل السيوف وصهيل الجياد ليثير في الوجدان سحب الرمل الجيّاش بالعاطفة، وكانت عبلة بنت عمه مالك تذوب - على اتساع رمل الفروسية - انتظاراً للانتصار والتحرر، واستمرت شاشة سينما بلدتنا تتسع ليصبح للصحراء المعنى الواسع للغرام، وهذا ما لا تدركه حوائط قريتنا تحت ظلال الشجر وعلى ضفاف الجداول والمستنقعات، فاضطررنا - نحن العشاق المبكرين - أن نخترق الحقول غرباً بحثاً عن الصحراء، هذه الساحة المتسعة التي لا يمكن لعبلة أن تعيش بعيداً عنها، ومع تعاقب العصور ظهر امرؤ القيس - خارج أفلام السينما - وقد استبد به الشجن مخترقاً الآكام والتلال وكثبان الرمل يلتمس معونة القبائل في الثأر لأبيه، ثم شاءت الظروف أن أتخلّى عن عنترة وامرئ القيس وعمرو بن كلثوم لأقع تحت سطوة بدر لاما وكوكا ومحمد الكحلاوي ما داموا يؤدون المهام العاطفية فوق ساحات الرمل، وربما كان ذلك وراء هذا المصير المفاجئ الذي أودى بي لأعمل في مشروع السد العالي، وبالذات في منطقة داخل عمق الصحراء الغربية حيث قامت الكراكات والبلدوزرات - تلك الآلات ذات الضجيج - بترويع كل أبطالي (من عنترة إلى رابحة) لتستخرج من تحت طبقات الرمل نوعاً من الطفلة أو الكاولينا أو الطفلة الطينية المكمورة لتصبح نواة للسد العالي، وهناك أحسست بهذه الآفاق الممتدة حتى

* العربي - العدد ٥٠٤ - نوفمبر ٢٠٠٠م

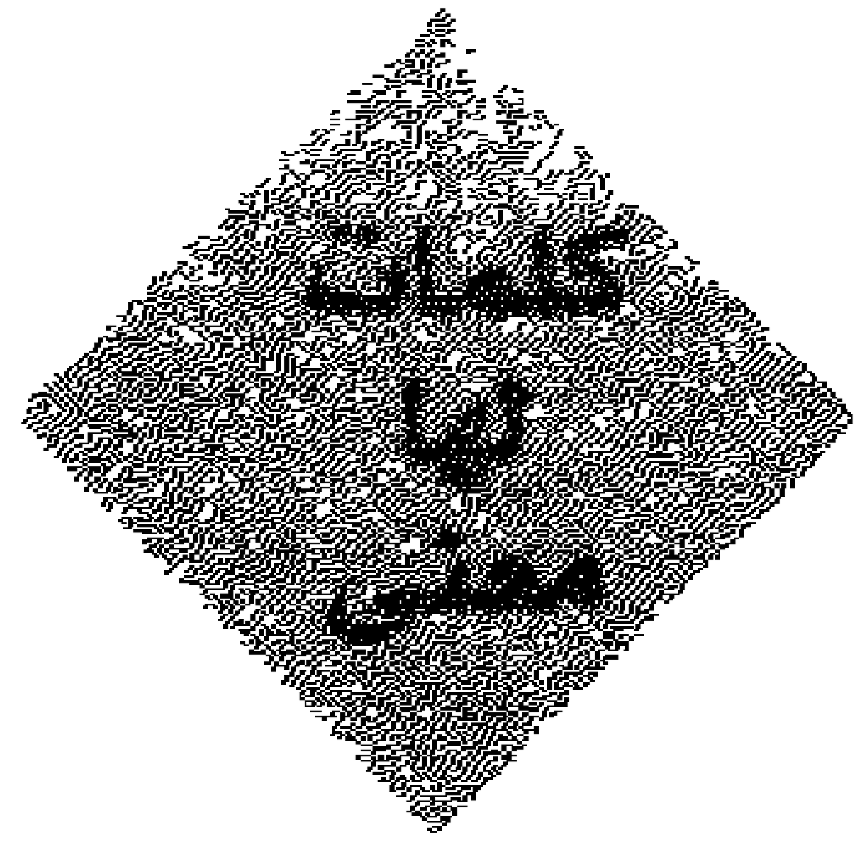
تلامس الغيوم الرملية غرباً، أو المنحدرة شــرقاً كي تشرق خضرة الوادي فوق التيار المتلألئ لمياه النهر.

والرّمل - مع تســكين الميم - هو فُتــات أو تراب الصخر، وهذا المعنى القاموسي يجعل الصخر أساساً للرمل، مع أن مشهد الرمال في الصحراء يجعلك تعتقد أنها - تحت ظروف قاســية - قد تصخّرت، والفعل (رمل) - مفتــوح الميم يعني هرول، ورمل النســيج: رقّقه، ولايزال أهل العرائس يرملون الأســرّة (جمــع ســرير): أي يزيّنونها بما يضفــي البهجة على العروســين، ولا يكاد الفعــل الثلاثي (رمل) يصبح رباعيــاً (أرمل) حتى يدخــل المعنى في كارثة الاحتياج أو الافتقــار أو نضوب الزاد ثم فقدان القرين - أي الزوج أو الزوجة، وعند تشــديد الميــم (رمّل) يدخل الفعل على الطبيخ فيفســده، وعلى الثوب فيلطخه بالدم، وعلى الكلام فيزيّفه، ومع ذلك فإن هذا الترمّل أو الارتمال إذا دخل على خط الكاتب فيصبح القصــد رشّ الرمل على كتابته ليشــرب فضلة الحبر، ذلك أيام التدوين والتســجيل بالحبر الزّفر الذي لم تشهده الأجيال الجديدة في الأحقاب الأخيرة، لكن الرملة سوف تظل تلك المدينة العربية (شرقي القدس) التي عاشت تاريخاً مريراً طوال حياتها.

لكن الرمل - في اتســاعه المذهل خلال هــذه الآفاق الصحراوية في العالم كله (دون التدقيق في صحراء الاســكيمو المتجمدة شمالاً) لا يلبث أن يتســلل إلى بحور الشــعر ليكون بحر الرمل أســهلها وأكثرها شيوعا فــي العصر الحديــث الذي لا يمعن كثيراً في الدقــة الفنية الموروثة، أو البعد المقصــود - أو التلقائي - عن بحور أخرى ليس فيها قياس الرمل (فاعلاتن - فاعلاتن - فاعلن) ببساطته الواضحة، وهي البساطة ذاتها التــي تمارس بها الرمّالــة (أو الرمّال) الإمعان فــي رقعة الرمل لتبحث لــك عمّا يخفيــه الغيب لك، وهو نوع من الغيبيــات التي لازمتنا دهوراً، وفي مقابلها يكون ضرب الودع - (مع وشوشــة الذكر، أي أكبر الودعات التي سوف تودعها سؤالك وحيرتك)، وهي أنشطة لها وقعها في القلوب - والعقــول - برع فيها دون شــريك قبائل الرحّل فــي كل الصحراوات (والغجــر على وجه الخصوص). التقيــت ذات مرة ومعي صديق - عمل فترة عميداً لإحدى كليات الهندســة - غجرية تضرب الرمل في أشــهر

حدائــق القاهرة بضاحية حلوان (الحديقة اليابانية) والتي تبعد أكثر من ثلاثمائة كيلومتر عن قريتنــا، وهالنا أنها ظلت تمعن في رقعة الرمل ثم أصابها اضطراب أحال ملامــح وجهها - وبخاصة عيناها - إلى تكوين مرعب لا نراه إلاّ في الأفلام السينمائية، ثم لم تلبث أن أعلنت اسم أمي وأسماء أخواتي البنات الخمس (لم تكن أسماؤهن معتادة ومألوفة) مما زاد من اضطراب منطقة العلم في عقولنا.

إلاّ أن الرمل يرق ويتلمس العذوبة حينما يصبح صفة لشــقائق البطيخ الناضج (البطيخة المرمّلة)، وألاعيب الأصدقاء حينما تسوخ أقدامنا في حيلهم الرملية الخالية من الشر، فإن خرجت الحيل عن الرمل أصبحت مكائد ومؤامــرات يميل إليها السياســيون والموظفــون وذوو الضمائر الشــريرة، الذين لا يميل الرمل أن يفتح الآفــاق الممتدة أمام بصيرتهم، فلا يســتمتعون بالجهود التي بذلها عنترة بن شداد كي يتحرّر من سطوة الرّق.



● عليك أن تنظر في وجوه السياسـيين وهـم يخطبون كي نراعي أن نكون أسـرة واحدة، دون تحديد: الأسـرة التي اندثرت؟ أم الأسرة التي نرتعب من التلميح إليها الآن؟

● يحكم العالم المعاصر: القنابل والصواريخ والأسهم والسندات.

● بعد أن تفشـى تحطم الأسـنان لم نعد نستمتع بالصبر على الأمور بالعض على الناجذ، أطقم الأسنان لا تصلح لذلك.

● المأمور: اسـم مفعول، لكنه اسم الفاعل الذي يأمر فيطيعه الجميع، إنها مؤامرة لغوية.

● الجوع ضد القراءة، والكتابة، والأخلاق.

● أخطر ما يواجهني: قلق الانتظار، حزن الشتاء، عصفورة تحط على النافذة ثم لا تلبث أن تطير.

الحجر*

في القلب.. والعين.. الحضارات

تصوّرت أنني أستطيع الدخول إلى عالم الحجر عن طريق تسلق الجدران، لكني فوجئت بأن الحجر يبدأ صفة للقلب، وأن من قلبه حجر يعني خلوّه تماماً من الرحمة والعطف، إنه البليد الجامد الذي ترمش عيونه مرة أو مرتين خلال الحرائق والصراخ وانهمار الحزن في الجوانح، والذي قلبه حجر يختلف - بالطبع - عن ذاك الذي يوصف بأن قلبه حديد لشجاعته وجرأته وقدرته الفائقة على مواجهة الرعب - دون انتفاء عنصر الإشفاق والتعاطف من وجدانه، وقد يرجع ذلك الاندماج بين القلب البليد والحجر إلى تلك العصور المبكّرة التي هيمن فيها الحجر سطوة عليها: الرسامون ومبدعو التشخيص السينمائي لايزالون يعبّرون عن إنسان العصر الحجري بذلك الشخص كث الملامح والشعر، العاري، والذي يسحب جسد أنثى بالغة الفتنة من شعرها، لتنسحل فوق ظهرها على امتداد البسيطة الحجرية (أرجو أنك مازلت تتذكر لفظ البسيطة بما يعنيه من الحياة في الدنيا المبكرة - وليست القائمة الآن)، وكنت قد أيقنت - من نصائح أمي وإرشاداتها التي دامت أقل من مليون عام بسنوات معدودة - أن إراحة رأس الميت في منامه الأخير داخل مقبرته يجب أن يكون على الرمل الحنون، وقد رأيت وشاركت في (ترييح) عدد يفوق التصوّر الأدبي من رءوس الزملاء والمعارف أثناء العمل في مشروع السد العالي بأسوان: كومة الرمل الحنون تصبح وسادة لراحة

* العربي - العدد ٥٠٩ - أبريل ٢٠٠١م

الــرءوس المرهقة - دون الحجر الصلب الجاف الذي يخلو من التعاطف، غير أن أمي ســحبت تعليماتها الريفية خلال الســنوات المرهقة التالية، فقد فوجئت بجثمان الشــاعر العظيم صــلاح عبدالصبور يدخل خطأ إلــى مقبرته بقدميه مما جعلني أتدخل وبســرعة ليصبح طقس الولوج الجثماني - أو الجســماني - للراحة الأخيرة ســليما، بعدها هالني أن أرض المقبــرة نظيفة، خاليــة تماماً من الرمل أو التــراب أو أي عنصر حنون آخر، وظلت بضعة أحجــار من الأركان ترمقني - وترمق تعليمات أمي - بنوع من الســخرية، وفي حال اندفاع أحمق بالغ الحكمة حطّمت بعض البارز من الجدران الهشّة التي كانت قد أعدت سريعاً، ارتاح فارس الشعر الحديث مستلقياً برأسه على كومة حزن ترابي عطوف، والأحجار المتناثرة تكاد تتحوّل إلى عملاء للمباحث يرصدون ســلوكي.غير أن أمر قســوة القلب تنزاح للخلف لتترك للعين ارتباطاً شــريراً بالحجر، والذي عينه تفلق الحجر، اعتقاد شائع بين الجماعات البشرية في كل القارات: من جليد الاســكيمو شــمالاً مروراً بأنواع الأجناس الآرية والسكسونية والحامية والســامية والبوشــمن والهنود الحمر حتى الجماعات المتعلقة في دوائر نهايات أســتراليا وإفريقيا وأمريــكا الجنوبية، إنه هذا الفرد - ذكراً أو أنثى - الذي يدخل مكاناً ليرمق فيٍ حســد المصابيح المتلألئة - كمثــال - فتنفجــر جميعها - واحداً واحداً - في انزعاج ســطوة تلك العين التي تفلق الحجر، ويذهب ضحيتها - في حوادث فردية لا تنســى - أبقار وغزلان وعرائس ليلة الزفاف، مع عدد لا يُستهان به من العيال الناجحــين فــي المدارس، لكن ذلــك لم يطف في بالٍ شــمبليون - ذلك الفرنســي القادم من (جرنوبل) إلى بلادنا فتى عالماً ذا عيون ثاقبة ليفك طلاســم اللغة الهيروغليفية عن طريق اختراق نقوش حجر رشيد خلال عامي ٢٨ و١٨٢٩، لتنزاح بعد ذلك أسرار أحجار الهياكل القديمة وتفيض بأسرار حضارات مصر وبابل والفينيق والرومان والإغريق والفرس، لكن هــذا العالم الفرنســي ذا الذكاء المتوقد لم ينتبه إلــى حجر الزاوية في مجــازات لغاتنا الفصحــى والعامية، والذي يقصد بــه (مربط الفرس) أو النقطة الأســاســية فــي منطق الأمور، والذي يأخذ تشــكيله البدائي - والفطــري - في ذلك الحجــر الذي تعوّدنا أن يضعه أهلنا على رءوس

المساحات لقياس نصيب كل فرد عند الميراث أو البيع أو التصالح، وربما كان حجر الزاوية قادماً من أثر الحجر الأسود الشهير الذي وضعه النبي إبراهيم وابنه إسماعيل - عليهما السلام - في الركن الشرقي من الكعبة عندما رفعا قواعدها، وقد أعاد النبي العظيم محمد - صلى الله عليه وسلم - وضعه حين أعادت قريش بناء الكعبة، والذي يرمز لحكمة الرسول الكريم في فض الخلاف وإشاعة السلام بين قبائلها التي كانت تتسابق إلى شرف وضعه، والذي - هذا الحجر - تبدأ من عنده مناسك الحج بالطواف حول الكعبة المشرّفة.

بعد ذلك، يصبح المرور على الأحجار الأخرى مجرد خطوات تؤدي إلى حجر الأنابيب الذي يستعمله الهنود الحمر في صنع غليون التدخين، والأحجار الجيرية والرملية والنارية (الجرانيت والبازلت) ثم هناك أنواع من الحجر السمّاقي - أي الإمبراطوري - والديوريت، وأنا مثلك الآن - تماماً - لا أعرف الفرق بين كل تلك الأحجار، أليس من اللائق الآن أن نتوقف عن تحريك الأحجار خشية ظهور العقارب، فنعود إلى فكرة تسلق الحوائط ؟



● أجمل ما في النوافذ - حين تنفتح - أنها تكاد تشبه ابتسامة الشفتين.

● كنت أحدّثها عن مشاكلي مع زوجتي الرابعة، وعندما همست لي أنها متأكدة أنني لم أتزوج سوى واحدة، بدأت عيناها تفسحان مساحة للزوجة الخامسة.

● الصبر: سلوان النهار وعجز الليل.

● واحد من الزملاء كتب عني ليرصد كمية الدم التي تتدفق في قصصي، مع أني لم أعبّر بعد عمّا يدور في جمجمتي.

● معلومات نراها ونغض البصر حرجًا: في جدول الفلزات ستجد الذهب بجوار الزنك والخارصين والألمنيوم، لا أقصد - بالطبع - جدول اتحاد الكتاب.

الجَمْر*

ظلت الجمرة المتقدة والتي كان فرن الخبيز الريفي مغرماً بالمحافظة عليها في أحشائه تحمل الإنذار الدائم لي بالنهاية المؤكدة خلال عالم الشرور الصبيانية في القرون الأولى من عمري، وكانت أصابع أمي شديدة المرونة حينما تزيح هذا الجمر تمهيداً لخروج الإناء الفخاري «البرام» المفعم بالعدس الملتهب كي نبدأ صباح الشتاء القارس، وبين جمر الفرن وجمار النخيل استمرت عصافير البطن أي الجوع، وعصافير السماء أي الخيال، تصنع عالما متداخلاً في كل أنسجتي بين المدرسة والبحث عن عمل والسفر والكمون والإشراق والشجن والرؤى وانسياب الموسيقى والقلق والصمت والهياج الأحمق. وجمار النخلة هو قلبها وموضع الطلع وبوادر خروج الجريد والسباطات من المكمن، تكوين أبيض غض له حلاوة خفيفة، سهل القضم وعلاج لأوجاع الصدر والسعال. وفي كتب الطب القديم أن جمار النخيل يدفع ضرر الأنبذة «الجمع المخفف للخمور» وهزال الكلى، ثم إن هذا الجمار يولد الرياح في البطن فلا يساعد على الهضم، ويؤدي آخر الأمر إلى نوع من الوسن أو التكاسل أو استمرار التثاؤب وفقدان النشاط، الجملة الأخيرة من عندي، ربما يكون وراءها ما كان يصدر من إرشادات ذوي الخبرة للعرسان الجدد ألا يقربوا ليلة الفرح الميمون السمسم والباذنجان المخلل والغضب أي الانفعال الشديد والجميز وجمار النخيل والديون

* العربي - العدد ٥١٤ - سبتمبر ٢٠٠١م

ونعيب الغربان.

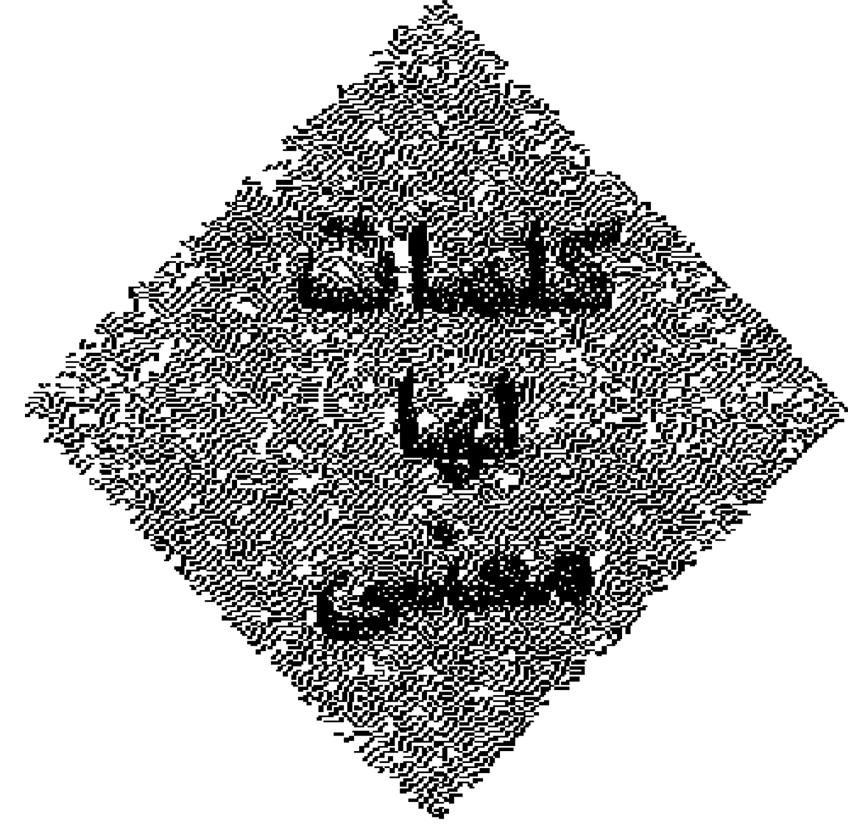
لكن الجمر يعود فيثير الالتهاب المتوقد في «القمين»، والقمين كما أنك تعرف بالطبع وكما جاء في المعجم: الموضع الذي يرص فيه الطوب النيئ أي اللبن ويحرق ليصير آجراً، والآجر هو الطوب الأحمر، وما كان للقمين أن يرد هنا ونحن مشـغولون بالجمر، لـولا أن الناس في قريتنا يطلقون على هذا القمين: القمير، ولما كانت القاف والجيم لهما اشتباك معروف في اللهجـات العربية، فقد اعتقدت أن المقصـود بالقمير: الجمير، أي الملتهب بالجمر الكثيف، والذي يشـاهد هـذا التكوين الجمري الضخم، والذي يفح بحرارة تتذرك برائحة جهنم، سـوف يسـتبعد - بالإحساس على الأقل - أي اسم سوى القمير أو الجمير دون القمين، مع أن ذلك لم يـرد في أي كتاب لغـوي - معجما كان أو بحثا على الاطلاق، فهل يمكن أن يؤدي بنا ذلك إلى اعتبار العيش المقمر الريفي الشهير جاء من الجمر أيضا؟

وعندما يتفتت الجمر ليصبح جمرات فسوف يكون غير مريح أن نتذكر تلك الجمرة ذات الالتهاب الحاد والتي تصيب الأنسجة التي تحت الجلد ثم تظهر في الجلد ذاته مسـببة ألما لا يطـاق، ويكثر حدوثها في الظهرٍ وخلـف الرقبة والأفخاذ، وعند ظهورها يجب أن يعطى علاجها اهتماماً مكثفاً بسبب خطورتها المعروفة بأنواعها الثلاثة: الخبيثة «وتحدث عادة كما ورد في الموسـوعة العربية بين الجزاريـن أي القصابين والفلاحين والبيطريـين والدباغين أي العاملين في مجـال دباغة الجلود، وقد تنتج هـذه الجمرة الخبيثة من اسـتعمال فُرش الحلاقة المصنوعة من شـعر الحيوانات الملوثة بالجراثيم»، ثم الجمرة الرئوية والتي تنتج الإصابة بها من السـبب السالف بالإضافة إلى اسـتعمال الجِلّة الشهيرة في الريف المصنوعـة من إفرازات البهائم، والجمرة الثالثة هي تلك التي يلتهب بها دماغ بعض الموهوبين في الأدب والفن: سعياً للشهرة والذيوع بأي وسيلة، ويمكن التماس ظواهرها في اقتحام مجالات إبداع لا يجيدونها، والتصميم على نقل مقعد من الخلف كي يجلسوا عنوة وقسراً في الصفوف الأولى للمؤتمرات واللقاءات والحوارات، والمجاملات المادية الفاضحة لمن يرون فيهم فرصة أن يشيروا إليهم في الصحف والمجلات والأحاديث المذاعة،

ومن شـدة التهاب هذه الجمرة في جماجمهم يطالبونك علناً أن تذكرهم في مقالاتك ولو من مدخل انتقادهم والهجوم عليهم.

إلا أن الجمر يسبقه الحمر بالحاء في تكويناتنا اللغوية الشعبية: حمري جمري في صيغة الأمر بالإنجاز السريع، أي بالعجل، وبسرعة تتجاوز الدقة الواجبة أو دون مراعاتها، كما أن الزواج المتعجل الذي يداهمه الفشل السريع يوصف عادة: زواج حمري جمري، وكأن الزواج المتأني فيما يزعم الحكماء الذين يبدون ذوي تجارب يؤدي إلى الفردوس الرومانسي المأمول، مع أن العروس فور أي نوع من الزواج المتمهل أو الحمري جمري لا تلبث أن تجمر شعرها، أي تجمع شعر رأسها الذي كان قبل هذا الأمر المشار إليه منساباً هفهافاً، حيث تعقده في قفاها ولا ترسله، دون مبالاة بأن الإنسان أو الحيوان حين يجمر فإنه يسرع سيراً، لكن الليلة إذا أجمرت فإنها تتلألأ عندما تطول فيها مدة ظهور قمرها، وأخطر ما يمكن أن يواجهك في ليلة جمراء قمراء أن تقضيها وحدك.

والجمار بكسر الجيم موضع رمي الجمرات الثلاث بمنى كما هو معروف في مناسك الحج، أما الجمر البركاني فهو المقذوفات البركانية الملتهبة ذات الأحجام الصغيرة جدا، فإن تضخمت وتداخلت في درجات السيولة أو الانصهار فإنها تصبح الحمم، غير أن أموراً غامضة حدثت فأحالت للجمرة معنى الظلمة الشديدة، وما بين الالتهاب والظلمة أصابني اضطراب حين اتضح لي في المعجم الكبير أن جمرات العرب ثلاث: بنو الحارث بن كعب، وبنو نمير بن عامر، وبنو عبس «أهل عنترة الشهير»، وزاد عليها بعض مؤرخي القبائل جمرتين، ولو كنت منهم لأضفت قرناً من الجمرات في العصور الحديثة حيث أصبحت قبائل ومناطق وأقاليم في عدد واسع من بلادنا العربية مجامر ملتهبة بالقلق، مما يدفعنا للهروب إلى الجمارك بصفتها ترفع لواء الضغوط المعاصرة في الموانىء، والتي تعج بجمرات التهاب العصر: أي الممنوع والمصادر من بضائع نعرفها ولا نميل إلى توضيحها، وإن كانت جمرات الأفران أو حتى البراكين تثير الخيال الممتع بها لتحمل في الأفق إشارات الرغبة العارمة للرجوع إلى برام العدس المجمور في الفرن القديم، الذي لا يزال يفح بحمم أو جمرات الذكريات.



● المجال المغناطيسي يصبح قوي الجذب حين تسبح في مجاله أصوات الأوراق المالية.

● أي إصابة بالمخ تعوق كل الجســد، لكن ما يعوق المخ مباشرة: الجوع أو الحقد.

● كانــت أمي تمعــنٍ بعينيها في صفوف الكتب، ثــم تحركها في بطء نحوي مع إغلاقها تماماً حين تواجهني.

● المعضلــة الكبرى أن أبناء المدن لم يشــهدوا طائرا، عصفوراً كان أو يمامة عندما يظل طوال النهار يسعى ويطير ويحوم ليعود بعود من القش لينشئ في دقة معجزة هذا العش فائق التنظيم والترتيب.

الصدف *

لم أكن أدرك أن الإمعان في بعض الجزئيات - أو الذرّات - قد يؤدي بي إلى موقف غير مريح، وغير قابل لأن أستنجد - أو أستجير - بالآخرين كي ينقذوني منه، فقد تصادف آن فكرت في أسباب إطلاق أسماء بعينها لها وقع في النفس وإيقاع في اللغة والنطق، على أشخاص وأماكن ونباتات وحيوانات، مثل النشوة والنشوى ونشأت والنشوء (والارتقاء) دون الوقوع - من باب المرح - في النشل والنشع والنشر، لكني لم ألبث أن هويت الدوران والتسلل إلى أسماء في عائلتي، إذ إن أول إنجاب لأمي وأبي كان بنتًا، نعم: أنثي - واسمها كمال، وهو اسم شائع بين الذكور، ولا يمكن أن يكون ذلك مشكلة إلاّ إذا تنبهت إلى أن المولود الثاني كان بنتًا أيضًا: إنعام، ثم لم يلبث الثالث آن جاء أنثى - يا للهول - في أسرة تنتمي إلى تكوين يحب الذكورة بالمعنى العظيم للرجولة: إنها صدف (بضم الصاد وفتح الدال)، وبعدئذ جاء المولود الرابع أنثى: وكانت (رابعة) دلالة على ترتيب إنجابها وعلى الإحساس السري بالبؤس أو الإحباط، ذلك أن أبي تسلل بأمي ذات البنات الأربع وخرج بها - ليلاً - من بيت جدي ذي الغرف - لم أقل ذا الحجرات - الضيقة التي يقيم فيها مع أبنائه العتاة الأقوياء الذين أنجبوا كلهم أول مولود لهم: ذكرًا، وخارج القرية لجأ أبي إلى كوخ - أصبح بعد ذلك بيتًا - على بركة مائية أو طينية تطن في أبهائها الحشرات والضفادع

---

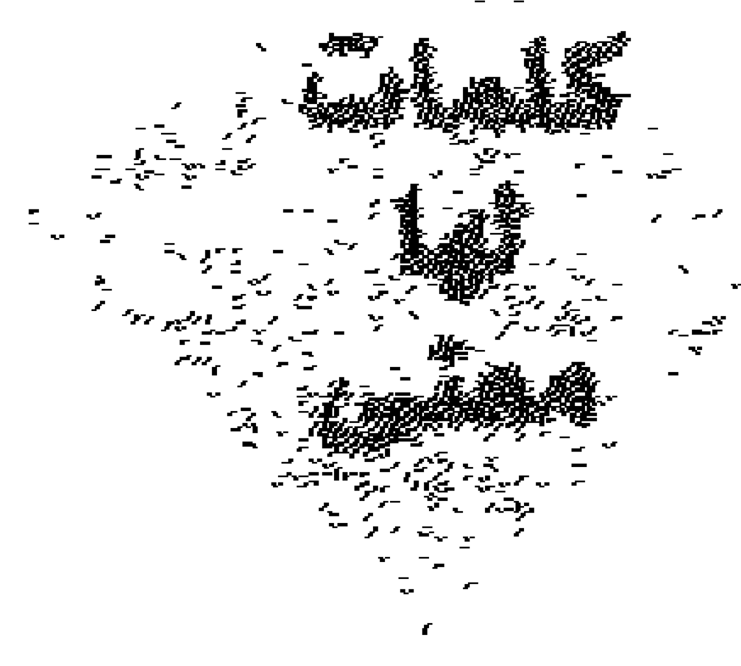
* العربي - العدد ٥٤٧ - يونيو ٢٠٠٤

وغابـات النجيل مع بعض النخيل - أو النخلات أفضل، لتلدني أمي أنا: الذكر الأول المدلل المأمول المحبوب الذي انتظروه طويلاً.

بعـد ذلك بأحقاب بدأت أنتبه إلـى أن كمال - البنت الأولى - أطلقوا عليها هذا الاسـم (كمـال) ذا الإيحاء الذكـوري دون أن ينتقص منه آن يكتشـف الآخرون أصحاب القدرة على الفخر بإنجاب الذكر الأول أنها أنثـى فور إنجاب أمي للذكر التالي، لكن الذكر جاء بعد سـنوات طويلة مريـرة من الإناث، إنعام - الثانية - بمعنـى أنها جزء من النعمة، فماذا عن صدف؟

الصُّدف: جمع صدفة، ومعناها السائد المعروف بين كل أنواع النساء أن تلتقي بفلان من غير موعد أو ترقب أو توقع، لكن إذا ما أصاب الصدف فتح الصاد وكسـر الدال: صَدِف لينطلق الفعل فإنه يعني تصادم إحدى الركبتين بالأخرى أثناء المشي، فهو أصدف وهي صدفاء، فإذا استطعت أن تصدف أحدًا فقد نجحت أن تقنعه أو تجبره على الانصراف، وعندما تخلو الصّدفة أو المصادفة من فجائية الفعل دون توقع، وتصادف أحدًا من دون هذا المعنى المعروف فسوف يدل على الموازاة والمحاذاة: في السير أو التفكير أو الحصول على المأمول من جوائز أو شـهادات أو مؤهلات، (أو قمة نجـاح قصة الحب بينكما على أن تكونا ذكرًا وأنثى)، لكن الأمر قد يتطور عندما تتصدّف مع آخر: أي تتعرّض له أو تعرض عنه، دون الوقوع فـي مآزق الحياة الذي قـد يحيلك إلى الإصابة - حمـاك الله ورعاك - بالصُّداف الشِّدقي: تلك البقع المتكلسة الصلبة غير المنتظمة في الفم أو الشـفتين - وبالـذات جانب الفـم من ناحية الخد، وقـد يتناثر هذا الصُّداف حتى يصيب حليمات الثدي بالتضخّم، لكنك تسـتطيع أن تفتح مجـالاً أكبر حينما تتماوج عيونك في نظرة واسـعة إلى صَدَف الطبيعة الممتـد جبلاً أو تـلالاً ترتفع متراقصة - آخر النهـار - تحت توافق مع ضوء الشـمس المتهادي غربًا، وإذا رغبت في بعض الشراسة فإن صدف السلحفاة الذي يغطي جسدها القديم قد يقطع بحراشفه المعروفة ليونة الغروب الهادئ، مع أن هناك صدفًا من نوع آخر - وأكثر صلابة - غشاء للدّر: كنز البحر الذي اخترق حكايات وأساطير الأقدمين، وله شعبية في منطقـة الخليج العربي أكثر من أي منطقة أخرى، أما إذا أنثت الصدف

ليصبح صدفة فإنها - دون اختلاف بينهما : فإنها بالذات - والتي قد يكون بداخلها درة أيضا، إلاّ أنها - هذه الصدفة دون المحارة - تطلق على الأذن الخارجية، غير أني أطمع في أن أهمس لك أن الصدوف صفة للمرأة التي تعرض وجهها للناظر ثم تصدف، وهذا أهون من أن أكشف لك أن الصدوف أيضا تعني الأبخر، تلك الصفة التي نطلقها على من أصابت فمه رائحة غير مريحة، وبالتالي فإنه يصبح مناسبًا - لي أنا بالذات - أن ألجأ إلى صدفتي الخاصة، والتي أصابتها الثقافة المعاصرة بتعبيرات ومصطلحات أدت بكثير من الدّرر إلى الهروب في الأغوار البعيدة، لتترك لي فرصة التساؤل - بعض الوقت ولو مرة بين أسبوع وآخر - لماذا أطلقت أمي وأبي اسم صدف على أختي الثالثة، مع أن هذا الاسم ظل نادرًا بين أبناء عائلات في قريتي (ديروط الشريف - أسيوط) الواسعة الرحبة ومقصورًا على بنت أو بنتين على الأكثر، ولم يعد أحد يستخدمه الآن حتى للسلاحف الحديثة، لكني أزعم أنّ أغنية للمطرب الراحل عبدالحليم حافظ حملت هذه الصُّدفة، كما أن عائلة لا أعرف منبتها ولا الموقع الذي ترعرعت فيه لها اسم جميل وغريب: المصادفة، ومنها أديبة روائية حازت موقعًا متميزًا يؤدي بها إلى شهرة تثير الضغينة، ولذا فسوف لا أدون اسمها هنا، مكتفيًا بأن (صِدْفا) واحدة من مراكز محافظة أسيوط أيضا، حيث يصبح ملائما لالتقاط الأنفاس، لأستريح في صدفتي بعض الوقت.



● أمــر غريب: أن الغراب نادرًا ما ينعــق أو ينعب وهو يطير، ما يكاد يستقر على أغصان الشجر حتى يبدأ في ذلك النعيق.. المقلق.

● الحوائط تفقد صلابتها حينما تستريح على صدرها لوحة جميلة.

● حتى أصابع القتلة أو النشالين تتحول إلى أنامل بالغة الرقة والنعومة والدفء حينما تلامس وجه طفل أو... أصابع أنثى.

● في القطار التقيت بها - وبعد أربعين عامًا من الفراق، ابتســمنا ثم لم تلبث ابتســاماتنا المرحة أن شابها اضطراب ناجم من شراسة الشعر الأبيض المظلم فوق رأسها.. ورأسي.

● الليل إذا عســعس إنما هو يســعى كي يصبح سـلوانًا لــك، النهار لا يمكنه أن يفعل ذلك.

الجبل *

الواقف في صمود حول الوديان، حافلاً بالأدب والتاريخ والموسيقى، وقُطّاع الطرق، والباحثين عن الهدوء أو الوحدة أو الاستشفاء أو الذهب

ما تكاد عيوني تلامس - أو تتسلق- جبلاً: حتى تتراقص في أفق الخيال هالات تاريخية، ترسو فيها سفينة النبي نوح على قمة (أرارات) في جنوب الأناضول بعد انزياح الطوفان الذي به تمّت تنقية الأرض- كل الأرض- من المفسدين، بعدها يضطجع جبل عرفات - غربي مكة المكرمة - الذي يكمل طقوس حج المسلمين وقوفاً به (بين زوال اليوم التاسع من ذي الحجة إلى فجر العاشر)، ولا يلبث الجبل أن يضغط - بضخامته وشاهق تكويناته- على النص الأدبي الحديث ليتيح لفتحي غانم كتابة روايته الأثيرة التي نبهت كل ذوي الخطط في العمارة الحديثة إلى أن ينتبهوا إلى معنى الجبل- الموقع الشرس- داخل نفوس الذين يتنفسون- حياة- في سراديبه، ولعل ذلك وراء سطوة الجبل على الغناء الشعبي- في صعيد مصر- حينما ينشدون في شجن توديعهم للأحبّاء المسافرين بعيداً (خدوني معاكم آكل حشيش الجبال وأعيش في حماكم)، أي باللغة العربية الفصيحة: خذوني معكم كي أتغذى على كلأ الجبال مقابل أن أكون في صحبتكم، أو تحت سطوتكم.

ونادراً ما يخلو وطن من جبال - تقلصت أو كانت بالغة الضخامة - ولاسيما أن الجبال ظلت منذ أن خلق الله الأرض مرتبطة بالصحراوات، غير أن العصر الحديث - والذي وصلت فيه حركة إصلاحات أو تجريف أو تحريك التربة إلى أوجها- أنتج جبالاً بلا صحراوات، تلك التي غزتها

* العربي - العدد - ٤٩٠ - سبتمبر ١٩٩٩م

خضرة اســتحداث السهول والمنشآت والمؤسسات، وهو ما يمكن أن يكون دليلاً عليه جبل السلســلة في منطقة كوم أمبــو- جنوب مصر- والذي نمّقــت صحراواته قرى النوبة الجديدة بعد تهجيرها من موقعها القديم خلال إنشــاء الســد العالي، كما أن جبل المقطم- الشــاهق على الحافة الشرقية للعاصمة المصرية - اخترقته التجمعات السكانية بما تستوجب من طرق ومتنزهات وحدائق.

وتعد جبال أطلس- والتي تقف شرسة جنوب المغرب وشمال موريتانيا ممتدة إلى شــمال الجزائر وجنوبها، وجبال شــبه جزيرة سيناء والبحر الأحمر في مصر، وجبال لبنان، ثم تلك الجبال المتناثرة، وشديدة الجمال الهادئ في شمال العراق- منطقة الأكراد- ومأرب اليمنية (وطن بلقيس صاحبــة الموقعــة التاريخية التي أدت إلى امتثالها لســيدنا ســليمان)- وجنوب شــبه الجزيــرة العربية، كل هــذه الجبال هي الأشــهر والأكثر بروزاً على الســاحة التأثيرية في الخيال العربي، وأي مبدع: رســاماً أو أديباً- شاءت له ظروفه أن يعيش فيها فترة، لأصاب الإنتاج الأدبي والفن الحديث تغيّر وتبدّل يتخلص بهما من تهويمات ركود خيال مدن الوديان، وهو ما جعل كثيراً من النصوص الأدبية والموسيقية غير العربية- أقصد الغربية بالذات- أكثر اتســاعاً وخيالاً وزهــواً، والذي يمكن أن تحس به فــي رائعة هيمنجواي: وداعاً للســلاح، حينما يتراجع جيش الحلفاء من فــوق قمة جبــال الألب الإيطالية، ثم في هــذا التدفق الحالم الحي في موســيقى رودريجو الإســباني الغارق في جبال البرانس شمال إسبانيا، أو في موســيقى جــورج بيزيه في أوبرا (كارمن) في الناحية الفرنســية من الجبال نفسها، كما أن دورنمات استفاد- في معظم مسرحياته- من معايشــته لمنطقة الألب السويســرية الألمانية، ولعل جبال الأورال- شرق روســيا - كانت موضوعاً أثيــراً لأفلام وقصص أبرزهــا رواية الحرب والســلام لتولســتوي، فإذا اتجهت شــمالاً أكثر فســوف تأخذك جبال اســكندنافيا- السويد والنرويج والدانمارك - إلى العديد من رؤى جبلية عند ستندبرج وابسن، أما أمير الأراضي البور لماكس فريش- الألماني أو السويسري- فقد ظل يرنو من بعيد إلى جبال مكللة بالجليد.

ورؤانا - (أو ما قد أعرفه شــخصياً) ليست قاصرة عن إدراك ما كان

لجبال روكي والإنديز في الأمريكتين من سطوة على السينما الأمريكية، ولاسيما في أفلام (الكاوبوي) التي استطاعت أن تنقل تضاريس وتكوينات الغرب الأمريكي إلى المخ الشرقي بشكل لم يحدث لأي منطقة- ولو وطنية أو محلية- من قبل، في حين أن جبال الهيمالايا في شمال الهند، ومعها منطقة التبت وهضبة الحبشة، فقد ظلت معرفتنا بها في حدود الثوابت الجغرافية، وهو ما قد ينطبق أيضاً على جبال اليابان، إذ إن الجبل- هناك- تلألأ في القليل مما شاهدناه أو قرأناه، ولايزال الدب المختفي على قمة جبل الثلج في فيلم ياباني أشهرها، وإن كان جبل كليمنجارو لهيمنجواي في وسط إفريقيا قد وجد سبيله للظهور في نص لكاتب غير أفريقي.

الجبل- هذا الساحر، تعمدت ألا أطرح أخطر ما قد يعنيه للناس: في سراديبه ومغامراته، حين يكون ملاذاً- أو موطناً- لقطاع الطرق، والخارجين على القانون، وملاذاً أيضاً للرهبان، والضالين، والمتعبّدين، والباحثين عن الحقائق القديمة في رعي الغنم، والخيال، والمعادن، والحزن، ثم: الجبل هو ذاته أرقى موقع لمن يبحث عن الاستشفاء، أو الشفاء من أمراض وهموم وضجيج الوادي.



● إنــه يقعي على ســاقيه الخلفيتين، حينما تقدم لــه الطعام: الكلب، وحينما يكون مهمومًا: الإنسان.

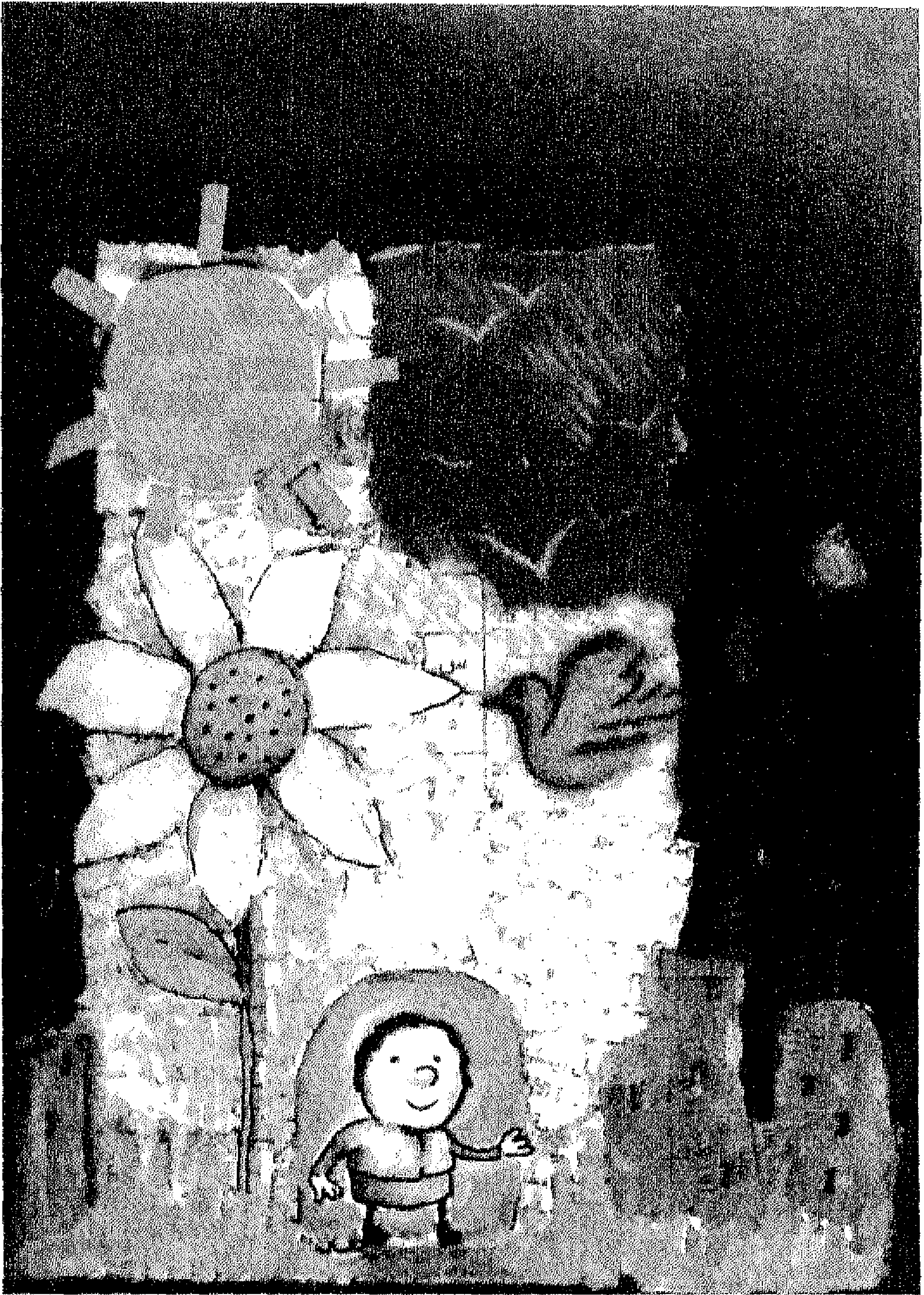
● كل الــذي تقدمه الحياة المعاصرة من تســهيلات، نتجاوزه بحثًا عن متاعب وتعقيدات جديدة.

● لــم يعد ســهلاً أن تتعرف علــى الذكور من الإنــاث في الجماعات الصاخبة طربًا حديثًا، ولا النثر من الشعر أيضًا.

● لو أمعنت قليلاً في يمامة أو حمامة، لما تجرأت أن تهشــها، غيرك يذبحها.

● كلما عابثت حفيدتي: تســاقطت ســنوات العمر مــن فوق كاهلي، فأزداد ابتعادًا عن الكهولة.

● لاحظــت أن أبنــاء المــدن لا ينتبهــون إلــى رائحــة المجــازر، أو المستشفيات،حين المرور بها.



الفصل الثاني

عن الكون والحب
وطقوس العشق

القمر*

هذا الفاتن في الوجوه والأغاني، والذي تحاصره بنات الحور والقنابل والصواريخ وحق الأداء العلني

تكوين ساحر فاتن أينما ظهر: على الجليد أو بين الغيوم أو فوق الرمال أو في قاع بئر، في ليل صيف بليد حار أو وراء أشجار أو على هامة الأكمات أو فوق الأطلال والخرائب، أو حتى من خلال فوهة كهف ذئب يفترس حملا. لكنه يصل إلى فتنته إن أصبح كلاكما بدرا: أنت رائق الجوانح استعدت اللياقة الإنسانية المزعزعة، وهو: عندما يتجرد من منغصات العصر الحديث الذي وطأ القمر وداس على روائه ذي السنا الباهر.

ولقد أهلك العشاق القمر في وجه المحبوب منذ بكور التاريخ، ولو كان للقمر نسبة في حق الأداء العلني المدر كنزا لكل فصائل الشعراء والمغنين، لانحرف الغزل إلى النجوم الفقيرة، ولأصبح للقمر مكتبان في باريس وفي جنيف ليرعيا حقوقه المتناثرة بين الدول الموقعة على الاتفاقية المعروفة، مع أن القمر أكرم من أن تحتويه القصائد والأهازيج وآهات الغزل، تراه مترقرقا في عيني أول أطفالك (لمدة محدودة)، وفي انحناءة أم تلقم وليدها ثديها، وفي صوت آمر الإفراج عن معتقل، وفي اتساع رقم مالي مقبول الدفع ولو كان مكتوبا على ورق اللف والتعبئة، وبين أنامل تتلمس التوقيع على أوتار الموسيقى، وأول ما تستشرفه عينا العائد إلى الوطن، لكنه - هذا القمر - يفقد قدرته على السحر والجاذبية ليصبح تكوينا ماديا مظلما: في كتب الجغرافيا وعلى وجوه الدائنين،

* العربي - العدد ٤١٤ - مايو ١٩٩٣م

وبين ثنايا حواجب مفتشي الشرطة، وفي ضيق أفق نقاد الفن والأدب، وتحت إبط الرعاة والمراقبين للمناطق ذات الأسلاك الشائكة، ويعقد القمر دورته المتلألئة - في موعد معلوم - باحثا عن الاكتمال، فيبعث في الجسد الأنثوي حمى يقظة الطبيعة، وفي لذة الصوم الشهي لطبق قمر الدين، وفي وجه الصبية الصغيرة استدارة قمر ١٤، ولعل لفظ (أمورة) الذي نسبغه - مصغرا بالعامية - على عزيزاتنا ناجم من سطوة القمر الأمير.

ويغضب القمر أن يقع على وجهه ظل الأرض، فيحتقن غضبا رافضا قيام بنات الحور بمحاصرته وخنقه، ويسيل نوره أحمر كابيا ذليلا مخنوقا، وتنطلق تحذيراته كي لا تتم أفراح الزيجات ليلتها، فسوف يحاصرها الشؤم والضيق ومعاكسة الدهر، كما أنه لا يجوز ليلتها عقد الصفقات أو ملازمة الزوجات: لأن النتائج لن تسر الخاطر، لكن المدينة لم تعد تهتم بحصار بنات الحور للقمر: أكلت وشربت وفرحت، ثم ولدت صفقات بائرة وزيجات عقيمات، وأثمرت ظلاما في نفوس أبنائها، وانطفاء في وجدان ساكنيها، ولعل بقية النور ذي السنا الذي يشع من أبناء المدن هو البقية الباقية من عصور الطفولة في براح القرى واتساع الوديان وامتداد آفاق الصحراوات والبحار والبراري، تلك التي يسبح القمر في عليائها ويحب بين آكامها وربواتها وأغصان شجرها، دون اضطراب من هذا الوهج المصنوع من الكهرباء وإشعاعات القنابل وضجيج الصواريخ وساريات التلفزيون واكتناز الأموال وطوابير الجيوش، وهذه الأثقال التي يئن تحتها الفؤاد من أكداس مواد القوانين وتضخم أبنية المحاكم والمدارس ومخازن اللبن الصناعي.

ويظل القمر كوكبا سيارا، يهدي من يتلمسه، ويشبع من يمعن بعيونه فيه، ويحنو على من افتقد الابتسام، دون اهتمام بهذه الأدران التي تتركها أقدام الهابطين على وجهه الجميل المبتسم.



● نعم: الطفل العربي في حاجة إلى رعاية، ليت ذلك يتطور إلى المحب العربي أيضًا.

● أعرف أشجارًا توقفت عن الإثمار بعد رحيل أصحابها، وزوجات في انتظار الإثمار بعد رحيل أصحابها.

● حتى القصور العتيدة: عندما تخلو من النفس (بفتح النون والفاء) يصيبها التشقق.

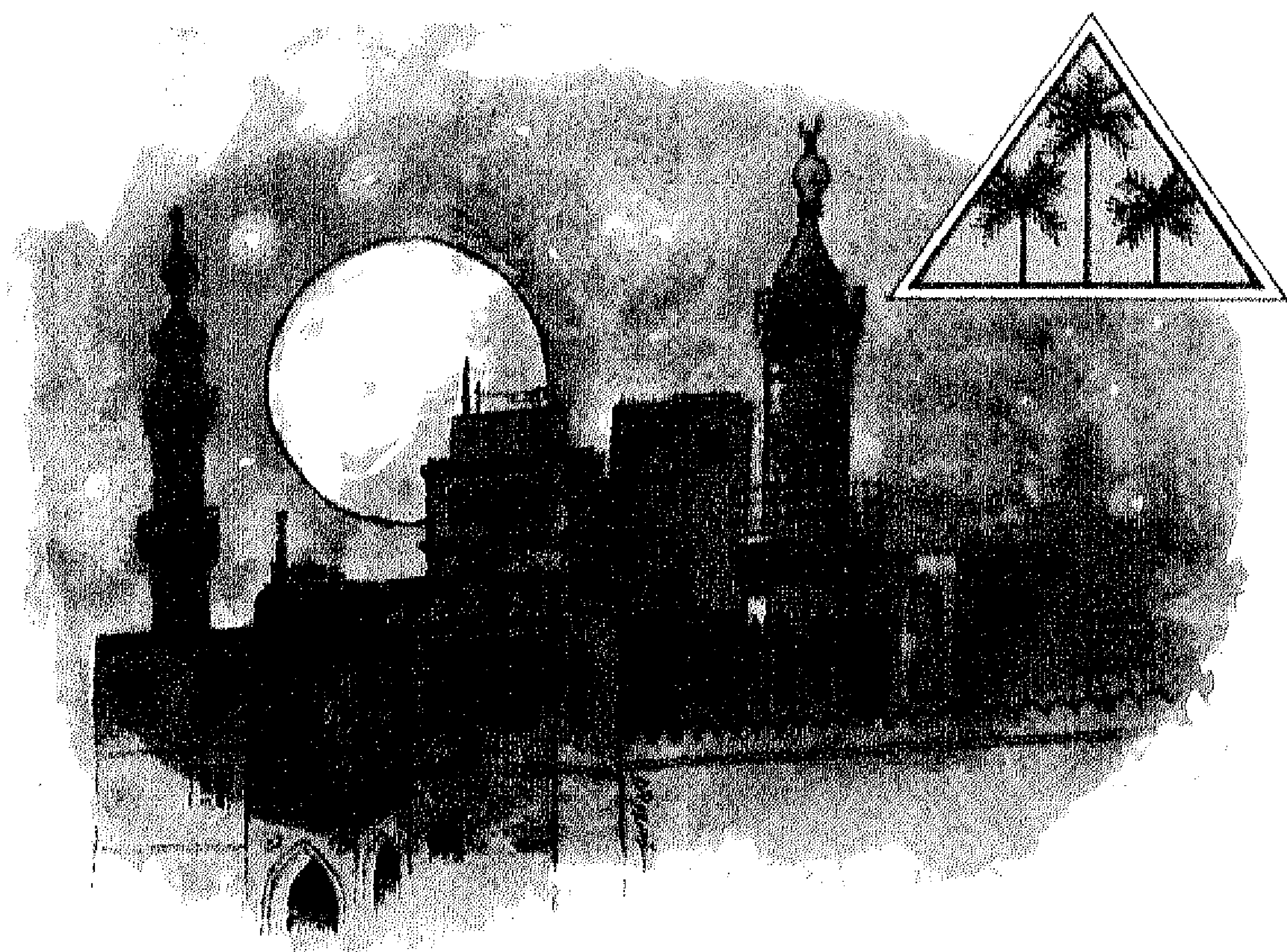
● بدأت المسائل تتغير، فوجئت بزوجتي ترفع على الحائط: القناعة كنز لا يفنى، آه..!! لقد بدأت الكارثة.

● انقطعت رسائلنا، أول مرة نتفاهم.

● اسمع جعجعة ولا أرى طحنا، أصدق تعبير عن عظمة حب فاشل.

● كانت قد أخفت تحت ملابسها ملاكا وذئبا وثعبانا، وصمتا مرعبًا، وظلت تبتسم.

● كلنا يحتاج إلى حب عميق، لتنتشله سيارة وتقوده إلى زوجة العزيز، رتب أمرك على أن السيارة قد لا تأتي.



النجوم*

من عصر الخلاء الرومانسي ونجوم الغناء

١ أخطر ما فعلته المدينة الحديثة- ذات الأضواء الساطعة- أنها قطعت الطريق بيننا وبين النجوم، حيث لم يعد ممكناً- خلال المأزق العاطفي المتكرر- أن تتوجه للنجوم - نجوم الليل - كي تبكي على حالك، وحتى القرى والنجوع والتجمعات السكانية المتفرقة وقعت في مصيدة الكهرباء بما فيها من اضواء وراديوهات وتلفزيونات- لا تنس سطوة الألعاب الالكترونية والكمبيوتر- مع أن الآباء- طوال الأحقاب الممتدة- صادقوا النجوم واهتدوا بضوئها وتوحدت توقعاتهم ومشاعرهم في سلوانها بحثاً عن العزاء الأزلي المفعم بالشجن، وكنت - وبيتنا أيامها في الحقول خارج القرية- أتقافز بين النجوم لائذاً بالملائكة هاربا من شياطين الأرض، وكثيرا ما بحثت عن الجنة التي عاش فيها أهلي القدامى- آدم وحواء- في واحدة من هذه النجوم، كما أن الأمر لم يخل من مواقف حارة اشتعلت فيها عاطفتي المتشبثة بالبنت- محبوبتي- كي أخلو بها بعيدا عن «العزال» وفي منأى عن مناطق سيطرتهم في القرية، مازلت أسعى لذلك حتى الآن دون اهتمام بكل الكتب والمطبوعات والأفلام والمعلومات التي داهمت المسافة الرومانسية الجياشة التي أهلكت فيها أكبر كمية معروفة من الأحلام الإنسانية، والتي كانت قمة هزيمتها واندحارها مشهد هذا المخلوق الذي يتحصن في ملابس ذات تكوينات غليظة (تشابه ما يرتديه غواصو أعماق البحار عادة)، حيث يهبط فوق

* العربي العدد ٤٨٨ - يوليو ١٩٩٩م

سطح القمر ليجرح مشاعر تعودنا أن تتسامى رقيقة ودافئة، هذا المشهد يتكرر يومياً بشكل آلي في كل تلفزيونات العالم.

ودنيا النجوم واسعة ومتسعة ومعقدة، ليست فقط بصفتها من أوائل التكوينات الكونية التي أثارت خيالنا ورعبنا وتوجسنا وتوسلنا وأدعيتنا، بل- وحتى حينما أصبح الفلك علماً يدرس في أعلى وأعمق مراتب البحث والتمحيص والتحليل والاستنتاج، لقد اتسع علم عالم النجوم - بشكل مذهل- ليجذب كل التخصصات في الطب والجيولوجيا والضوء والمغناطيسية والكهرباء- وكل قوانين الوجود، ومن أجل سلامتي العقلية- وسلامتكم- فإننا نتوقف- عادة عند حدود الاطلاع المتفائل على تخمينات الحظ التي تنشرها الصحف في أبراج حركة النجوم، وقد أتاح لي ذلك أن استأثر باثنين من هذه الأبراج: السرطان والأسد، فقد ولدتني أمي (والتي لا أعرف لها برجاً حتى الآن) آخر ساعات منتصف ليلة ٢٢ يوليو والتي يكون صباحها ٢٣ يوليو، أى في تلك اللحظات الحساسة التي يودع فيها الكون برج السرطان في احتفال مهيب استقبالاً لبرج الأسد، لكن المأساة- مأساتي بالذات- تبدأ حين أطالع حظي في برج السرطان لأحظى بثروة مفاجئة، غير أن الأسد يدخل مدار حظي الذي ينص على الكارثة التي قد تحيق بي (أحداث مؤلمة من صديق أو حبيب أو قريب) فاضطر أن ألوذ بالحكمة التي تنقذني: كذب المنجمون ولو صدقوا، وألقي جانبا كل ما عرفناه من هذه العلاقة الوثيقة بين الحكام والقادة- وبين العرافين والمنجمين، وفي مختلف العصور والتي كثيرا ما وردت في الكتب التي تناولت حياتهم وحكاياتهم، إنه الخوف الإنساني الأزلي من الغد وما يكتنفه من غموض قد تبدده رؤى هؤلاء المستشارين، ومازلنا نذكر حوار تريزياس مع الملك أوديب، والذي حل فيه العراف أسباب الوباء الذي اكتسح المملكة، والمتضمن رؤية سابقة أن أوديب سوف يقتل أباه ويتزوج من أمه، كان نجم أوديب قد دخل مرحلة النحس الذي أدى به إلى ملك أعمى- من هول ما عرف - تقوده ابنته كأي ضال في هضاب الإغريق.

لكننا- دون أن نكون ملوكاً أو قادة- أنشأنا- حديثاً- معجماً لاستخدام النجوم بعد أن ظلت تدور في أفلاك الشعر القديم والأساطير الشعبية

وطقوس الزواج والإنجاب واحتمالات الانتصار، فالإنسان المعاصر ذو المشاعر الرقيقة: نجمه خفيف، أي أنه قابل آن يصبح مضطرباً ازاء أحداث لا تدعو إلى الاضطراب، والمنجوم هو الذي تصيبه الكوارث المتوالية- آي ذو الحظ العاثر، والنجم- أو النجمة- صفة لمن يبرز في سطوع سماء عمله: الفني في معظم الأحوال: كالتمثيل والموسيقى والغناء. أي يمكنك أن تقول إن تحية كاريوكا كانت نجمة الرقص الشرقي، وفاتن حمامة في التمثيل، وعبدالحليم حافظ في الغناء، أما أم كلثوم فقد تم تصعيدها لتصبح كوكب الغناء- أعلى بعدة مدارات عن كونها نجمة، لكنك لا تستطيع أن تقول عن جمال كامل إنه نجم الرسم، أو محمد حسنين هيكل نجم التحليل الصحفي،أو يوسف ادريس: نجم القصة القصيرة، وأكثر من وردت النجوم في أغانيه الباكية كان فريد الأطرش، أما نجمة إبراهيم فهي الممثلة البارعة التي لاتنسى، وعليك أن تتذكر دورها في فيلم صلاح أبوسيف: ريا وسكينة، والنجمة آم ذيل جرم «أي نجم» في جنوب السماء ذو ذيل طويل، رصده المصريون القدماء، وكانت النجوم ذات أثر واضح في بناء هياكلهم وأهرامهم ومعابدهم، وتركوا لنا في قبر سيتي الأول خريطة فلكية، وفي معبد دندرة- قنا- دائرة فلكية انتزعها الفرنسيون من سقف المعبد ونقلوها إلى متحف اللوفر، أما نجمة بيت لحم فهي زهرة من أنواع الزنبق تقترن بالنجم الذي أشار للناس إلى مكان مولد السيد المسيح عيسى بن مريم عليه السلام وعبد الرحمن النجومي قائد سوداني في ثورة المهدي الذي حاصر الخرطوم عام ١٨٨٥، ثم اختاره المهدي على رأس حملة كبيرة لغزو مصر لكنه انهزم في معركة «توشكى» عام ١٨٨٩، ثم هناك آخر الأمر: عبدالله النجومي صديق الملك المصري السابق فاروق، وقائد سلاح الحدود، ومرافقه الدائم في رحلات الصيد في الصحراوات المصرية شرقاً وغرباً، وكان ذا علم ودراية بجميع أنواع طيور هذه الفلوات، ووضع كتابا شهيرا عنها كان يدرس في كليات الزراعة في ذاك الوقت، وقد رحل منذ ربع قرن، حيث تحول قصره في ضاحية المطرية - بجانب مدينة عين شمس بالقاهرة - إلى معهد لعلوم الصحراء.



● لاتــزال المعضلــة قائمة: منحت زوجتي نقودًا كي لا تســألني - أي سؤال عند انشــغالي، ومنحتها نقودًا كي تجيب عن السؤال نفسه بعيدًا عني.

● البعــض يعتقد أن الخطوط المســتقيمة لا تتصــادم، هذا لو أن كل الخطوط الأخرى مستقيمة أيضًا.

● الجاهل: مرهق في فعل الخير، ومرعب في باقي الأحوال.

● لو اســتطاعت قدراتنــا أن تدرك معنى المحميــات الطبيعية، لكان الإنسان أولى بها - في هذه الأيام بالذات.

● مثل الجدول الدوري الذي ينظم الأوزان الذرية للعناصر: نحتاج إلى جدول دوري ينظم الأوزان الأخلاقية لحكام العالم منذ فجر التاريخ.

● تحطمت قواعد البيوت الموروثة في الشــعر والموســيقى.. والإيواء الأسري أيضًا.

● اســتيلاء التلفزيون على مســاحات التركيز ونشــوة العقل، مدخل ضروري لإدراك اضمحلال الخصوبة.

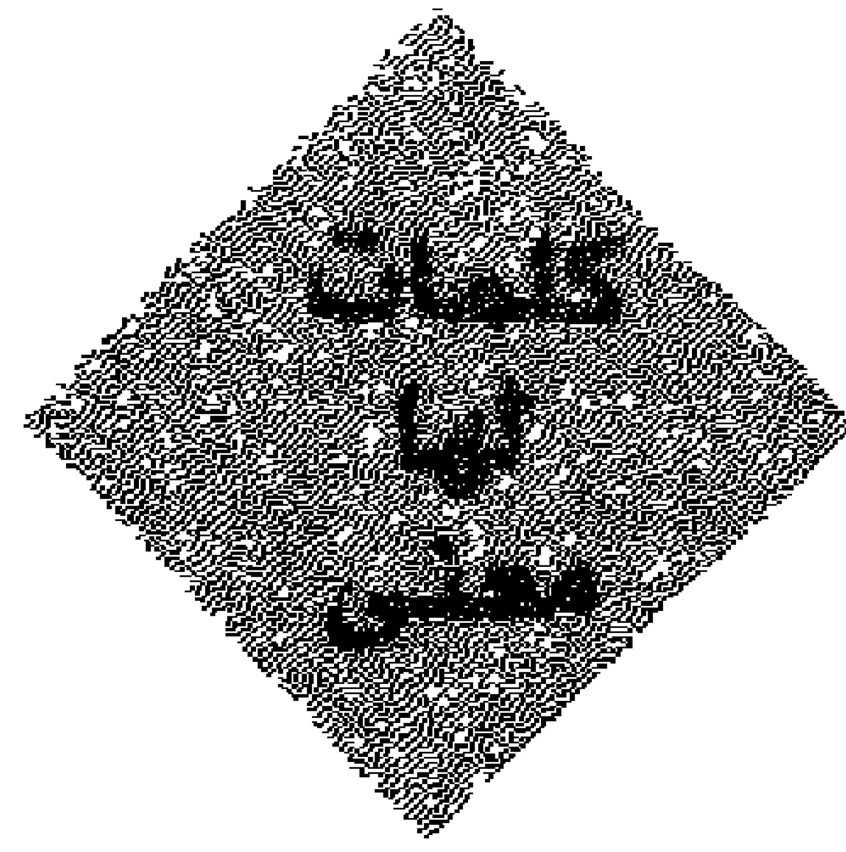
الزمن *
الحنون العطوف ذو الأنامل الشرسة الغامضة

ا الزمـــن هو هذا الامتداد الســـرمدي الواضح الغامض الســـاخر المبهــج المرعـــب، تدور حوله علوم الفلســـفة والطبيعـــة والأديان والطب والتاريخ والأســـاطير علها تجد ثغـــرة تصل بها إلى معنى محدد أو إدراك واضح. ينام على الأرض فوق طبقات جيولوجية، كما تســـتريح القشـــدة فوق الفطيرة المتقنة، يحب الحكايـــات والاختراعات والأكاذيب والدم والبســـاتين والدمار، يبـــدو حنونا عطوفا وأناملـــه تفصل الحبل الســـري للوليد عن والدته ليســـحبه من بين الأثداء والأحضان ويلقي به إلـــى الدروب والمدارس والحقـــول والنســـاء والأولاد والمحاكم والمصانع، ثـــم يصنع من هذا الحبل الســـري كتلا من غضـــون ذات ملامح مرهقة تســـعى للنهاية الغامضـــة، أقام للتاريخ ممالك ثم أقـــام للممالك تاريخا وظـــل يضحك دون اهتمام بمشـــاعر علم الاجتمـــاع، وليس صحيحا أن المصريـــين القدمـــاء- وغيرهم من قدماء- تحدوا الزمـــن بهذه الصروح العتيدة الشـــامخة- كما يحلو للبعض أن يصف في كتبه وأحاديثه- إنما الصحيح أن الزمن ترك على الأرض نثارا من فتات مائدة ضخمة يقيمها بين الحـــين والحين لأصدقائه وندمائه الذين لا أعرف عنهم شـــيئا في هذا الكون الواســـع المذهل. وقد تمدد الزمن فـــي اللغة العربية ليصبح زمانـــا، ولعلها اللغة الوحيدة التي تعاملت معـــه بهذين اللفظين، فالزمن يكاد يعطيك حقبة محدودة أمـــا الزمان فيخرج على كل الأحقاب، وظل

(* العربي - العدد ٤١٧ - اغسطس ١٩٩٣م)

العلماء يناورون الزمن أزمانا طويلة حتى نجح أينشتين في إدماجه داخل نظريــة واحدة ليصبح البعد الرابع لأبعاد الفراغ الثلاثة الطول والعرض والارتفاع «اختصار ضروري وشـديد الإخـلال لكن ما باليد حيلة»، لكن العقــل العربي العامي- ودون اهتمام بأينشــتين أو نيوتن - دمج الزمان فــي المكان حينما يدعو على عدوه: يخرب بيت ســنينك، وعبقرية اللغة هذه جعلت البيت «المكان» يحتوي الســنين «الزمان» لحساب الخراب أي الطاقة تساوي الكتلة في مربع سرعة الضوء، وهو القانون الخاص الذي قامت على أساســه صناعة القنبلة الذرية لتكون هيروشيما في اليابان هي المقصودة بخراب بيت السنين أولا ثم نجازاكي ثانيا. والقرآن الكريم هو الكتاب الزماني المكاني السرمدي الوحيد المعروف منذ خمسة عشر قرنا، وهو وعاء للعقل الإنســاني. وجاء الفلاســفة المسلمون ليجاهدوا تحليقا وتطويعا في الزمان، وكان منهم المتصوفة والزاهدون الذين حاولوا التخفف من الحركة والكتلة والرغبات لحســاب الزمن، غير أن البشــر العاديين توقفوا في إدراكهم عند حدود الزمن التاريخي الذي تتوالى فيه الأحداث والوقائع والنتائج لتحملها صفحات الكتب وســبورات المدارس وأناشيد الرعاة وأساطير الهائمين في الخيال الواسع، والذي أدى بالعالم المعاصر إلى فلســفة الوجود والعدم، تأسيسا على الزمن الوجودي الذي دبجه الألماني شــوبنهاور وترجمه العالم العظيم عبدالرحمن بدوي، وقد قرأته ولم أستطع أن أدرك ما فيه بعقلي المحدود القاصر، ذلك أن الزمن عنــدي تبلور في الزمن الأخير إلى زمن روائي: يتألق فيه التعبير اللغوي في ســاحة الواقع المدرك وصولا إلى الوجدان العام «هل فهمت شيئا؟!» مع مراعاة تفادي التصادم مع الســلالة الكريهة التي تضع توقيعها على كل الأوراق التي في جيبك، والتي تجيز لك حق الحركة والميراث التوريث والاقتناء والزواج والاحتكام والسفر والمحاكمة والحصول على الماء والهواء والنقــود والأولاد والبحث عمن يحمل المحفة التــي تنام - قريري العين - على خشــبتها. لنتيح للآخرين صراخا يختبــرون فيه الزمن الصوتي الذي تتطلبه فنون الموسيقى. وقد أثمرت المحاولات المرهقة التي قام بها المخترعون والمناضلون والأدباء والمفكرون إزاء الزمن عن ســجادة ثمينة صغيرة يلعبون في ســاحتها: سجادة الخلود، وقد رضوا بها ورضيت بهم

وأشـــبعت فيهم تلك النرجسـية المزمنة، لكنهم لم يتوقفوا عن اســتعداء الزمن وصب نقمتهم عليه، حتى اكتشف أحدهم- وهو عربي- أننا نعيب زماننــا والعيب فينا، وما لزماننا عيب ســوانا، فظل الزمن يضحك حتى ظهرت أنيابه، فتوقف الجميع رعبا من هول سطوته الباطشة.



● الحناء والاغتسال بالكولونيا والدعاء بأن تكون الجنة هي المآل: عناصر أساسية في طقوس الزواج وانقضاء الأجل.

●أقترح على الذين يعانون من دراسة الشعر العربي، أن يرافقوا قافلة من الجمال ذات الإيقاع القائم على بحور الشعر، سيصبح الفهم سهلاً، بغض النظر عن أنهم قد لا يعودون إلى مقاعد الدراسة مرة أخرى.

● كل أغاريد العالم تختزل في ارتعاشة شفاه سوف تنطق بالاعتراف في لحظة حب دقيق ونادر.

● ليس في العالم سرداب أطول وأكثر غورًا من الجحور الممتدة في الجماجم.

● مازالت أمي شديدة الفخر والاعتزاز بزواجها من أبي، حالة تاريخية عربية خالصة لمعنى البؤس.

● التلفزيون استولى على منطقة المعرفة، كاتب قصة لم يشهد في حياته الهدهد، ولايزال يكتب.

● هذا الجبروت الكامن في عيون أنثى لم تسأل، لكنها تنتظر الإجابة.

● أفضنا في شرح السكون الذي يسبق العاصفة، فماذا عن السكون الذي يليها؟

المطر*

في حصار القلوب والمشاعر ونبض حزن القصائد

تهتز الجوانــح - لدرجة الوجيف أو الوجــل المضطرب - حينما تتصــت إلى صوت هطول الأمطار، مجرد الصوت فقط هو الذي يأتيك في حصنك: أقصد بيتك الحديث، الأمر سوف يزداد قلقاً لو أنك نزلت إلى الشارع، عليك الآن أن تخترق هضاب التاريخ لتلجأ إلى الخيمة الإنســانية المبكّرة في الصحراء الممتدة الواسعة لتعرف المعنى الحقيقي للمطر، يكون سلســاً هادئاً ناعماً يتألق نقاطا ذات إيقاع مفعم بالشجن على خدود العاشــقين، تحاصره الرياح والتماعات الأسى لينطلق وميض البــرق فيقلب كل قوانين الاطمئنان المرتعبة رعداً، علينا أن نوقف المهزلة قبل أن تداهم السيول أفواه الكهوف ومداخل السراديب القديمة، ونمعن في هذه الأحاسيس الإنســانية الحديثة والتي مازالت تطاردنا في عمق النــوم: مهما كان الفــراش وثيراً، ومهما كانت درجــة الحرارة منضبطة بالكيفية التي نرتاح إليها، المطر عنصر أساســي في تكويناتنا النفسية، إنه ضد الجفاف وبشير للخير، وبوادر ظهور الخضرة فوق الوجه الأصفر الكالح، ثم إنه- المطر - الحوار الصارخ مع الطبيعة ليحتل موقعه المتميز في الأشــعار المبكــرة، في حداء الإبل وفي مراثــي الموتى (العديد) وفي زفــاف العرائس، وفــي ختان العيال، وفي الانتصــار على الأعداء، وفي صياغة العالم ليصبح جميلاً ذا إيقاع ساحر، مع أهمية أن تغضّ البصر كي لا تداهم سيوله كل تجمعاتنا الفرحة بعد ذلك بقليل.

---

* العربي - العدد ٤٩١ - أكتوبر ١٩٩٩م

وكثير من مخرجي الأفلام- في السينما والتلفزيون- يلجأون للمطر كي يساعدهم في إشاعة الجو الدرامي القاسي حول البطلة الجميلة- والجميلة جداً- أثناء بحثها عن المأمن أو المكمن- أي المكان الآمن- الذي تبدأ فيه حياة أخرى تضع فيها وليدها بعد تسعة شهور.

وقد حاصرت الأمطار جيش هانيبال القرطاجي (والذي يعد من أعظم القواد في التاريخ) أثناء اختراقه جبال الألب في طريقه لمحاصرة روما المهيمنة على العالم في ذلك الوقت، ثم تابعته مرات في جبال الأبنين، حيث نجح بعد ذلك في محاصرة روما- ثم لم يلبث أن ظهرت خطة فابيوس التي تعتمد على (النهش السريع ثم الهرب) لينهزم البطل دون أن تبدو في الجو أي أمطار، وقد واجه جيش نابليون بونابرت ليلة ممطرة قبل موقعة إمبابة في طريقه لاجتياح القاهرة، مما أثار دهشته مع أنه قادم من بلاد المطر والجليد، كما أن المغامر الإنجليزي لورانس- صاحب أعمدة الحكمة السبعة- حاصرته أمطار مفاجئة أثناء قطعه طريق السكة الحديدية بين المدينة المنورة ودمشق عام ١٩١٧ فاعتبر ذلك فألاً حسناً تغسل به الطبيعة الجسد: أي التطهر من الأدران، وهناك سائحة إنجليزية جاءت إلى مصر في الأربعينيات، وأثناء اختراقها للوادي المصري، أي على حافة مدينة الأقصر ذات الآثار القديمة العظيمة، هالها نوع من المطر السريع الذي رقص بسببه الناس في الشوارع ابتهاجاً، فاعتبرت السائحة هذا المطر النادر دعوة لها للإقامة في (البر الغربي) ليصبح لها دور بارز في رواية (الجبل) لفتحي غانم، وسوف ترى الدور الذي قام به المطر من تواطؤ في الضغوط الناجمة عن الحصار والإحساس بالانقطاع عن العالم في رواية الإيطالي دينو بوتزاني (صحراء التتار).

وكانت كلمة.. مطر.. مطر.. مطر.. من أوائل إشارات التبشير بالشعر الجديد عند بدر شاكر السيّاب، وليس لهذا أي علاقة باسم صديقه الشاعر محمد عفيفي مطر، أو الشاعر- الذي لا أعرفه - أحمد مطر، وهما من أبرز المبدعين العرب الآن، أما المطر الأحمر فإنما هو نوع من الأمطار به صبغ أحمر، وأعتقد أن هذا اللون يرتبط بغبار الحديد، وعندما يهطل هذا المطر على الأرض: يصبغها بلونه، (أما اللون، فيرجع إلى احتباس حبيبات ترابية دفعتها الرياح من الصحراء إلى طبقات الجو

العليا وحملتها مســافات بعيدة) هذا ما جاء في الموســوعة العربية من تعريف بالمطر الأحمر، لكني لم أشعر بحرج حين أذكر أنه غبار الحديد، والمطران هــو الرئيس الديني عند أصدقائنــا النصارى، وخليل مطران شاعر القطرين الذي ولد ونشأ في لبنان وقضى معظم حياته في مصر، وقد عمل بالصحافة ثم رئيساً للفرقة القومية- المسرح القومي المصري الآن. أمــا مطير، فهي قبيلة في شــبه الجزيرة العربيــة، تمتد مواطنها حتى الخليج العربي وحدود الكويت، وبوادي الباطن حتى الزلفى، ويكثر أفرادها في ضرما والعشــيرة والبكيريــة. والمطرية- في مصر موقعان: ضاحية شــمال القاهــرة، وتقوم مع جارتها (عين شــمس) على أنقاض أقــدم عاصمة مركزية: أون- مدينة الشــمس. أما المطرية الأخرى فهي على ضفاف بحيرة المنزلة شمال الدلتا.

وعلينــا الآن أن نخــرج من المطر ، حتى لا أرتد صبيّاً: يخلع ملابســه ويندفع صارخاً كي يستمتع بهذا الذي يندفع من أعلى الأعلى كي يحرّك الأعضاء والمشاعر، ويطارد الملل، إنني أكاد أفعل ذلك حتى الآن، دون أن يبارحني شــعور بأن المطر ســوف يظل جميلاً- ومشاغباً- ومثيراً، على ألا يصبح سيلاً.



- الذهول لايزال هو المحاولة الفطرية الأولى للفهم الصادق.
- الدنيا تلف وتدور وتنظر بنصف عين إلى سقوط الجمال مهروسًا تحت مقاطع ما يبدو أنه شعر، وحديث أيضًا.
- إذا توقفت يدك في يدها بعض الوقت، فلا تمعن كثيرًا في عينيها.
- لم تكن الكارثة في فيل أبرهة الأشرم، كانت في جمجمته.
- كثيرًا ما يبدأ الليل الطويل في منتصف الليلة الماضية.
- قالت: عليك أن تدرك أن ما حدث بيننا كان لهوًا صبيانيًا. هي لا تعرف أن هذا ما أسعى إليه حتى الآن.
- حتى الليالي التي تبدأ بالغناء، كثيرًا ما تنتهي بالصداع.
- الفرق الحقيقي بين الإنسان والحيوان، أن النوع الأول يقضي دهرًا طويلاً من مجموع الأوقات التي يستهلكها في خلع وارتداء ملابسه.

الظلم والظلام *

ريما كان الظلام وراء قيام المدن والتجمعات السـكانية المتداخلة المتلاصقـة، حيث تخفت سـطوة الظلام مع التلاحم الإنسـاني - لا تحـاول أن تخرج بالتلاحم عـن المعنى الذي أقصده - لكن الظلام الـذي أدّى بنا - خلال أحقاب الوجل أو الهدوء - إلى هذا الجوّ الخانق المضغوط بين جدران الأسـمنت والمصيص ودوائر الكهرباء والصراخ - أي الضجيج بموسـيقاه الصاخبة - هو ذاته الذي دفع الجميع - مع كل اختلاف النزعات والطوائف والعقائد - أن نتمنى ثم نسـعى كي نمتلك كوخاً (شـاليه في المصطلح المعاصر) أو بيتاً أو قصراً في منطقة بعيدة عن ضغوط المدن، حينئذ، وفي اسـترخاء هـادئ رقيق، يتهادى الظلام في الذكريـات والأبوّة والأمومة والطفولة وصبيانيـة الأمنيات، ويتألق النظر إلى النجوم بالشـجن والانفراج نحو الآفاق السـاحرة، إن أقسى ظلم حاق بنا هو وقوع حواسنا - العيون والآذان بالذات - خلف النوافذ التي تطل على حوائط وأسوار ومعاقل - أو معتقلات - الآخرين، والتي تشـغى بظلام التحضّر المضيء فـي خلايا وثكنات الأمـن والضرائب والمدارس والعشـق الخـاوي من الخيال، مع إضافـة ضجيج الموتورات والباعة والشـجار والمرح الفوضوي تحت ظلمات الإعلانات والشعارات والمستندات والسندات والخزائن والتعليمات والأغاني، ومراعاة أن تنام مبكراً وتستيقظ مبكرا، وأن تغسل يديك قبل الأكل وبعده، لتصبح ظليما

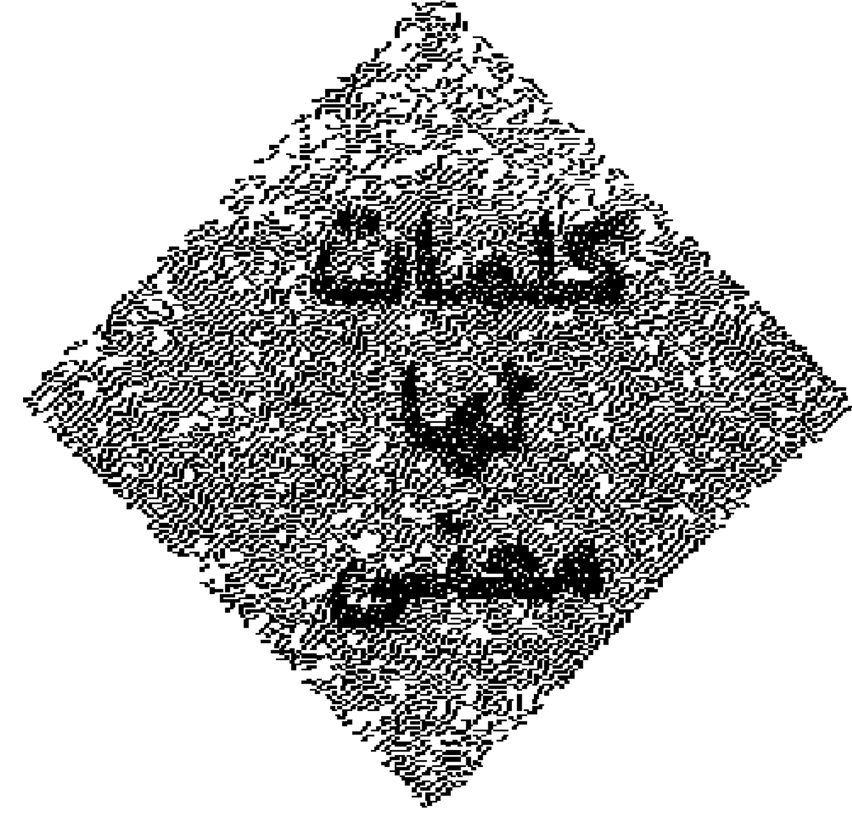
* العربي - العدد ٥٣٣ - ابريل ٢٠٠٣

- أعني ذكر النعام الذي يظل واقفاً وحيداً في سعادة بعيداً عن العالم.

وليس صعباً أن ندرك المعنى ذا الهم الثقيل الذي جعل المتنبي أو ابن الفارض أو امرأ القيس يسعون في ظلام الفلوات تخلصاً أو تخففاً من ظلم وقع عليهم أو مأزق وقعوا فيه وسط أضواء حركة الناس - أعني الجماهير، وربما سوف يصبح الأمر أكثر إشراقاً حينما تتاح لك فرصة التسلل إلى الجبال - جبل الدرهيب في الجنوب الشرقي لمصر كمثال - لترى تلك الكوات المتناثرة التي يطل منها المنقطعون للعبادة تحت سطوة الإشعاع الروحي الذي يتماوج في الجوانح إلى الهواء الطلق حيث لا يصبح الظلام ظلاماً، أو ربما لأن (الظلم لا يمكنه أن يتسلق الجبال)، ولم أكن أعرف ذلك في تلك الدهور التي قضيتها في لف ودوران طفولي داخل تضاريس حقول قريتنا، وبين الترع والمصارف والقنوات الملتوية، في الظلام بالذات، دون أن أدري أن ثمة ظلما قد حاق بي في بيتنا البسيط ذي الفراش البسيط والمأكل البسيط، إلا أن الأمر تطور بي - بالصدفة أولا ثم بالرغبة العارمة ثانياً - أن أقترب من الجماعات المتنقلة غير المستقرة في الصحراوات كالغجر والنَّوَر والحلب، ثم هناك في جنوب مصر جماعات البشارية ذات الاستقرار النسبي، بنفوسهم الهادئة الممعنة دائما في السماء ليلاً استرشاداً بنجوم الظلام، والممعنة في الهضاب والتلال والصحراوات نهارا استرشادا بتكويناتها، التي لها ظلامها الخاص، إلا أن الأمر يصبح أكثر إشباعاً للرغبة عندما شاءت الظروف أن أقترب من جماعات المساليب، أي هؤلاء الذين يهيمون أفراداً ثم يلتقون آخر غروب الشمس جماعات محدودة العدد، وتحس أنهم لا يطمئنون إليك أو إلى غيرك، ولا أعرف إن كانت ثمة دراسات أو بحوث قد شملت جماعات المساليب الرافضة دوماً التآلف مع الآخرين، مع قلة عددهم وشدة حاجتهم، في الوقت ذاته - مع إحساس عارم بأن ثمة مطاردة وراء تجوالهم - فإنهم لا يلعبون ولا يمرحون كما تفعل الجماعات الأخرى عندما يحل الظلام. والذي أثار انتباهي إلى ذلك أن جماعات - أقصد عصابات قطع الطرق المنتشرة في العالم كله بأشكال متعددة - فتحت لي باب إدراك المعنى الضاغط للظلام وما وراءه أو ما ينتج عنه من ظلم، إذ إني صادفت بعضا منهم في أحقاب تالية تحت غضون جبال أسيوط الشرسة عندما كنت في إجازة من عملي في مشروع السد العالي

في الستينيات، وكانت قبضة نظام جمال عبدالناصر أيامها قد حدّت من جهنم الثأر في الصعيد ومحافظتي الشرقية والبحيرة، أي أن الثأر لم يكن - ولن يكون - مرتبطاً بالصعيد المصري وحده كما تميل الثقافة العصرية الهشّة إلى الوقوع في دائرته، ومع مرور الوقت - صحبني واحد تعرفت عليه في جلسة (مصطبية) عادية إلى عصابة قطع الطريق خلف جبال (دُرنكة)، وبعد التآلف معهم - الذي استهلك بعض الوقت والابتسامات والإمعان الدائم في إدراك ما في صدري ضدهم - كما تعودوا، وبسبب عدم توقف تسللهم إلى المناطق الزراعية في الوادي الأخضر، بدأت الأفئدة تسترخي، والتواصل الإنساني يزيح الشك والارتياب جانبا، إلاّ أن المدهش بالفعل: أنهم - وكانوا ستة أفراد - يظلون في ضوء النهار يلعبون ويعبثون وينظفون السلاح في ظلال الصخور، لكنهم في الليل - ومع حلول الظلام يبدأون في تخطيط التآمر ضد الناس، تخطيط تلقائي مع تقليب الوسائل الأكثر سهولة في الوصول إلى النتائج الأوفر سلباً واقتطاعاً ولصوصية، مع أنهم طوال النهار - في ضوء الشمس، لا يتحدثون في ذلك، فكاد الظلام يعمم معناه المستقر في نفوس عامة البشر عن ارتباطه المباشر بالتآمر والشر دون اختراق العالم السماوي الرحب الذي يكمن وراء الشعر والرسم والقصة وأنواع عديدة من الإبداع الذي يتسلل بعيداً عن الضوء الكاسح، لينمو في الجوانح المضيئة بأنوار الظلام الجميل الذي يتألق فيه - وبه - خيال الفن الراقي المتواصل مع الحس الإنساني الدافئ.

وما أكاد - أيضا في أحقاب تالية - أقرأ تاريخ أو تفاصيل أو مذكرات الانقلابات العسكرية أو المداهمات التي تسعى للعدل - كما يعلنون دائما -وللحرية أيضا، حتى أقف طويلاً أمام التفكير التمهيدي لذلك، والذي يتم تحت همسات شعائر الظلم تحت أستار الظلام، مع أن ذات التفكير كان يمكن أن يتم في ضوء النهار، ولاسيما أنهم - في كل دول الانقلابات - يقيمون ويجتمعون في أماكن بعيدة منقطعة عن الارتياب أو الشك فيهم، لماذا في الظلام بالذات؟ دعك الآن من المساليب وجماعات قطع الطرق التي تقع في المأزق نفسه أيضا، وعليك أن تعرف أن الظلم يلد الظلام عند النفوس المظلمة، أما النفوس المضيئة فإنما هي تتألق وتتماوج عذوبة تحت إيقاع النجوم البعيدة ذات الشجن.



● كل التجارب أثبتت أنه من الممكن استئناس الحيوانات الضارية المفترسة كالأسد والنمر والفهد، مهما احتاج الأمر إلى صبر ودراية، لكن التجارب ذاتها فشلت في استئناس الكلاب الضالّة، والتي كانت مستأنسة أصلاً.

● رواية: قررت أن أتخلص من زوجتي بأقل تكاليف، وأثناء إعداد المؤامرات التي أحقق بها هدفي، فوجئت بزوجتي تسعى للتخلص مني بأي ثمن، فقررت أن أنتقم منها، وأن أجعلها موعظة يعتبر بها الجميع: أن أتمسك بها، فإذ بي أفاجأ بحصولي على الجائزة الكبرى بصفتي نموذج الزوج الوفي المخلص.

● وقعت خلال المليون عام الأولى من عمري في مأساة الفرق بين ما أريد وما أستطيع، وقد حققت كل آمالي بسبب وقوعي في كارثة الفرق بين ما أستطيع وما يريده الآخرون، دعك من المليون عام المقبلة.

البدر... والبدور*

تصورت أن دخولي عالم البدر والمبادرة أمر سهل، حيث يمكن لي أن أبــدو ذا قدرات لغوية فائقة، حينما أتجول حول البدر بصفته قمراً مكملاً ناصع التألق في اســتدارة خــدود (ثريا... بنت خالتي) في البــوادر الأولى - أي المبكرة - لانفتاح حواســنا الصبيانية على الوجود، إلا أن بدر البدور قطعت الطريق على تجوالي حاملة قفص البداري فوق رأسها، وأصوات البداري تزقزق في شغب صغير ينبهك فوراً أنها تحاول الخروج من مرحلة الكتاكيت إلى عالم الدواجن ذات الأعراف والأجنحة المتداخلة الألوان، ولم أكن أدرك - أنا ورفاق مرحلة بوادر شــبابنا - أن الأمر يخصنا نحن بالذات، ولاســيما أن حاملة القفص المفعم بالبداري كانت تتراقص في تناغم دقيق وقد غطت جزءاً من خدودها بكف يدها، أنظر إلــى عينيها اللتين تدفعــان أهدابها كي تبدو بالغــة الحرج حياء ممــا يبدر من الذين يهــوون أكل البداري عند غروب الشــمس بالذات، وذلك ما جعلنا نحسّ الآن بأن المبادرة المبكرة في العلاقات الإنسانية قد خلعت أرديتها اللغوية الجميلة حينما بدأت تؤدي دوراً آخر تحت ســطوة المصطلح السياسي المعاصر.

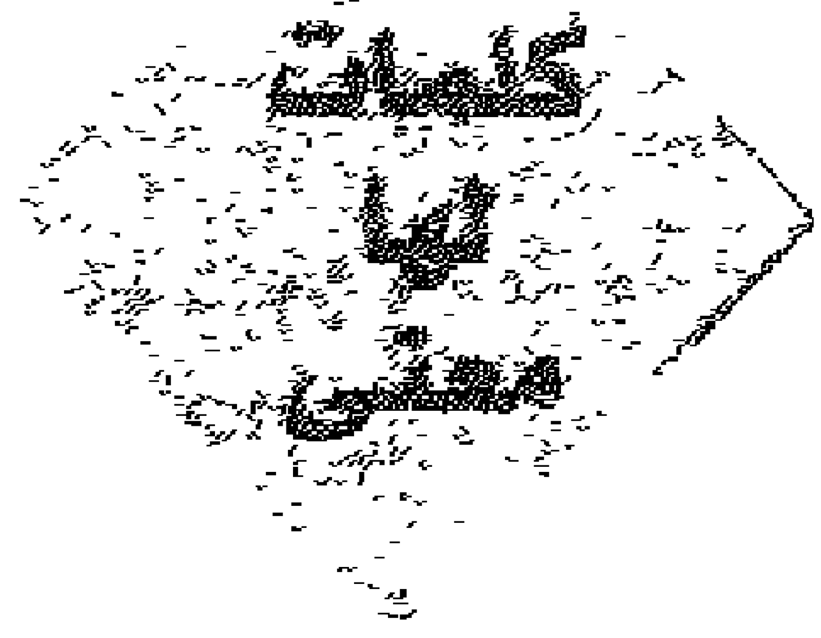
إلا أن أمــوراً أخرى بدأت تدفعنــي للوقوع فيما أنا فيه، فنحن الكُتّاب الذين يشــار إليهم بالبنان، لا نســتطيع اســتخدام كلمة (بــدرة) لأنواع المساحيق التي تسري على الخدود لتدفع بالجمال الأنثوي إلى أرق أنواع

* العربي - العدد ٥٣٨ - سبتمبر ٢٠٠٣م

التجميل: أقصد الجمال، كما يستخدمها كل أنواع وجوه البشر في إعادة صياغة الملامح لحساب الشخصيات في الأدوار والشخوص التمثيلية على المسرح وشاشات السينما والتلفزيون، وعندما أواجه الكتابة - المقال أو القصة - فإني أحاذر استخدام لفظ البدرة لبعده الواضح عن اللغة الفصحى، فإذا بي أجد البدرة - بكل معانيها في المساحيق - تحتل موقعاً مميزاً في المعاجم العربية، كما أن البداري ليست الكتاكيت فقط، بل إنها تشمل أيضاً كل ما تثمره النباتات والأشجار في بوادر موسمها، ونحن في قريتنا نستدرج البداري كي تغطي بالامتنان صغيرات السن من الزوجات حينما تضع أولى نتاج للتواصل، وأن البدري من الزرع والضرع - أي النبات والحيوان - ما بدر به الزارع أو المربّى أول زمانه، مع أن أي فرد يحمل اسم (بدر) فإنه يرتبط مباشرة بالقمر المكمّل، والغزوة التي وقعت فى السابع عشر من شهر رمضان بين بوادر المسلمين من المهاجرين والأنصار - وكانوا قلة (٣١٣ رجلا) والمشركين المناوئين لديننا الإسلامي الحنيف - وكانوا كثرة (٩٥٠ رجلاً) ليحقق أجدادنا أقوى وأرقى بوادر الانتصارات في بدر التي تقع في الجنوب الغربي من المدينة المنورة.

ومن الحزن الشخصي الذي يخصني أني ضيق الصدر بالمدن الحديثة، والتي تخلو من البدر، فأضواؤها - الثابتة أو المتراقصة مع إضافة ألوان الإنجاز العصري المتقافز في الأجواء وفوق الأبنية حالت بيننا وبين تلك المتعة الكبرى التي تسترخي فيها حواسك في ألفة مع الفطرة الكامنة فيك، لتشهد البدر - حينما تهجر المدن ذات الأضواء الضاجة - وهو يشرق في هدوء الشجن الساري بين الجوانح، حيث يمكن لك - دون أن تفتح فمك - أن تتجول في ليالي القمر، لتبدأ الأمنيات القديمة في التحليق تحت إيقاعات هائمة في صوت أم كلثوم داعية حبيبها للسهر معا، المشكلة - أنني - حينئذ - على البحر أو التلال أو مشارف الوديان - ما أكاد أستتيم بخيالي إلى ليالي القمر حينما تهلّ، حتى تبدأ (بدّرة) قريبة أمي في اختراق المشهد لتصل إلى فرن الخبيز بالمرح المعهود فيها، والتعليقات التي لو رصدناها لأخذت معنى غير مريح من عصر انخفاض حرارة الأفراد لتظل مرتبطة بالأفران فقط، أو السيد بدير - ذلك الممثل

المشـــهور بشخصيته المتميزة والتي تفح بالفكاهة، حتى لو كانت شخصية الصعيدي المصري قليل الذكاء ابن عبدالرحيم بيه كبيرٍ الرحيمية قبلى، وكلاهما شخصيات كاريكاتورية مفتعلة لاقت استحساناً وشهرة، بل وقام كثيـــر من أهلنا في الصعيد بتقليدها دون اهتمام بما فيها من اصطناع، إلا أن البدر يمكنه - إذا استطعت أن تنفرد به في الآفاق الممتدة - سوف يغســـل وجدانك من أي حقد أو شـــر، بعض الوقت حتى يغيب البدر في أحسن الأحوال.



● أي أدب تتـم كتابته تحت تأثيـر الجوع، فإنه يقع بين براثن الأنيميا والحزن، حتى لو كان الجوع إرادياً أو أمراً طبياً.

● أعظـم خائن في التاريخ هو أنا، فمـا أكاد أبدأ في صناعة مكيدة أو نسـج مؤامرة، حتى تندفع إلى سطور كتاباتي كل أنواع الخداع خارج النص أهوم بنظراتي في استكانة شاعرية.

● كل الغيوم تشعر بالحرج حينما تحول بين زهرة وبعض الأشعة المقبلة من الشمس.

الحب *

الحب نزعة عاطفية غامرة، تعلو عند شبوبها مختلطة بالغريزة - فوق أية نوازع أخرى، فتمتلئ المدارس بالعيال والشوارع بالأحداث والمحاكم بالقضايا والسينما بالروايات، وتسيل الكوارث المتألقة من بين أعقاب أبواب الهناء والسعادة، تداهم - هذه النزعة العاطفية الفوارة - الأحياء في أي وقت ولو لم تقم لمداهمتها أسباب واضحة، ويزداد عملاء الحب انفعالا فينشدونه مخلوطا بأشياء أخرى لحساب الوطن أو النقابة أو القبيلة أو التنظيمات السرية، سواء أكان هذا اعتناقا وعقيدة، أو من باب الملل وإزجاء وقت الفراغ وبديلا لحل الكلمات المتقاطعة.

والمختصون في شئون الحب يقسمونه إلى مراتب تبدأ بالميل، ثم الحب، ثم الغرام، فالعشق، لكن الواقع فيه، أي الممارس، لا يقف كثيرا أمام هذا التقسيم، إنما يفعل المستحيل كي ينمو بشكل صارخ - وفاضح - حتى يصبح حبا ضخما شامخا، وفاشلا أيضا، ليستمتع فور فشله بالبكاء بين يدي الذكريات، ومرحلة وصول الحب الناضج إلى فشله العظيم هي التي اكتشف فيها الأدباء أنهم شعراء أو روائيون، فقد كانت كتابات الأدباء - وبالذات الأولى- تحقيقا لما فاتهم تحقيقه، وانتقاما ممن تعذر الانتقام منهم، وفي حالات كثيرة- نعرفها جيدا عن أصدقائنا- نجد أن هذا الحب، وممارسة هذا الانتقام، تتمان بعيدا وبمعزل عن الملهمة الساخنة، وزوجها، ووليدها أيضا، لأنهم- في أحيان كثيرة لم يعرفوا شيئا عما جاء

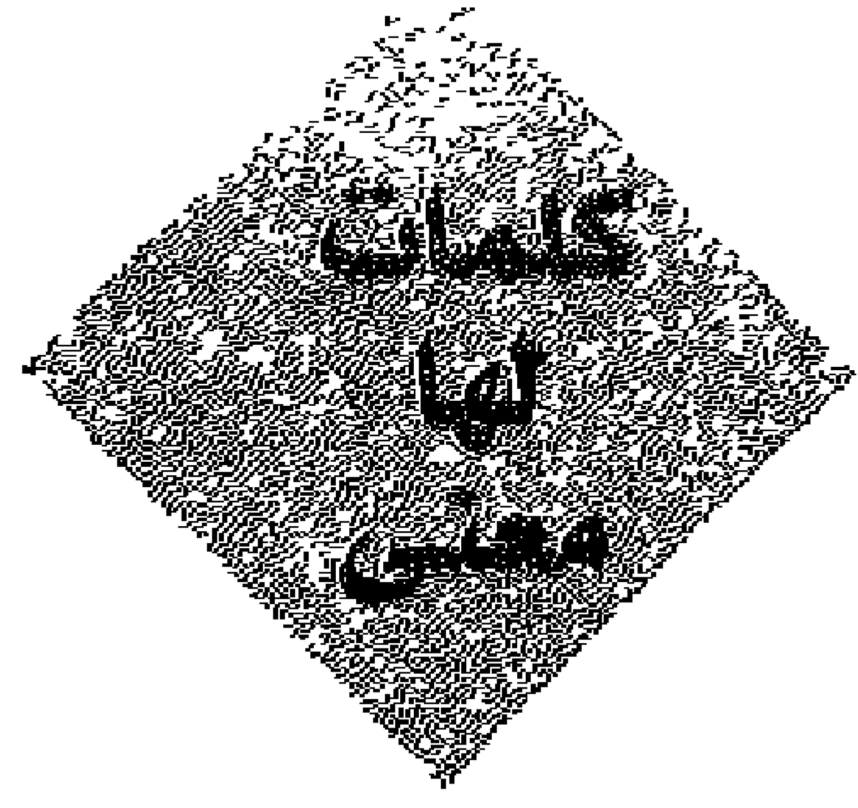
* العربي - العدد ٤٠٧ - أكتوبر ١٩٩٢م

في الرواية أو القصيدة، لعدم جدية الحكاية أصلا، أو لعدم حدوثها من الأساس، أو لعدم إجادتهم القراءة والكتابة في أغلب الأحيان.

وليس لدينا – في الأدب العربي – قصة حب ناجحة بالمفهوم العاطفي، فقد جرى معظمها لحساب شعراء يهتمون في المقام الأول بهذا العذاب الكاسح الناجم عن الفشل، وكأن نجاح تجربة الحب هو انتقاص يضر بنفوسهم ويحولهم من عشاق إلى أزواج، حتى عنترة بن شداد العبسي تزوج من عبلة – حبيبته – بعد مواقع حربية وبطولات مستحيلة علينا، وكان يمكنه أن يتزوج – بصفته فارسا لا عاشقا – من أي واحدة من عبلات القبيلة، التي اختصرت في مفهومه الضيق إلى عبلة واحدة، في حين أن عشاق العرب جميعا – وقصصهم شاهدة في كتب المدارس – توقفوا عند البكاء في أثر الحبيبة التي ذهبت بعيدا، وقد يكون مفيدا هنا أن أقرر على مسئوليتي، أن قصائد عنترة بعد زواجه من عبلة لم تكن في مستوى قصائده قبل هذا الزواج، ولذا فقد شكك النقاد المعاصرون فيها واعتبروها منحولة أو موضوعة عليه، في حين أنني أعرف – من بعض الثقات – أن عنترة قال هذه القصائد وهو جالس أمام الخيمة يداعب وليده مالك الصغير، حتى تنتهي عبلة من قلي البيض وتقمير العيش، كان يرتكز إلى سيفه الصدئ البارق المتثلم..!!

ويموج تاريخ العالم بالعشاق، ذوي التجارب الفاشلة جدا (نابليون – و– ديزريه) أو الناجحة جدا (كليوباترا وأنطونيو)، حتى أنها من قوة نجاحها مارساها عدة مرات، غير أن عشاقا آخرين وقعوا في مأزق تفسير انتحار كليوباترا بعد ذلك، والأمر بسيط، فكليوباترا كانت – في تكوينها – شاعرة معاصرة لا يشبعها إلا الفشل المتلوي في شكل ثعبان من نوع غير مأمون.

وقد نجحت وسائل التمثيل ووسائطه – من سينما وفيديو وتلفزيون – في امتصاص عمق مشاعر الحب، وحولتها إلى ألياف من المشاعر الصناعية تصلح للاستخدام عدة مرات دون أن تجرحك مرة واحدة، مثل مشاعر الأخوة والصداقة والأبوة أيضا.



● الزوجة كالجملة المفيدة، قد لا يكون لها محل من الإعراب.

● تأخذ الأمهات وقتًا طويلاً حتى يصبحن ذكيات كالجدات. ساذجات كالبنات القاصرات.

● يكفيها أنها قدمت لك مشـــروبك المفضـــل، وكانت حافية القدمين، اسكت أرجوك..!!

● هـــذا عصر ذوي المواهـــب المحدودة، وإلا فكيف كنت ســـتملأ هذه الصفحات ذات العدد الضخم في صحف كل صباح؟

● أكثر إثارة من الفاتنة التي استحمت باللبن: الأرنب في الملوخية.



الفرسان... والعشق *

ماكدت أقترب من عالم الفرســـان حتى شعرت بنشوة - يكمن في طياتهـــا حزن حديث - وأنا أعود غلاماً إلـــى الفيافي أو الحقول أو الآفاق الممتدة، أركب عوداً ناشــفاً من البوص وأتقافز به فارساً مفعماً بالغـــرام لعبلة أو ليلى أو رابحة، وكلهن معشـــوقات قامت بأدوارهن على الشاشـــة البيضاء (كوكا) ابتداء من عنترة أو بدر لاما أو ســـراج منير أو - في آخر الأمر - فريد شوقي: فرسان السيف والخيل وقصائد اشتعال القلوب، ثم لم ألبث أن أصابتني خيبة التصوّر عندما اتضح لي أن أعظم العشـــاق ذوي الســـيرة الغرامية الموروثة لم يكونوا مـــن الصف الأول من الفرســـان: قيس بن الملوح المشهور بمجنون ليلى بصفته العاشق المتيم بها ويكثر من ذكرها في حديثه وأشـــعاره (ويأتي دارها بالليل - كما ورد في الموســـوعة العربية دون أي تدخل مني - وإن كنت ســـعيداً بذلك)، فمنعه أهلـــه من زيارتها، ورفضـــوا أن يتزوجها، فذهب عقلـــه وهام على وجهه شجناً شعرياً يتبخّر في آفاق الصحراء: حتى مات، أمّا قيس بن ذريح فقد نجح في الزواج السريع من معشوقته لبنى (وليست ليلى) على غير رغبة والديـــه (اللذين ظلا حتى الآن والدينا - في الســـينما والروايات والواقع والأقاصيص)، فألحّا عليه إصرارا منهما على تطليقها، وعذّبا أنفســـهما ليكرهـــاه على ذلك، وأثارا عليه قومـــه (لاحظ أنني ضيق الصدر بصيغة المثنى ولاســـيما حينما يكونان والدين)، حتى أذعن العاشـــق لهما، وطلّق

(* العربي - العدد ٥٢٦ - سبتمبر ٢٠٠٢).

زوجته المعشوقة، لكنه، لم يتحمل فراقها ومرض، فقاما بتزويجه أخرى، فلم يعاشرها، وتصاعدت الأمور عندما تزوجت لبنى الحبيبة، فلم يتوقف قيس عن الانهماك المستميت في حبها حتى نجح في تطليقها من زوجها، فماتت دون أن يستعيدها، أو مات قيس نفسه، ولأن الأمر بهذه الطريقة المفرطة في التشاؤم المؤسف لا تشبعنا، فقد وردت أنباء عن استعادته لها، والحياة هنيئاً معها، ولعل ذلك هو العنصر الذي لايزال فاعلاً – ولو كان مفتعلاً – في النصوص الغرامية الحديثة الآن.

وقد اختلف الأمر قليلا مع فارس آخر من فرسان الغرام، جميل بثينة، والذي عشقها وكانا يتلاقيان، فغضب قومها ورفضوه وحالوا دونه والزواج بها، فتزوجت من غيره فلم يكف جميل عن حبها والتشبيب بها (الإغراق بسيرتها) فشكاه أهلها إلى الوالي الذي أراق دمه بعد استنفاد النصح والتأنيب واللوم والتهديد، فهرب جميل إلى اليمن، ثم رحل إلى مصر، ومدح أميرها ثم مات بها (أين مقبرته في مصر؟ لا أعرف)، أما كثير عزة الذي اشتهر بعشقه لعزّة بنت أبي بصرة، فقد عشقه العرب باعتباره واحداً من فحول شعراء العصر الأموي، عاش بالمدينة، لكنه ظل محبّاً للسفر في الحجاز والشام والعراق ومصر، (مع أنه كان مفرط القصر دميما)، وهي صفات لم يكن العرب يميلون إلى الوقوف عندها، إلا أن قوة شعره استلزمت – فيما يبدو – أن يجعلوا من النقيصة أو العيوب – تميّزاً لصالح العاشق، مع أني لا أعرف إن كان كثير قد تزوج عزة حتى الآن.

وفي كل هذه الحالات فإن فرسان الغرام هم الذين صاغوا مقررات مواد مناهج مدارسنا بعد ذلك، فإن الدراسات – ولاسيما في الدرجات العليا مثل الدكتوراه – أخذت من هؤلاء الأبطال المرهقين مادتها البحثية في اللغة العربية، أو اللغات الأخرى، ولاسيما المستشرقون، إلا أن أبا الفوارس عنترة بن شداد هو الذي كان – وظل – رمزاً خالصاً للفضيلة العربية التي تتميز بها الفروسية: الشجاعة، وإجادة ركوب الخيل، ومرونة التصارع – مبارزة أو قتالاً، والأخلاق النادرة القادرة على عدم الاعتداء الشديد فتكاً بالأعداء الذين وقعوا جرحى، مع التصميم العاشق للحصول على محبوبته، والتي كانت في حال عنترة استثنائية لم ترد في حال أخرى – في أي نص عربي أو غير عربي، ذلك لأن أمه كانت جارية حبشية

(عائقـــان لا عائق واحد: كونها جارية ولأنها حبشـــية) في عصر ما قبل الإســـلام الذي لم يألـــف التزاوج مع أمثالهن ولا مـــع أبنائهن، ومع ذلك، وبســـبب ما تميزت به أخلاق ووقائع وســـلوك وقصائد هذا الفارس في حـــروب قبيلته خلال داحس والغبراء، فقد تزوج من معشـــوقته عبلة ابنة عمه، ليخرج عنترة من وقائعه إلى ســـيرة غزيرةٍ متنوعة الأبعاد، اخترقت الوجدان العربي في كل العصور، وأصبحت جزءاً دقيقاً واضحاً في الجهاز العصبـــي عندنا – مهما اختلفت الدول والأمم العربية، وقام الرواة – في الصحـــارى وعلى ضفاف الأنهار – ثم في طرق الأداء التمثيلي الفني في عصورنا – بإضافة التلوين الدائم وإبراز أنواع من العزف على تلك السيرة التي تجاوزت عشـــرة آلاف بيت، كل شـــاعر يرويها حسبما يكون باللهجة التـــي يتطلبها الناس، وبالطريقة التي يأنـــس ويحسّ برغبة الجمهور في تناول الســـيرة بها، وحتى حينما ولجت ســـيرة أبي زيد الهلالي ســـلامة المجال الشـــعبي، وهيمنت على المجالس العربية فـــي القاعات والميادين، وعلى المصاطب ومجالات السمر، وفي أسماء القبائل والعائلات، ظلت – سيرة أبي زيد الهلالي سلامة – خارج المنهج المدرسي (حتى لو كانت ذات أثر واضح في البحوث الجامعية والتراث الشـــعبي – في مصر بالذات)، والسبب في ذلك أن بطل هذه السيرة لم يكن يتصف بما اتصف به غيره من الفرســـان في عنصرها الأول: أن يكون شـــاعراً مبدعاً حتى ولو ظل الشعراء الشعبيون في حال هيام دائم بشخصه المغوار.

إن ســـمة الإبداع – شـــعراً في هذه الحال – تصنع تميزاً آخر قد يعلو – في الاهتمام الدراســـي على الأقل – على ما يلاقيه الفارس من عوائق وكوارث، ولاســـيما حين يســـتطيع الشـــاعر الفارس المبدع أن يحقق أمله في الوصول إلى معشـــوقته، ثم أن يحافظ عليها بصفتها زوجته إلى آخر العمر، وعليك أن تراجع ما حدث في السطور السابقة، وأن تتركني أسترد وهمي الخاص بالحصول على فرس (مذكر ومؤنث) أمتطيها في عصرنا الحالي الذي قد يدفعني إلى البحث عن عود من البوص الناشف، فأعود صبيّاً، اخترق ضجيج المدن بحثاً عن عبلة – أو عزة أو كوكا: يرحمها الله، مع أن الفروسية تطالبني بأن أكتب عنها مرة أخرى.



● همس في حزن: لماذا تفعل بي ذلك؟ ألست صديقك؟! قلت في هدوء صادق: وهل تطلب مني أن أمارس الشر في واحد لا أعرفه؟؟....!!

● عندما يعسعس الليل: يبدأ النهار في التثاؤب... انتظاراً مملاً.

● أطالب بدار استشفاء ذات تخصص في مرضين: عدم الحصول على جوائز الدولة، أو الحصول عليها.

● أشـــجـار التـوت تجـذب دود الحرير، وأشجـار السنط تجذب دود القرظ ذا الأشواك، والأزهار تجذب الفراشات، والأرض تجذب البشر.

الجيب *

بين قيس وليلى وجيب الزاوية وسقوط الإمبراطورية الرومانية

الرجل لا يعيبه سوى جيبه، وهو مثل شعبي عربي وإن بدا مصرياً، حيث تجد صياغة له في الشام والمغرب والخليج العربي والسودان: خاضعة لنفس المعنى الذي وضع القدرة الاقتصادية في الموقع المؤثر الأول والأخير، وهي مبالغة كما تعودنا في الأمثال الشعبية تقع في موقع التناقض مع عناصر عديدة أخرى أخلاقية وبدنية وعقلية تجعل الجيب يتراجع عن قوته وتأثيره: مع أننا كثيرا ما نؤيد الجيب من واقع التجارب التي نقوم بها نحن والآخرون، ومأساة قيس بن ذريح الذي عشق لبنى بنت الحباب، وتزوجها رغم ندرة الذين يتزوجون من حبيباتهم في كل العصور، إلا أن والديه ظلا يضغطان عليه حتى طلقها دون أن يكون لجيب قيس دخل في ذلك، وقد سبقتها كارثة قيس بن الملوح: مجنون ليلى بنت المهدي حبيبته التي اخترقت روحه لتنصهر شعراً وشوقاً وشجنا وحكايات وروايات وأفلام سينما ثم تلفزيون مع عدد من النصوص المسرحية عبر الزمان الغابر والحديث، إلا أن قيس صمم أن يظل عاشقا ينسل إلى بيت حبيبته دون اهتمام جاد بتزوجها مما جعل حكايتهما تتحرك فوق كل الألسنة عبر الصحراوات حتى ذهب عقله وهام على وجهه إلى أن مات، هل قام الجيب أي القوة الاقتصادية بتعويق قيس كي يكون له أسرة؟ لاحظ أني متأكد أنك لو حللت لقيس هذا كل المتشابكات، وأزلت له كل العوائق: لما استطعت أن تنقذه من

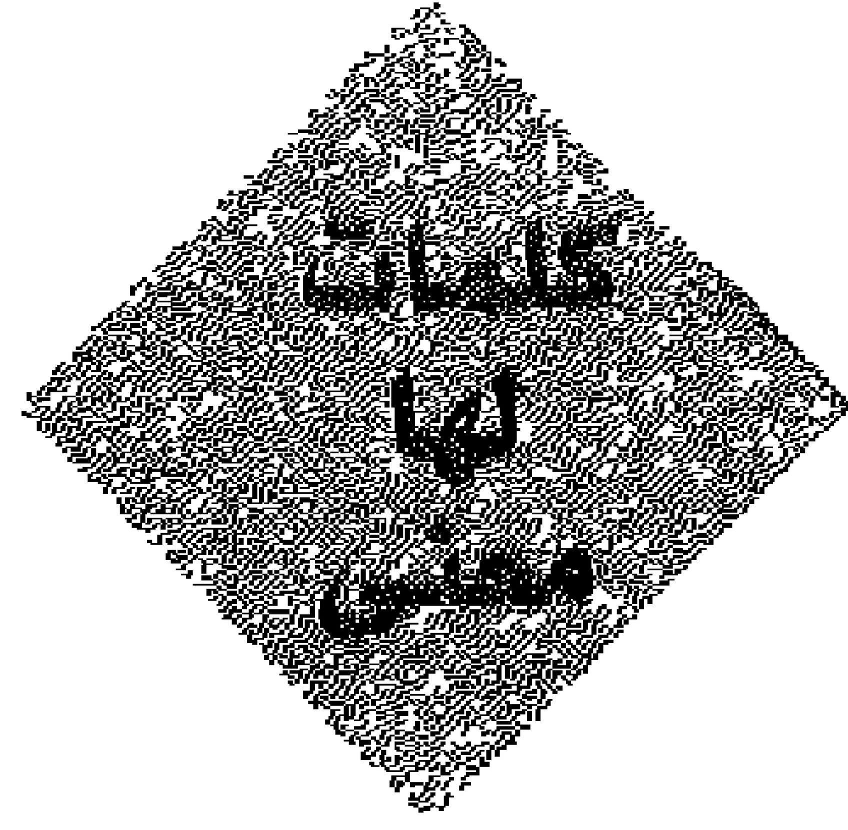
* العربي - العدد ٥١٠ - مايو ٢٠٠١م

جيب الجُبّ العاطفي الذي سقط فيه، والجبّ هو البئر ولا دخل له بالجيب إلا في الصدى الصوتي، أما ما ورد في الأثر عن شق الجيوب حزنا وانفعالا فإن المقصود بهذه الجيوب: الفتحات التي ندخل فيها رءوسنا ورقابنا كي نرتدي القمصان والجلابيب، ومن المؤكد أن الجيب الذي نقصده دون إدخال الرءوس والرقاب: يتنوع ويختلف من ملبس لآخر، ومن دولة لأخرى، وبين القوميات المتعددة في الوطن الواحد، إذ لا يزال مثلا الجيب السفلي الطويل في الجانب الأيمن من الجلباب دون الجانب الأيسر، وفي أعلى يمين الصدر سوف تجد جيبا صغيرا طوليا يصعب اختراقه إلا بأصابع صاحبه: جيب الساعة، ومع الساعة الدائرية المصنوعة كما هو معروف كي تنزلق في هذا الجيب العلوي: يمكن أن تضع بعض النقود، ومن الغريب أن الجيب السفلي كان يسمى «السيالة»، وقد حاولت العثور على هذه السيالة في المعاجم دون جدوى، غير أني لم ألبث أن وجدت كوبري أو قنطرة السيالة التي تربط مدينة القاهرة بحي الروضة والمنيل غرباً، والسيالة هنا تعني الانسياب في الحركة والتعامل، لذا فقد أصبح الجيب السفلي في الجلباب العربي: سيّالة.

وبالطبع: لن تستدرجنا علوم الهندسة لنثبت لكم أننا نعرف الكثير عن جيب الزاوية، لأن الأخطر من ذلك هو الجيوب الأنفية «انفاق الأنف» التي تلتهب احمرارا بتأثير أمراض البرد والانفلونزا، كما أنها هذه الجيوب الأنفية: أكثر الأعضاء الحية «حتى لو لم تكن عضواً كاملاً» تصادما مع الزوجة والجيران وضباط الشرطة واللصوص والمدرسين والملاكمين دون استبعاد ما يحدث بين الحين والآخر لجيوب أنوف المجالس النيابية: آخرها كان في تركيا فيما اعتقد، ثم أنوف الخراف «الكباش أفضل»، ثم الجيوب الأنفية لقردة الجيبون: أصغر القردة العليا الشبيهة بالإنسان، ذات جسم رشيق وذراعين طويلتين تمتدان بمجرد التصارع إلى جيوب الأنف، وما كدنا نقع ونحن نسير على حافة الجيوب على الجيبون حتى ظهر لنا ادوارد جيبون المؤرخ الإنجليزي ذو الطفولة السقيم، لم يدرس دراسة منظمة لكنه كان شديد النهم في القراءة، وقد قام بكتابة مجلدات أخطر ما ظهر في القرن الثامن عشر «قيام

الامبراطورية الرومانية وسـقوطها» في سـتة مجلدات، وحظي بالمجد دون اهتمام بشكل جيبون غير الوسيم والمثير للسخرية.

وقد وقـع الجيب في إشـكالية عصرية حينما ظل هـو الموروث منذ عصـور ما قبل التاريخ، في جميع أنواع تشـكيلات الملابس: حتى الآن، إلا أن السـيارة الجيب اقتحمت الجيوب العصرية لتستولى على اهتمام معـروف، مع أن اطلاق الجيـب عليها يرجع إلى مصممهـا الذي اهتم بنوع من السيارات القادر على اجتياب الصحاري، والمناطق الممتدة خارج الكثافة السـكانية، لكننا اسـتبعدنا «جيب» المصمم، أو «جيب» النموذج، لتصبح السـيارة لسهولتها خفيفة كأننا سوف نضعها في جيبنا، إن هذا مريح لنا على أية حال، لكنه قد يؤدي بنا إلى التعرض لكلمة «جب» وهي الاسـم المقدس للأرض عند قدمـاء المصريين وجب مصوغ داخل اللفظ اللاتينـي الحديـث «ايجبت»، وقد تخيلوها هـذه الأرض في هيئة رجل مسـتلق في غير اسـتواء، لاحظ أن ثمة تمثالا يخضع لهذه الصفات في أوربـا يطلقون عليه «النيل»، أما هاملتون جيب فهو مستشـرق إنجليزي وكان أسـتاذا للغة العربية بجامعة اكسـفورد البريطانيـة، كما أنه كان عضوا بمجمع اللغة العربية، وعلينا الآن أن نغلق الجيوب التي قد تنفتح دون أن ندري ويسيل منها ما عرفناه عنها.



● فـــي القرون الأخيـــرة بدأت الأرانب تتفاخر بآذانهـــا الطويلة، وهـي ترمق الخيول في تكبر.

● البلاد المرسـسـومة في كتب المدارس مثل الجهاز الهضمي الموجود في ذات الكتب: باردة لا روح فيها.

● عدد كبير من أهلنا يموتون في الصباح، إننا نتستر على موتهم ليلاً كي نمنحهم إشراقا أخيراً.

● جـــراب الحاوي يحوي عدداً مـــن أدوات الحيل والألاعيب التي تكاد كلها تتجه نحو السياسيين.

● لمـــاذا كانت جدران البيوت في القرى تصلح للاســتناد عليها للراحة دون حوائط المدن: مع أنها الأقوى والأنظف.

● لفـــظ واحد مؤكد يجمع بين التباحث «أي المباحثات» والمســاومات، إنه الحزن العميق.

البيت *

وطناً - يكون - وفؤاداً ومهداً طفولياً عذباً... ومعذباً

وحتـى الآن، وقد تجاوز عمري الألف عام - رعاك الله - مازلت أسـأل نفسـي: لماذا تفعل ذلك ؟، ومثال لهذا الذي أفعله وأسائل نفسـي عنه أنني - وبعد عناء - وجدت عملاً في أسوان (مشروع السد العالي)، وأخطر ما وفّره لي هذا العمل لم يكن - فقط - الأجر أو المأكل، بل كان هذا المهد الذي تحقق لي النوم عليه في حجرة مسـتقلة، أعرف أن المهد هو فراش أو سـرير الأطفال، ومَن قـال لك إنني لم أكن طفلاً قـد تجاوز - حينذاك - ربـع القرن الأول من حياتـه؟، ومع ذلك - أي بعـد تحقيق هذا الحلم: ظللت أرنو إلى قريتي البعيدة في بداية شـمال الصعيد وبينها وبين أسوان ما يقرب من سبعمائة كيلومتر، كانت (ديروط الشريف) مهدي وبيتي وملاذي ومأواي، وهي لغة شاعرية عاطفية بالغة الحنـوّ عن بيت خارج القرية لا أثر لسـرير فـي أثاثه (إنه أثاث مجازي وليس حقيقياً)، وجدران البيت تتسـاند لتصنع نوعاً من الرغبة العارمة في أن تتهالك متسـاقطة فوقي، كنت أنام على حصير وأتغطى بمفرش حتى أنني - إن أردت بعض الترف والراحة القصوى، كنت أنام على حافة البركة ذات الماء السـاكن - لم أقل الماء الآسن - الممزوج بالنقيق الجميل المقلق لضفادع قارة إفريقيا، وحتى عصر قريب ظلت هذه الأمنية حلمي الأكبـر أينما كنت وعلى أي فراش وثيـر أنام، وداخل أي منزل ضخم أو متسـع أعيش، وعندما قام صهري - خلال حركة الانفتاح التي اجتاحت

---

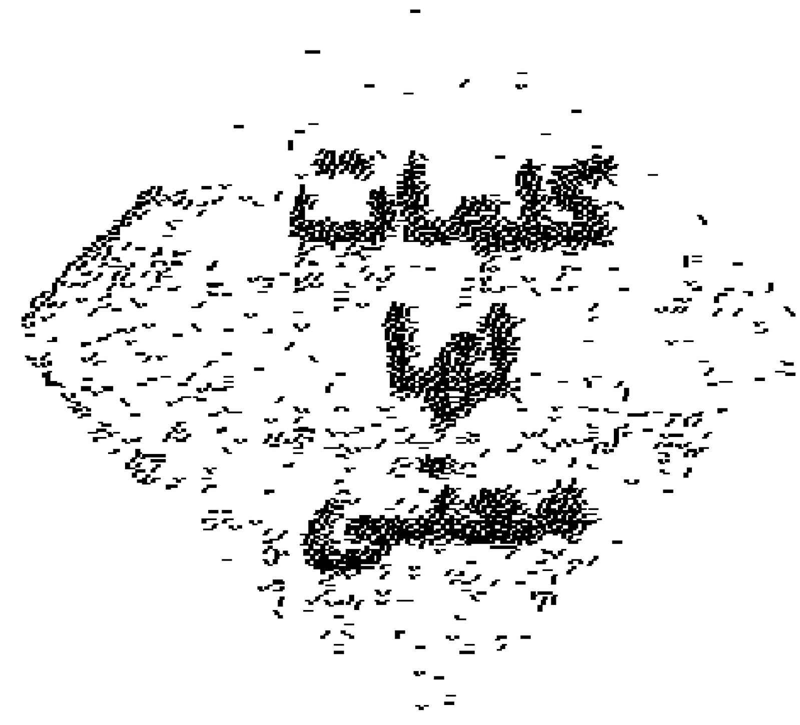
* العربي - العدد ٥٠٧ - فبراير ٢٠٠١م

المجتمع كله أخيراً - بتسوية (البيت) في البركة مع إزالة كل أنواع النخيل وأشجار السنط ليصبح شـــارعاً يحمل اسمي (رجاء الانتباه) تقوم عليه المنازل التي تبدو حديثة، لم أســـتطع أن أتشمم الهواء هناك مرة أخرى، فلم تعد البيوت بيوتاً: بل منازل، البيت هو الوطن الســـرمدي الدائم، أما المنزل فالإحســـاس بأنه مؤقت يصلح للنزول فيه فقط يظل ضاغطاً، ولو لم تغادر المنزل أبداً.

ولذا ســـما وشـــمخ إلى أعلى معنى البيت متجاوزاً الإحساس بالسكن والوطن إلى العنصر الإيماني ليكون بيت الله هو المســـجد، ثم عندما يرد مجرداً (البيت) فإنه يصبح علماً على الكعبة المشـــرّفة، وبعد ذلك تتوالى قدرات لفظ البيت منتشـــرة في رحاب الحيـــاة لتكون المرأة بيت الرجل، وعياله أيضاً، ثم استولى القبر - رعاك الله - على معنى آخر للبيت، ولم يلبث الشـــعر أن قام بتنظيم النثر وإقامة علاقات ذات وزن لغوي ليصبح له بيته الخاص، لكنك حين تجمع بيت الشعر فسيكون أبياتاً تاركاً البيوت للحياة، وتتســـلل الرغبات الإنسانية (لم أقل الحيوانية) ليصبح لها بيتها المســـتور (بيوت الليل)، أما نحن فلنا بيوت النهـــار بصفتنا نبدو أطهاراً ذوي نوايا حســـنة، من خيرة البيوتات فـــي المنطقة كلها، والبيوتات جمع الخلاصة يبدو فيهـــا التدليل والرفعة، تماماً كما يقفز جمع الرجل فوق الرجال ليصبح - إن ســـمحت له ظـــروف اللغة - رجالات، إنها خلاصة الفخر الأعظم سوف تجدها مبثوثة في علوم التاريخ الإنساني بين أنواع مـــن الأمم، ربما لم تحظ بأي نوع من الرجالات ذات عصر، وهي صيغة (أنثوية) نقوم نحن الســـادة الذكور بإعلائها علـــى هذا القياس - النادر - كي نحول دون صعود حريم البيت إلى ما قد يزلزل سطوتنا.

وفي لغات عدة - بما فيها من حضارات - سوف نجد أن مقطع (بيتا) اللغوي يعني الفطرة أو البدائية النقية أو المدخل الأساســـي، في المجتمع والأشعة والأدوية، ومع جهلي المطبق بهذه الشئون، فلايزال هذا الاستنتاج ناجماً عن وجود (بيتا) شـــائعة على الأفلام وآلات التســـجيل والتصوير ومصطلحات حديثـــة في علوم النفس والكيميـــاء والطبيعة، إلا أن بيت القصيد - أي ذلك البيت الذي يفترض أنه يتضمن خلاصة القصيدة أو الهدف النهائي من المشـــروعات والمؤامرات والقوانين والعقوبات ودروس

المدارس - سوف يظل عربياً خالصاً، حتى ولو شمل العالم كله في رواية الشـــاعر الهندي طاغور (البيت والعالـــم) والتي يرجع بعضنا قيام رواية (ميرامـــار) لنجيب محفوظ تأثراً بهـــا، دون أن نتخلى عن مصطلحاتنا الخاصة حول (بيت العز) الذي نطلقه على بيوت بدأنا فيها حياتنا - مع غض البصر عن لفظ العزّ، لأنها الوطن، والاحساس، ومأوى المبيت ليلاً احتماء من الأعاصير والمداهمات والقلق والخوف والتوجس، حتى لو كان هذا البيت العظيم الأثير الكامن في شـــغاف الروح هو ذاته مصدراً لكل ما يرهقنا ويقلقنا، ويجعلنا نمعن في الوجود، إنها متعة لا حدود لها.



● العداوة لاتزال مستعرة بين الشعر العربي الكلاسيكي، والشعر الحديث ثم الحداثي، مع أن النخيل لم يغضب حين ضمته مع النجيل قائمة النباتات.

● إياك أن تمد يدك مصافحًا أنثى دون الإمعان السريع في عينيها، وماذا عن النظارات؟

● قول الحق ولو على نفسك، بصوت عال مسموع وليس بينك وبين نفسك، شجاعة أخرى.

● لماذا لم تذهب للإدلاء بصوتك في الانتخابات؟ ولماذا أذهب؟ سؤال عربي خالص.

● أجمل ما في الجهل أن يقيك الوقوع في الاطلاع على الدستور.

● كثيرًا ما نضيق بالغيوم دون أن ندرك أنها تحمينا من صهد الشمس.

السحر*

أثناء إعدادي لهذه المادة، كاد عقلي يسوخ في عالم السحر دون عودة، تماثيل رابضة أمام الأبواب تحرس من بالداخل إلى الأبد، وتحيل المداهم إلى حجر، سطوح منقوشة بنصوص غامضة تشعل النار وتثير الأعاصير لتلتف حول من يقترب، أبقار في جنوب شرق آسيا تعبأ بأدعيات لتنطلق كالصواريخ أو كالطوربيدات لتدمير الهدف، ثعابين مرعبة تستجيب للموسيقى ولنصوص (التعزيم) لتستتيم تحت كف اليد عاجزة أو ساكنة وهذا أخف أنواع السحر وقد شاهدناه جميعا، واحد في المكسيك انتقم من زوجته الخائنة عن طريق إطلاق تمساح في أثرها مع أن القرية بعيدة عن كل الروافد والجداول والأنهار، وقد سعى الناس في أعقاب التمساح فلم يجدوا له أثرا. واحد في غابات إفريقيا الوسطى طارد أحد خصومه حتى أوقع به بجوار الشجرة التي يلوذ بها أحد السحرة فانفتحت طاقات في جذعها لتبتلع الخصم. قبائل البوشمن في إفريقيا أيضا تُجِل ساحرها لحد العبادة أعوذ بالله هذا الذي يشعل نار التبريك حول المواليد كي ينالوا الإذن بالحياة. في أستراليا ترقص القبائل في كهف مليء بالأبخرة والصياح والتهليل والحرارة الشديدة، والذي يمكنه أن يواصل ذلك حتى تهترىء ملابسه ثم تعود هذه الملابس فتظهر من جديد على نفس الجسد، يصبح سيداً عليهم. حالات سحرية متعددة وكثيرة في الشرق والغرب وفي السهول والوديان وفي الغابات

* العربي - العدد ٤٦٣ - يونيو ١٩٩٧م.

والصحارى، قام بحصرها أدباء ورحالة ومستشــرقون ومغرمون بحالات السـحر والشـعوذة، أي كل تلك المشــاهد والرؤى التي لايستطيع العقل البشري الاقتناع بها أو تفسيرها لغموضها واحتوائها على (ما دق وخفي) ومايفعله الإنسـان من حيـل وألاعيب (بما فيها من إخـراج الباطل في صـورة الحق) كما تصفه كتب الدين، أو كما جاء أيضا في حكايات ألف ليلـة وليلـة ومايوازيها من كتب حكايات التـراث عندنا وعند غيرنا في أنحاء العالم.

وقد ورد ذكر السـحر في القـرآن الكريم وخاصة في قصة موسـى وفرعون، في مشـهد السحرة الذين تحداهم سيدنا موسى، وكل الأديان السـماوية تسلم بالسـحر، وإن كان الإسـلام يصفه بأنه تخييل يخدع الأعين، وهو الشعوذة أيضا ﴿يخيل إليه من سحرهم أنها تسعى﴾ صدق الله العظيم، وهو السـحر من المعتقدات الشعبية من قديم، ويلازم العقل البدائي الذي كثيرا مايفسـر به الظواهر الجوية المسـتعصية مثل البرق والرعـد والمطـر وقوس قزح، ومـن المفروض أنه كلما تقـدم العقل في طبقات الإدراك العلمي، يتراجع السـحر بسطوته، وهو مايحدث بالفعل إن كان الأمر يتعلق بالشعوذة.

أما السـحر الخالص فلا يـزال منطقة مغلقة علـى كثير من العقول العلميـة المعاصرة، يرصد جيمـس فريزر في كتابـه (الغصن الذهبي) حـالات عديدة يبدو من حماسـه فـي صياغتها أنه مقتنـع تماماً بها، وهناك الساحر العصري الشهير: هوديني الذي أريك العلماء في عواصم عالمية عديدة، وهو الذي قال إنه كلما اتسـع المجال للروح وسلطانها فُتح للسـحر باب فسـيح، وقد كتب كثيرون من العرب المسلمين عن السحر ، ابن النديم في الفهرسـت، وابن خلدون في المقدمة، وغيرهما، كانوا قد أشاروا إلى أن هناك سحراً محموداً لايضر، وآخرين قدموا مايسيء إلى النـاس، لكن ذوي الإدراك العالي من الفقهاء والعلماء مالوا بشـكل عام إلى تركه. ولعل سـحر الثعابين هو الباقي الآن من ممارسـات السحرة التي يمكن لنا أن نشاهدها بسهولة، جميعنا رأى ذلك، حيث يتم للساحر السـيطرة على هذا النوع من الأفاعي ثـم اصطيادها، وكان يمارس في بلاد الشرق منذ عصور موغلة في القدم، سواء باعتباره وسيلة من وسائل

التسلية، أو طريقة لإبعاد الزواحف الخطيرة عن التجمعات البشرية، أو لإبراز القدرات الخارقة الباقية تحت سـطوة الإنســان، إن مشهد ثعبان الكوبرا الناشــر لحنجرته أو (درقته) كما يقــول أهل الصعيد في مصر متماوجاً بها تحت إيقاع الموســيقى في الهنــد بالذات تمهيدا لخضوعه تحت كف الســاحر، لايمكن إلا أن يهــز الوجدان ويثير في الفؤاد وجيفا وتوجسا وخوفاً ووجلاً، كما يمكن أيضا الهيمنة على الحية السامة والتي ليست في حجم الكوبرا بواسطة حركة إيقاعية تنبعث من جسم لامع أو عاكس كالمرآة، لكن الموسيقى ذات الإيقاعات المتسقة (أي الشرقية) تظل عنصــراً يصلح لكثير من الأفاعي حتــى تلك الثعابين الضخمة العاصرة فــي الغابات، المهم أن الأمر لايتعلق بالموســيقى أولا وأخيرا، بل بقدرات العازف الســاحر، والســاحرة أيضا، وهو مايتوارثونه عن أسلافهم في كثير من الأحيان، ولعل وجود رسم الحية الفرعونية على واجهات المقابر المصرية القديمة وفي تيجان الملوك وفي مســاند مقاعدهم يشــير إلى عالم السحر الموغل في أنواع الثعابين.



● هـــذه الفوضـــى الجميلة التي يتراقــص فيها القطــن خارجًا على اللوزة.

● الفرق بين وجع الدماغ ووجع القلب: توقف الأول عن الفهم، وتوقف الثاني عن الحب.

● هناك - على المدى - تتألق الجبال الشاهقة وتحت إبطها وأقدامها تتناثــر البيوت، لا تقترب أكثر حتى لا يتوقف نظرك عند حوائط البيوت فقط.

● الشكل الهندسي الجميل والدقيق لسنبلة القمح يحول بينها وبين أن تكون مجرد شكل هندسي يخلو من الخير.

● الــكلاب تهلك كثيرًا من قدراتها في النباح المجاني، الذئاب لا تفعل ذلك.

● بدأ الأسد يندثر خارج حدائق الحيوان لأنه فرحان بلقب الملك.

● البـؤس مثل الكلب، لو تعود عليك فلن يتــركك، انتظارًا لأن يربض مخلصًا فوق قبرك.

● سبب فشل مباحثات السلام أنها تقام حول موائد صنعت في الأصل للالتهام.

الشيطان *

اللّهم احمني من نفسـي - ومن النفوس الأخرى - خلال اختراق أحراش هذه السطور، ثم أثناء قراءتها أيضا، فأنا لا أقصد أن أكشف عمّا يدور في مجالات خطوط شيطان - هذا العصر القائم بالذات - وطاقات قدراتها الضاغطة الناعمة الشرسة الملتهبة الواضحة الغامضة، إنما أود أن أتراقص في الآفاق الواسعة حتى أرهق ثم ألوذ للنوم: طيبًا هادئًا.. وبريئا، محاولاً ألاّ أتذكر أن شر البليّة ما يضحك، إنه نوع من السلوان الذي ألجأ إليه بين شر.. وآخر، أعوذ بالله من الشيطان الرجيم، وفي كل مرة أتثاءب حتى لا أمعن في أمور قد تقودني إلى دوائر الضيق والاختناق، فأظل مبتسمًا تلك الابتسامة التي نسعى إليها ونحن نتسلل هروبًا من الملل، أو الديون، أو ممارسة الوشاية والنميمة، أو الإمعان في عيون أنثى جميلة تظل ابتسامتها أكثر رقة.. وخطرًا، حتى أن ذكاءنا العصري يظل يفتح كل خطوط دوائر التواصل المحتملة، دون الانتباه الكافي كي ننجو من تلك اللحظات الواخزة - بالغة المتعة - والتي بسببها نزل جدنا العظيم - آدم - مع قرينته جدتنا الجميلة حواء - من الجنة، فظل إبليس الغاوي المشكك، المثير للارتياب، والذي ينفث في دفء الرغبة: عدم الاطمئنان، يهوّم في صدري وجمجمتي، وكلما واجهته في ذكاء عنيف: أبى واستكبر، ويظل يضحك مثيرًا تلك الأمنيات الشرسة الملتهبة المقلقة، فيلفحني لهيب يحرك الحكايات والأقاصيص

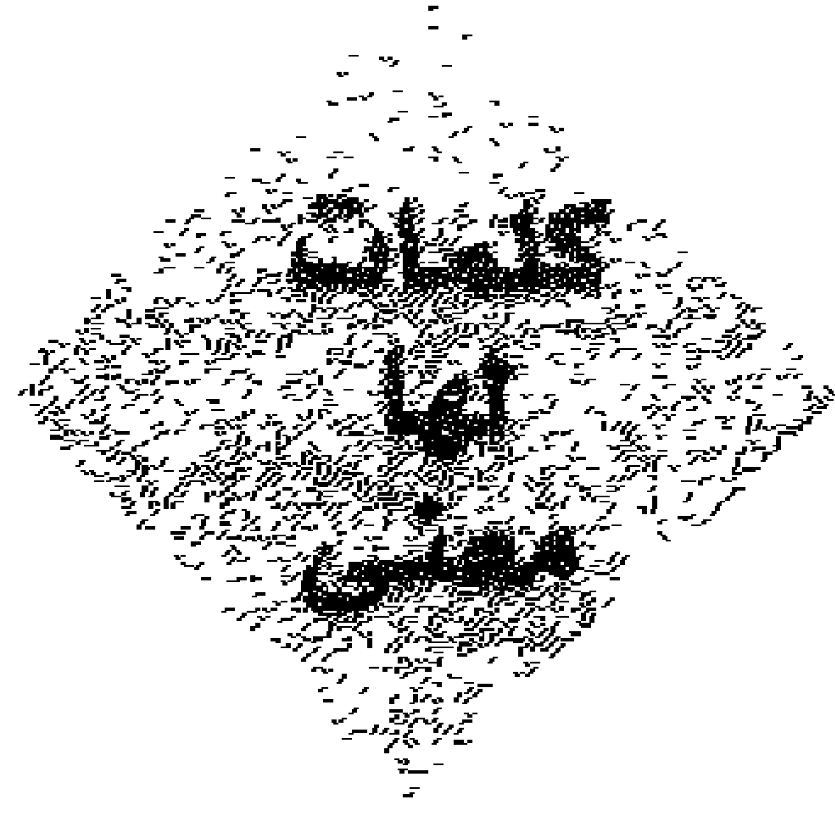
---

* العربي - العدد ٥٤٩ - أغسطس ٢٠٠٤

والمعارك والمواعظ، ليكتشف شهريار أن القصاص من زوجاته الخائنات مع عبيده يلزمه بأن يتزوج ظهيرة كل يوم عروسًا جميلة، ينهي حياتها.. مساء كل يوم أيضًا، وينام قرير العينين تحت سطوة متعة الانتقام، ثم تأتي شهرزاد، تلك الروائية الأديبة المبدعة الحكّاءة الهادئة، لتظل - في ابتسامة الأنثى التي نسعى إليها جميعًا - تحكي له تلك الحكايات والأقاصيص والمغامرات والمسلسلات ذات الحلقات الليلية المتوالية، حتى يدرك شهرزاد الصباح فتتوقف عن الكلام المباح، حيث يكون شهريار قد وصل إلى مرحلة التثاؤب تمهيدًا للدخول في عالم النوم ذي الأحلام الممتعة، وبعد أن تمسح شهرزاد على وجهه في حنان يتدفق بالموسيقى الهادئة العذبة، تتركه نائمًا، وتتوقف الحكايات كلها عند هذه اللحظات الإنسانية الفنيّة الدافئة، ونظل نحن - القراء أو المشاهدين أو المستمعين- في كل العصور ننتظر استكمال الحكاية في الليلة التالية، ويكون الشيطان قد استغرق في النوم أيضا، دون أن يدرك شهريار، أو شهرزاد، أو الشيطان، ما يجول في خاطر واحد مثلي، أكثر شيطانية من كل أنواع الشياطين، حين يكون الجواب الخاص بهذا القرار الموسيقي سؤالا لم يسأله أحد سواي: أين كانت تذهب شهرزاد بعد أن يستغرق شهريار في النوم، رجاء عدم الإجابة..!!

ولذا، فإن الشيطان استطاع بأنواع من الحيل والمناورات والأساليب الرقيقة الحالمة أن يتسلل أو يداهم أو يصادق الآمال والأمنيات الخاصة بي أو بكم، حيث تنجح عائلتي المتعددة الأفراد والبيوت في إخراج البنات من حقوق الميراث الشرعي بمنحهم مبالغ مالية هزيلة مقابل تنازلهم عن استحقاقاتهم - حتى لا يدخلوا في دوائر إرهاق المطالبة، في الوقت الذي يقوم فيه أينشتين - ذلك الرياضي العتيد - بالكشف عن الطاقة التي تنتج عن الكتلة المضروبة في مربع السرعة الضوء ليهتز أهلي - أقصد العالم الإنساني كله - أمام مشهد تدمير هيروشيما ونجازاكي، ويظل تاجر البندقية الشكسبيري - شيلوك - بسطوته الشريرة متراقصًا هامسًا بمعاهدته الشاعرية التي استولى بها على كل أجزاء روح بطل المسرحية، والواردة من تراث مسرحي وأدبي في العالم كله، قام فيها الشيطان بأداء أدوار أغرقتنا بالمتعة: قائد جيش من الأبالسة،

أو وحش قبيح جدًا، أو مهذب هامس يبث الفتنة والفوضى، نشاطه، بالدرجة الأولى نحن البشر، الذين نساعده حتى نواجه كوارث النهايات، وسلاحه الإغراء بالثراء وتحقيق رغبات الجسد والنفس، يتقافز في كل الجماعات البشرية لينتجوا الشوك والشر والغرور - في كتاب (الجحيم) من الكوميديا الإلهية لدانتي، وفي الساحر العجيب للإسباني القديم ديلا باركا، وفي الفردوس المفقود لجون ميلتون، وأحيانا يتخلى الشيطان - بعض الوقت - عن شراسته فيظل يبكي آلامه في الدكتور فاوست، ليتعدد بعد ذلك داخل إمكاناته وقدراته الشريرة، لنراه في مشاهد رقيقة تؤدي إلى جهنم في الأدوار التي قام بها ممثلون عرب مشاهير: فريد شوقي ومحمود المليجي ونجمة إبراهيم، مع توزيع بعض أدوار الشر الهزيل - أو الخفيف - على مسرح يوسف وهبي أو مسرحيات نعمان عاشور وسعد الدين وهبة، ليتناثر الشر في الأداء الفني الحالي إلى نوع من المكر الذي لا يثير الانتباه إلى الشيطان الكامن وراءه، مما أدى بالشيطان إلى أن يسعى - لاستهلاك قدراته الشريرة - في اختراق جوانح أصحاب القدرات القيادية الاحتفالية ليقوموا باختراق البلاد الصديقة المجاورة، دعك الآن من النموذج المروع، والذي أدى بنا - في السنوات المتوالية الأخيرة - إلى أن نفزع من النوم، ومن اليقظة، ومن الصداقة، حتى أن الشيطان العصري أجهد إجهادًا أدى به إلى أن يبحث عن مكان آخر ليستريح فيه، لاحظ أني كلما مررت بجوار مصرف - بنك - أو فتحت صفحة حوادث جريدة، أو استمعت إلى أغنية ذات موسيقى صاخبة، أبدأ أنا الآخر - كالشيطان المشار إليه - أسعى بحثًا عن مكان بعيد، في تلك الآفاق الممتدة الخاوية، كي أضع ذراعي تحت رأسي.. لأرتاح.. وأريح أيضًا.



● أود - مخلصًا - أن أمنح جائزة نوبل في الطب النفسي المعاصر لهذا الذي ابتكر الكلمات المتقاطعة التي تفشت في الصحافة الآن.

● أخطر ما يمكن أن يواجهك: أن تسلك طريقًا يؤدي بك إلى الحقيقة، فتعتورك - أو تعترض طريقك حقائق عديدة أخرى.. وتظل في الطريق.. تسلك فقط.

● الخرائط الجغرافية تظهر على شاشة التلفزيون في حالات الحروب والوقائع الدموية.. والنشرة الجوية فقط.

● لاتزال الألوان المتعددة للزهور تأخذ بريقها ونصاعتها وتشع بجمالها حينما تكون في موقعها الأصلي ذي الأوراق الخضراء.. وفور اقتطافها تفقد كل هذه العناصر، لكننا لا نريد أن نعلن ذلك.

العفر والعفريت *

فوجئت - عند ولوجي عالم العفاريت - بأن المعجم الوسيط الذي أصدره مجمع اللغة العربية بالقاهرة في عدة طبعات متوالية - توقف عند التعريف بالعفريت بأنه: الخبيث، والنافذ في الأمر مع دهاء، دون أن يربطه بالجان أو أي نوع من الجن، مع أن القرآن الكريم أعلنها بوضوح في سورة النمل ﴿قال عفريت من الجن أنا آتيك به﴾، وبالتالي فإن رعبي الممتد إلى بدايات الطفولة - حينما كان الذين يشرفون على تربيتي يستعينون بالعفريت كي لا أتجاوز حدود الزحف على الأرض خروجاً من البيت - يصبح ذا معنى ومغزى في التراث الإنساني كله. فالعفريت نوع من الجن وليس مجرد صفة للخبث محدودة المعنى، حتى لو استخدمناها نحن البشر صفة بعد ذلك كأن تقول عن صديق - أو خصم - ذي تفكير شرير: إنه شيطان، إلاّ أن العفريت - كعادته - ارتد بي إلى تلك الأيام التي كان يداهم ظلام ليلتي المطرة تحت الخُصّ - أي السقف القروي المصنوع من البوص والحطب - بساقه المسلوخة كي يرعبني مهما احتميت بصدر أمي، ومع استبعاد (أبو رجْل مسلوخة) حاليا لضرورة العودة إلى منطقة لغوية أكثر رحابة وأمانا، فإنني أود أن أعيد لفظ العفريت إلى نوع من المدّ أو الامتداد في فن الكلام جعلنا نهزّ عالم الجبر القسري إلى الجبروت: أي القهر الشرس، والملك إلى الملكوت الواسع ذي البراح الشامل لكل تكوينات الكون في

* العربي - العدد ٥٢٩ - ديسمبر ٢٠٠٢

الأرض والسـموات، وعالم رجل الدين الموروث قبل ظهور الإسلام - أي الكاهن - إلى الكهنوت، ولا ننسـى أن الصبر المركز يصبح الصبروت في لغتنـا غير المكتوبة، حيث لا أثر للصبروت في كتب اللغة وإن كان قد ورد في دفاتر سجل حصر أفراد المواليد.

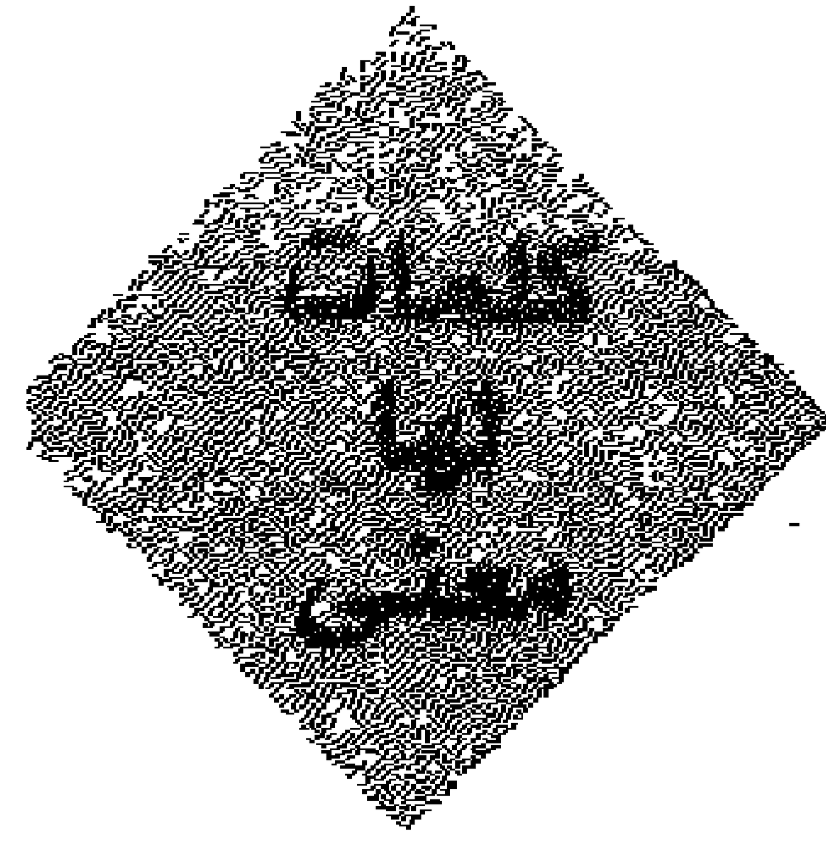
ولعلّ العفريت قبل أن أقع معه في مشـاكل عدة تكاد تكون قد شملت أحقـاب عمري كلـه - قد جاء أصلاً من العَفَـر: أي التراب ذي الكثافة الغبارية، وعفره عفراً - أي مرّغه في الأرض (ومن هذا المرغ أو التمريغ جاءت صفة الحمار المولع بهذا النشـاط خلافاً لمعظم الحيوانات ليصبح ابن المراغة - تذكر ما حدث من هجاء بين جرير والفرزدق، (مع استبعاد مدينـة المراغة بالصعيد المصري: أرجوك). لكـن العفر يمكن أن يصبح نوعاً من المقاومة التي لا يميل المثقفون إلى اسـتعمالها اعتقادا بأنها لغة العـوام، حيـث لا تجد أثراً في أي نص أدبي للمعافرة التي نسـتخدمها دائمـا في تصرفاتنـا اليومية: أي المحاولة الدءوب فـي تصميم وعناد، لكنك حين تعفر الزرع فإنك ترويه للمرة الأولى. كما أن العفر يعني أيضا من لم تطاوعه قدماه في السـير، فإذا ما أصاب اللفظ ظبيا فإنه يكون قد خالط بياضه حمرة داكنة فصار لونه كالعفر. لاحظ أنك لو كسـرت عين العفر فسوف يكون ذكر الخنزير، لكنك - إن ضممت العين - فإنك تعني: الغليظ الشجاع الشرير، ثم لا يلبث العفر ذو العين المضمومة - أن يختـرق الزمن، ليصبح البعد وطول العهد، بل وقلة الزيارة، يقال لمن جاء زائراً بعد غياب طويل: ما تأتينا إلاّ عن عُفر، ثم لا يلبث العفر أن يخترق في تكاسـل مواضع البيع والشـراء ليعني السوق الكاسـدة، أما العفراء - رعاك الله - فهي صفة للأرض البيضاء البكر التي لم توطأ، كما أنها تطلق على الليلة الثالثة عشرة من ليالي الشهر العربي كمقدمة لانتصاف الشهر وما يعنيه عندنا - نحن المسلمين - من إحساس بالطهر والنقاء.

وتحصل الشـعرات النابتات في وسـط الرأس من الإنسان على لفظ العفراة (بكسـر أو فتح العين)، فإذا ما تدخّل الأسـد بشـعر القفا في مؤخرة عنقه فسـوف يحس بكبرياء العفراة التـي لا يلبث الديك - من الدواجـن - أو أي ذكر آخر أن يجـد له نصيبا فيها إن ظهرت في عنقه الشـعيرات المشار إليها. وقد تذكرت ذلك حينما لاحظت أن بعض أفراد

من الجماعات البشـرية المتنقلـة - كالغجر والنَّوَر والحلب - يميلون إلى الاحتفاظ بخصلات شـعر ذات شراسـة في مؤخرة العنق، لا تظهر من تحـت غطاء الرأس إلا أثناء التصارع الودود - لأني لم أشـهد التصارع الدموي مع البشر والأسود.. رأيتها في الديوك فقط..!!

أما العفار فهو تلقيح النخل وإصلاحه، ولا أعرف إن كان ذلك ينسحب أيضا على أنواع أخرى من الأشـجار، لاسـيما أن ثمة شـجيرات نحيلة يطلـق عليها: العفـار، فإذا ما رغبنا في قليل من الإمعان فسـوف نجد راعـي الغنـم - والحيوانات الأخـرى كالأبقار دون الجامـوس - يقوم بتعفيرهـا: أي يخلط سـود الغنم والإبل بالبيض منهـا، فإذا ما أصاب العفـر أو التعفير امرأة فإنها تكون قد مسـحت ثديهـا بالتراب تنفيرا لطفلها وصـولا للفطام. وإن قمت - أنت - بممارسـة العفر أو التعفير للحم فإنـك تقصد تجفيفه على الرمل في الشـمس، والعصر الحديث لا يحـب أن يمارس ذلك بعـد قيام الآلات بالتعفير المناسـب لكل أنواع اللحوم في الأكياس والعلب - وفي الثلاجات أيضا.

وقبل أن أعافر في محاولات جادة كي أخرج من كل هذا العفار اللغوي - الجميل - حتى أسـتريح وأريح، فإنني أود أن أشـير - مخلصا - إلى أن ثمـة لفظـا جاء في اللغة يعني: النافذ في الأمـر مع دهاء مكير، إنه العفرِّين، رجاء تشديد الراء، حيث إن العفريت لا يميل إلى هذه التعقيدات وصولا للشّر، تاركا نون العفرِّين للشيطان.



● الكلاب الضالة تظل تخفي ذيولها بين أفخاذها جُبناً، وإبراز أنيابها شجاعة وشراسة.

● أخطـــر ما يمكن أن يتعرض له أديب مـــن أخطار: أن يرتحل داخل الكتب والمراجع فقط، الأرض تتسع وتنظر إليه في سخرية.

● قانون أينشتاين المروع: الطاقة تساوي الكتلة في مربع سرعة الضوء الصادر من عيون أنثى فاتنة.

● الحوائط ولدت علم الهندسة الذي أنجب علم الجبر، فلما استخدمت السياسة الجبر ألقت بنا وراء الحوائط والجدران.

● عندما يشرق القمر: تبتسم الجبال والصخور.

الرقص *

الرقص أقدم الفنون وأذكى العلوم وأعمق تفاعلات الجسد الحي مع الطبيعة

ا الرقص هو موجز تاريـخ بلاغة الحركة في الكائنات الحية التي يعلوها الإنسان، ابتداء من إشـاراتها الوضيعة البدائية المثيرة - إلى إيماءاتها السـامية المعبرة المتألقـة، والرقص أقدم من اللغة، وأذكى من التاريـخ، وأعنف من المكائد والأعاصير، وأكثـر دموية من الاجتياح الحربي، وأرق نعومة من ابتسامة الأم، وأصدق من أقوال الحكماء، وأشد جاذبية من الحق والعدل، والرقص هو الشعر في الحالة الحية المجسدة، ينمو في الموسـيقى وتنمو الموسـيقى على علاقات أجزائـه التي تتأود. هو الإشـعاع الغريزي لطاقة الغريزة، وإعادة صياغة لعلاقات الأعضاء بمـا يخرجها عن كونها مجرد أعضاء، أي لتصبح هذه الأعضاء عنصرا فاعلا مؤثرا في طقس الحياة والطبيعة.

وأجمل الراقصين - والراقصات- على الإطلاق- ذكر الحمام في حالة الهيام، وسالومي وهي تقدم للحاكم رأس يوحنا المعمدان، وتحية كاريوكا في (شباب امرأة)، وتاييس وهي تغوي راهب الإسكندرية، وفريدة فهمي في اسـتعراضات فرقة رضا، والشعوب استقبالا لذوي السلطان أو دفنا لهـم تحت التـراب، والجدة حينما تسـتقبل أول حفيد لهـا، وراقصات الباليه في أوج الاندماج التعبيـري، ورقصة زوربا اليوناني حينما وصله نبـأ وفاة ابنه في روايـة كازنتزاكي، وتراقص اللاعـب المحترف بالكرة أمام المرمى، والسياسـي حينما يفيض في وصف حكمة الزعيم، والقمر

* العربي - العدد ٤٠٥ - أغسطس ١٩٩٢م

في أثناء انسيابه بين شفائف السحب، والقرد تحت وقع رق وخيزرانة صاحبه، والموظف الساعي إلى قلب الرئيس، والكاتب المتراقص على سلم المقالات، وذكر النحل في آخر مراحل تواصله القاتل مع الملكة، ورقصة الثأر في المجتمعات البدائية أو التقليدية، ورقصة النار أيضا، وكذلك رقصة المطر، وغوازي- المتعة الحسية في الأفراح والموالد والخروج من السجن، أو في المجالس المنتشية للأثرياء والأعيان وأبناء الحظ، وكل هذا رقص يختلف عن الترقيص، فالرقص- في عمومه- استجابة داخلية قد تتوافق مع متطلبات خارجية أو لا تتوافق، أما الترقيص فيتم باستثارة خارجية، مثل ترقيص الخيل، وترقيص الحواجب، وترقيص الأعداء والمناوئين (أي تضييق الخناق عليهم حتى يتراقصوا وجلا)، وترقيص الكلاب- وباقي المتراقصين في حلبة السيرك، وترقيص المؤلفين على الإيقاع الجشع للناشرين، وترقيص المراكب في مواجهة الزوابع، وترقيص وزراء الداخلية السابقين في ساحة المذكرات السياسية.

أما كثير الرقص فهو الرقاص، وتجده في الساعة، والواشي بين صديقين، والزنبور تمهيدا لخراب عشه، والهامس في أذن السلطات، ومساعدي تجار المخدرات وبصاصيهم، وصبية المقاهي، وكتبة الشكاوي، وباعة الطبول والدفوف، والمشعوذين، والمتاجرين في الشعارات، وصناع أقواس النصر.

وكلها تبعد عن الرقص السامي الأصيل، والذي يظل هو التفاعل الحي بين الإنسان والجماعة، والجماعة والطبيعة، والطبيعة والجسد الحي مرة أخرى.



● تزوج وعش سعيدًا، تزوج فعل أمر، وعش سعيدًا فعل مضحك.

● لكي تتعلم كيف تؤكل الكتف، عليك أن تتمكن من أكل الجسد أولاً.

● يمكن أن نفهمها هكذا: خانت زوجها مع عشـــيقها، فلما تخلى عنها عشيقها، بدأت تخون عشيقها مع زوجها.

● هذا الكائن غير القادر على الاندهاش، اســمه في قاموس الحياة: الزوج الناجح.

● إن أهمية الحب الأول تكمن في قدرته الفائقة على أن يطل إطلالة عذبة بين جبال الكوليســترول، وعبوس الزوجـــة، وأحجار ضغط الدم، وأشواك آلام القولون، مرة أو مرتين في العمر.





الفصل الثالث

تأملات بعيون مندهشة

القلم*

قدرة العقل وطاقة القلب وكاتب التمائم والشعر وحيثيات الأحكام

القلم هبة إلهية، أداة الكتابة، وأقرب الأدوات - جميعاً - إلى قلب الإنسان، ويطلق أحيانا على سورة (ن) في القرآن الكريم: سورة القلم تكريماً له، كما جاء في أولى السور التي نزلت على النبي العظيم ﴿الذي علم بالقلم﴾، ومع صغر حجمه بالنسبة للفأس والسيف والمدفع وكبشة الطبيخ فإنه هو القادر على إضاءة المسافة بين السماء والأرض، وفي المقابل يمكنه أن يطفئ المصابيح أيضا، شرس قوي حزين ومراوغ، يختصر قدرة العقل وطاقة القلب في سنّه المدبب ليصنع الأعاجيب، وكلما تغذى جيدا وتشذب جيداً وشحن جيداً زادت رهافته وبصيرته وخطورته، وعندما تتقلب به الأمور يصيبه الاضطراب والوجل، ولذا فإن القلم يظل طوال حياته ينظر بنصف عين إلى السلطة: يداورها وتداوره حتى يغض أحدهما البصر عن الآخر، وهي- إلا فيما ندر- أكبر أعدائه بعد الجهل، والسلطة الذكية لا تقع في مأزق مع القلم، وأخطر ما يمكن أن يواجه القلم الأنواع الرديئة من الورق، واليد التي استغرقها عدّ النقود، والحقد، والأصابع التي أجادت فتل حبال المشانق، والجوع الشديد، والكتابة دون اقتناع، والرائحة النتنة، والتدليس والتزوير، وجفاف العقل، وقصائد الشعر السّاذج.

ولغرام السلطات به استعارته عنواناً لأخطر إداراتها: قلم المباحث وقلم الشكاوى وقلم المخابرات، ثم هناك- ولا يزال- قلم المحضرين

(* العربي - العدد ٤٠٩ - ديسمبر ١٩٩٢م)

الذيــن يتولون إبلاغ وتنفيذ الأحــكام، لكن الذي يحط من شــأن القلم إدمانه كتابة التقارير، والشكاوى الكيدية، ونصوص الأدب فاقدة التألق، والتأشــيرات الرقابية، وإنصاته أكثر مما يجــب لما يحدث في الفراش، ونكوصــه عن قول الحق، وســكوته عن مواجهة الباطــل، وكتابة التمائم والأحجبة، والصكوك تحت الإذعان، ورسم حواجب الأنثى ورموشها.

والقلــم هــو الأداة الوحيــدة التي تعيــش عمرها محاطــة بهالة من الإشــارات الخفية المنذرة، ليس من الســلطة- بأنواعها- فقط، بل ومن الأخــلاق، والمتواضعات الاجتماعية، والتناقضات الوطنية، وأكل العيش، والأصدقاء، والعلاقات الخاصة، والتاريخ المستقر، والتصادم مع الأقلام الأخــرى، وكثيرا مــا يفقد القلم قدرته على اســتقبال هذه الإشــارات المنذرة فيداهمه الصراخ والنحيب والانفعال والافتعال تمهيداً لأن يصبح شهيداً.

والقلم يفوق المحراث في عمق الخطوط، والصاروخ في اختراق الأجواء العليــا، والدرر في الاســتيلاء علــى قلوب من لهن قلوب، واللســان في النفــاق، ومبضع الجراح في التمزيق، والورد في أريجه، كما أن ضجيجه أعلى من أصوات الآلات الموســيقية في الألحان المعاصرة، وأكثر صخباً من أفراح الرعــاع، لكن أكثر الأقلام المعاصرة صفاء: أحمد بهاء الدين، وحزنا إنشــائيا غامراً: المنفلوطي، وجسارة تتجاوز الحمق: زكي مبارك، وسخرية: المازني ومحمد عفيفي، وطزاجة حامية: يوسف إدريس وزكريا تامر، وســعادة: كل كتاب صفحات التسالي، وعمقا: عبد الرحمن بدوي وزكي نجيب محمود، واتســاع أفق: حيثيات الأحكام القضائية، وشراهة: نقاد الأدب، وتألقا: مصطفى أمين وبعض أفراد مدرسة التابعي، وأجمل قلم تزوج من ريشــة هو الذي أثمر صلاح جاهين، وهناك آخرون تحول بينــي وبين منحهم بعض الحق: المنافســة، أو الصداقة، أو ســوء الفهم، وهي الأمور التي تحاصر قلمي وتشله عن عمله في بعض الأحيان وتجعل إيقاعه بطيئا كإيقاع أقلام الوشم على الجلد.



● الأمم المتحررة حديثًا كالمرأة التي تزعم لكل رجل يسيطر عليها أنه الوحيد والأهم في حياتها، بغض النظر عن التاريخ الذي يتعلق بأذيالها كالعيال.

● أقصى ما يطلبه منك الفندق تكاليف إقامتك، البيت يطلب تكاليف إقامتك وإقامتهم.

● نجا الحيوان من أخطر ما عذب الإنسان: قول الحكمة، وبصمات الأصابع.

● الحياة مسرح كبير، لكنه ليس أكبر من الصالة التي تعج بالمتفرجين.

● وجدتها بخطي في خطاب إليها: كل شيء حولي كان يساعدني على أن أصبح لصًا، غير أن الظروف ساءت فأصبحت كاتبًا.



السِّيما - بالنون أو بدونها*

لم تكن أضراسي قد اكتملت حينما سمعت كلمة سينما، جاءت ممتدة السين إلى الميم طاردة النون خارج الكلمة: سيما، تسللت هامسة ناعمة مرعبة من إقليم (ملوي) المجاور، وعندما كانت تتلوى بين الأفواه والآذان محملة بالقبلات والمبارزة والاختلاء وراء الأشجار أسرعت القرية كلها: ناظرها وعمدتها وإمامها وآباؤها فوضعوا لفظ (السيما) في المعجم المحرم بجوار الخمر وبيوت الغوازي والسرقة وشيطانة الهويس والخبص، وتحت وقعها قام جار مهيب بربط ابنه الكبير في جذع نخلة وانهال عليه بالهراوة حتى أنقذه على آخر نفس ذوو القلوب الرحيمة والشجاعة، وفقد آخر ماعزا فاتهم قريبا له سمع أنه ذهب إلى السيما، وبدأت سينما ملوي ترسل إعلاناتها إلى حوائطنا: أفيش ضخم فيه رأس رجل يمعن في رأس امرأة بالألوان، سينما هرموبوليس تدعوكم لرؤية هذا الفيلم الفاتن، تلازم ذلك مع قدرتي الفائقة على فك الخط والإمعان المبتهج في سطور الجرائد، والاستمتاع بحفلات الزار وضجيج إخراج العفاريت الساكنة أجساد الأقارب، وسرقة مياه الري ليلا من خلف ظهر الحكومة - كنت مع أبي.

وتضخمت دماغي وأصابها هوس السيما، وقررت أن أشاهدها، أن أسافر إليها كي أراها بالعين المجردة.

بدأت التحضير للسفر مسافة تصل تكلفتها إلى خمسة قروش في

* العربي - العدد ٤٣٩ - يونيو ١٩٩٥م

وقت كان أجر الخفير سبعة قروش يوميا، وخلال ذلك تم البحث عن رفيق مأمون يكون بيتهم بعيدا عن بيوتنا (كي لا يشي بي عند أبي إن تخاصمنا)، استمر دأبي لجمع تكاليف السفر ذهابا وإيابا مع ثمن تذكرة الدخول، (قد يمصمص. أبناء البندر أفواههم - ومنهم مسئولون عن تحرير هذه المجلة - مندهشين بسبب سطوري الفقيرة المرهقة التي قد تتوقف تماما إن لم أستطع جمع خمسة عشر قرشا - مع إضافة قروش قليلة للطعام الضروري).

غير أن كل ذلك توقف، فقد اجتاحت قريتنا سيارة ذات ميكروفون تنبئ الجميع بأن الليلة سوف تشاهدون - يا أهل ديروط الشريف الكرام - السينما في السويقة، والسويقة هي سرة بلدنا، ساحة واسعة تفضي إليها عدة شوارع وحارات، وتكون مركزا لبيع نبات البرسيم والجراوة (أوراق الذرة الخضراء) عصر كل يوم، تقام فيها مراجيح الأعياد، وقد يشغل أطرافها باعة لحم الرأس والمصارين وجزارو اللحم الوقيع، ومع عدم قدرتي على تصور شكل السينما التي ستأتي في السويقة، فإنني أحسست براحة قصوى، فقد كنت قد فشلت في الحصول على أي نقود أسعى بها إليها، كما أن ملوي استمرت مدينة منافسة لبلدنا لا أكن لها حبا.

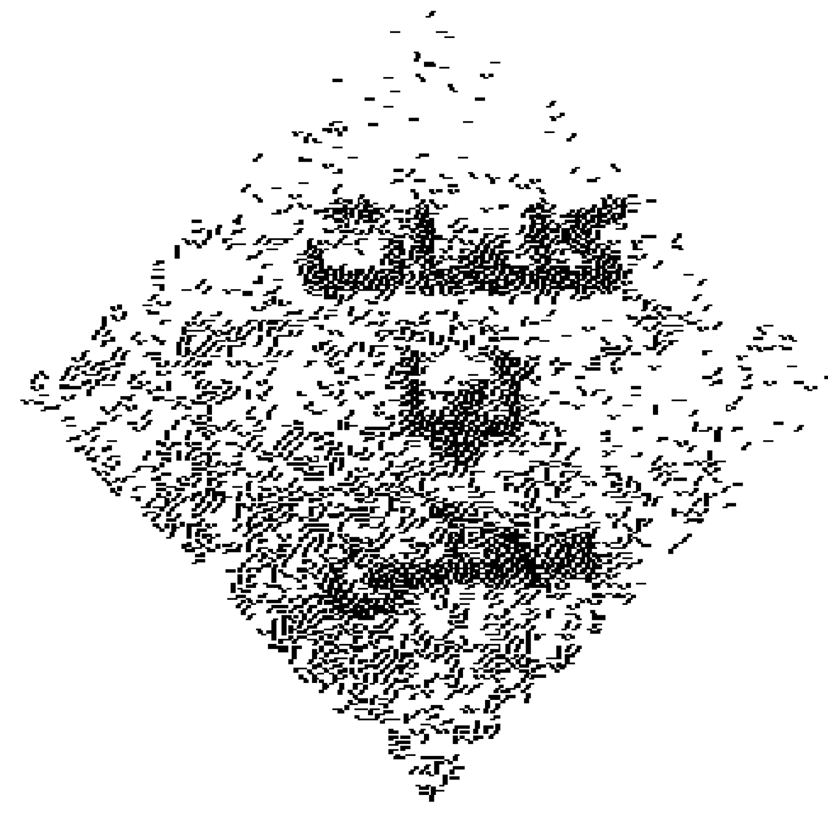
قبل وأثناء وبعد المغرب: اجتاحت الجماهير السويقة، كان ثمة سيارة نقل ذات موتور شغال قد خرجت منها أسلاك في آلة تبعث نورا مروعا، وهناك - في الطرف الآخر من السويقة شاشة ضخمة، والجماهير الغفيرة - العيال والرجال النساء - نعم النساء أيضا - الجميع جلس القرفصاء تحت أثر خيزرانة خفراء العمدة، تمددت الأطراف ليقف على حافتها المئات المبهورون وكان أول مشهد - لا أنساه - أن هذا النور يصبح شكلا على الشاشة لضابط يقود سيارة جيب وبجواره واحدة تغني بصوت أخاذ، هي تقول له إنها تخاصمه، وبدلال فائق، فيرد عليها بخشونة فيها دعابة فائقة: إنه يحبها أثناء الخصام أيضا (عرفت بعد ذلك بفترة أنها ليلى مراد وأنور وجدي في فيلم ليلى بنت الفقراء)..

كانت المناظر ترى مدهشة تفتح العقل وتصب فيه خيالات مجنونة، أن فكرة امرأة تنزوي في أحضان رجل - وأمام كل الناس، وان يتلمس

بأصابعـه ذقنها ليرفـع وجهها إليـه - اليه جدا، وهـي تتحرف تحت ابطه، وتغني، راضية وغاضبـة في نفس الوقت، إنما هو الجحيم، حتى لو كانت السـينما بعد ذلك بنصف سـاعة قامت بتشـغيل مشاهد عن محاربة البلهاريسيا، وكان الصوت الفج يطلب من الناس عدم نزول الترع ومجاري الأنهار، كان واضحا أن السينما خاصة بالإرشاد الصحي، الذي يسـتقطب الجماهير اليـه لتوعيتها، لكن المناظـر دون ليلى مراد وأنور وجدي ظلت فجة غير مستساغة، وسرت في الناس رغبة في الانصراف، فجـاء الخبر المهم: فيلم ثان، وبعد أن أضاءوا النور وأوقفوا آلة العرض، عادت خيزرانة الخفـراء تضرب الأطراف الواقفة من الجماهير، هناك فيلم ثان.

كان الفيلـم الثاني يحكي عـن رجل يرتدي قميصـا وبنطلونا ويحب واحـدة في الصحراء ترتدي ملابس البـدو، وكان الرجل يطارد حبيبته وسط مرابط خيام القبيلة، ويمكنه أن يختار في أي لحظة أي رداء يريد: بدلة أو الملابس البدوية بما فيها العقال، وكان يجيد الضرب بالسـيف، شـجاعا قويا فاهما، عندما جذب البدوية اليه في عنف قوي على جذع شـجرة أو نخلة اندفعت زغرودة قوية جادة من وسـط سويقة العرض، وانطلقت بعدها ضحـكات ثم زغاريد، وانتابت الناس رغبة في المهاترة، وتشـاجر واحد جالس مع واحد واقف دون سبب، وصفعت بنت صغيرة امرأة وأمسـكت في ملابسـها بطريقة صارخة شرسـة، وعاد الخفراء ينبهون القوم بمراعاة النظـام، لكن الرجل الأفندي البدوي داهم رابحة مرة أخرى وحط الصمت - إزاء المشـهد - على الجميع، فإذا بالشاشـة البيضـاء العريضة تأخذ رابحة وبدر لاما أو أخاه أو أحد أقاربه وتهتز في الريح - هذه الشاشة - ثم تسقط على التراب.

ويـدأت الخيزرانات تأمر الجميع بأن ينفضـوا ويعودوا إلى منازلهم. وظللنا سـنوات نحكي عما شـاهدناه ليلتها، بمتعـة فائقة وذاكرة قوية، ونحن نخوض مياه الترع أو على الشـواطئ، حتى نجحت بلدنا في إنشاء سينما قرشي لترجح كفتها إزاء ملوي.



كالعــادة، اتفــق الجميع على أنها دار الخيالة، وعند الكتابة ســموها : سينما.

● الفرق بين الســينما والمســرح أن المســرح وجد له مكانًا في الوزن: مفعل، وظلت السينما تتأبى على الوزن.

● الســينما رضعت فن التمثيل من المســرح، والفيديو يرضع الكوارث من السينما.

● لقد اســتطاعت الســينما أن تنهى عن الجرائم بشــكل فذ حتى أن عددها زاد أضعافًا في السنوات التالية.

● السينما فن الممكن حتى ولو استحال تصوره بعد ذلك.

● حتى في عز شيوعية الأقطار الاشتراكية: درجة موقعك في السينما تحدده إمكاناتك المادية.

السموم *
بين علوم الصيدلة والطب والانتقام، وفحيح الثعابين في السياسة والأدب

لا تتوجس، فلن أدس لك شيئاً حتى تنتهي على الأقل من قراءة هذا الموضوع، مع أن ما تعرفه أنت عن السموم يربو أضعافاً عما يعرفه غيرك، وعما ورد في الكتب أيضاً، إنك يا صديقي مجمع نموذجي يحتوي على عدد مذهل من أنواعها: في المعدة والمخ والأمعاء والكلام والنظر والشرايين والأظفار وأهداب العيون والأنفاس ومسام الجلد والابتسامة الجذابة بالغة النقاء والصفاء والروعة.

والسم هو العامل الذي يحدث بتأثيره الكيميائي أو العضوي ضرراً قد يكون مميتاً إذا تسلل إلى الجسم أو دون تسلل، أي في تركيباته المعدنية مثل أحماض الأيدروكلوريك أو النيتريك أو الكبريتيك (زيت الزاج) أو الزرنيخ ومركبات الانتيمون والرصاص والزئبق (السليماني) وسلسلة عديدة أخرى نغلقها بمركب السيانيد (أو السيانور)، والذي ترى أثره في قصص انتحار عملاء المخابرات والتجسس وكبار القادة في ظروف الانهيار النفسي الشديد بعد الهزيمة المروعة، الجملة الأخيرة تلتقي بما يدور في ذهنك عن نهايات أدولف هتلر أو عبدالحكيم عامر وآخرين سوف يضيق بهم سرادق الاحتفاء الوقتي خلال هذه السطور.

ثم هناك السموم الأكثر انتشاراً، وهي التي تقوم بتركيبها الطبيعة، وقد يتدخل الإنسان في تهذيبها أو إعدادها بشكل إنساني لائق، إنها السموم العضوية في نبات الداتورة وزهوره بيضاء أو أرجوانية، والسكران: شائع

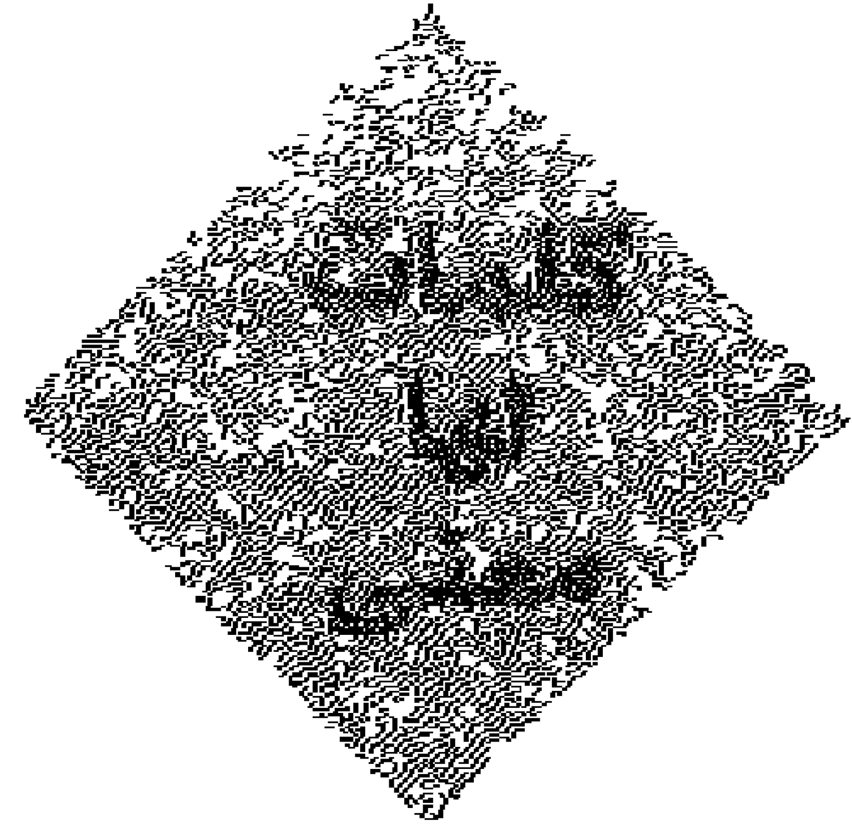
* العربي - العدد ٤٩٥ - فبراير ٢٠٠٠م

ومنتشـــر في جنوب مصر بزهوره الجميلة الصفراء، ونبات ست الحسن ذو الزهـــور الأرجوانية الداكنة، وكلها تحتوي على مـــادة الأتروبين التي تدس في أغلب حالات التســـمم مخلوطة بالعجـــوة أو الحلوى أو القهوة أو الشـــاي الثقيل، ثم هناك ســـموم التبغ أي النيكوتين، والتي تتسلل إلى الجســـم كما تعرف بكل أنواع التدخين (أو بالمضغ وهي عادة تكاد تندثر الآن)، حيث يقوم الجســـم بحرق معظم النيكوتـين الممتص ولا يبقى إلا جزء يتوزع على ســـوائل الجســـد المختلفة، وتبدأ خطورته الســـمية عند ارتفاع نسبة التركيز في هذه السوائل بالتدخين المركز أو انخفاض قدرة أجهزة الجسد على استهلاكها أو التخلص منها، وتتصاعد قائمة السموم العضوية لتشـــمل الكوكايين والأفيون (والمســـتخرج من نبات الخشخاش ذي الشكل الجميل المتألق)، والمورفين، والحشيش (وله أشكال ومسميات عديدة تطلق على مستخرجات منه مثل البانجو).

ثم الســـموم التي تتسرب إلى الذوق من المشـــاهد العارية في الكتب والأفـــلام، ونظرات العيون البريئة تمهيدا لموقـــف مدهش ومثير للحرج إذا ما كان أفراد أســـرتك يشـــاركونك المشـــاهدة، ومقالات نقاد الأدب حـــين يفتعلون رؤى لا يتحملهـــا النص الأدبي الهزيـــل، والأيديولوجيات الخاويـــة التي تختفي نشـــطة مركزة في زبان العقـــرب (صحتها اللغوية زباني العقرب)، والنظرة الحاقدة من حاســـد إذا حســـد، والتماع عيون الكلاب داخل كياننا الإنساني حين نسعى خلف أنثى، ودفقة فحيح ثعبان الحداثة الأدبية في خرائب أشـــعار وقصص متهالكة، وما تفرزه بكتيريا مستنقعات الوخم والكسل والتناوم تحت ظل عدم الحاجة إلى العمل، وما تنفثه ألســـنة من لا علم لهم حين يجدون أنفســـهم في مواقع أهل العلم، وبحيرات الســـم المنقوع في المجتمع الحديث طردا للآياء من المأوى إلى بير الســـلم، والرذاذ المتبخر في أجواء النميمة والوشاية ضد أناس قد لا تكـــون لهم فرصة الدفاع عن أنفســـهم، أو الاحتماء منها، وحركة النقود على مائدة الميســـر ذهاباً وإيابـــاً ودوراناً ملتمعا بالـــغ الدناءة في عيون الكاســـب أو الخاسر، وتحريك الأذهان بعيدا عن زوايا مداهمة الخطر، وجراح المحبين حينما يســـتعصي عليهم السلوان صبرا أو عجزاً، وبؤس امرأة تفقد الطريق إلى تراحم أبنائها، والبيانات أو التصريحات الرسمية

التي تصوغ الوقائع عسـفاً لمصلحتهـا دون اهتمام بأن الأمة كلها تعرف الحقائـق الواضحة، وتفسـير حوادث التاريخ لحسـاب أفراد أو أنظمة تهيمن على كتب التاريخ، وأعشاب النفاق الخضراء الجميلة التي لا تلبث أن تنمو أشجاراً يزحف على أغصانها دود كلاب السنط، وزعيق حناجر المغنين والمغنيات يتراقصون في التواء حول جثمان الفضيلة المخدرة على المسـارح المتلألئة، وحصـار المقاعد المذهبة ذات الهيـاكل براقة الطلاء لتحول بين الجسد ومتعة الاسترخاء الفطري المفتقد، وإهمال مصححي صفحات الجرائد والمجلات للعناوين الغليظة وقد وقع الفاعل في حفرة النصب والمفعول به في سماء الرفع والحال في ضائقة الضم.

فإذا أضفنا إلى ذلك هذا الوجه المبتسـم الجميل، الذي يبدي إعجابه بك في حرج ودلال، ليهمس: يا سِمّ، فإن السم هناك يخرج عن دائرة ما نسـعى إليه، ويصبح للمعنى أمر آخر يتسـامى بنا إلى دوائر من التعبير المجازي الذي يشـع سـعادة بعيدا عن علوم السـموم والطب الشـرعي والسياسي.. والأخلاقي أيضاً.



● نعم: الجمال يشــع من داخل النفس، لكنه كثيرًا ما يحتاج إلى مثير خارجي.

● لا تقــف كثيــرًا أمام اللوحــة الفنية، لا تمعن النظــر طويلا، حتى لا تتشابك عيونك مع أثر النسيج دون الألوان.

● أي كلب يمكنه أن يوقظ مدينة في ساعة واحدة، المصلح يحتاج إلى ثلاثين عامًا.

● هذه الحكمة الرائعة التي يدير بها القادة والسياسيون أمورنا، دعك الآن من المقارنة بأمورهم الخاصة.

● أجمل ما في الأحيــاء أنهم أتاحوا للأموات موقعًا للاختلاء الهادئ بعيدًا عنهم.

● فعــلاً: الضفادع لا تســتطيع صعود الجبــال، وكأن الجمال يمكنها السير في المستنقعات.

● صمم المولدون أن يســحبونا من بطون أمهاتنا من رءوســنا، ومازلنا نحتج خبطا بالأقدام الحرة على الأرض.

الطبّ.. والتطبيب *

منذ وارى قابيل جثمان شقيقه هابيل، في أول حالة اغتيال في تاريخ البشر، ظهرت بواكير الطب، فمن المؤكد أن القاتل فور اندفاع نار الندم في أعصابه ظل يأمل أن تعود لشقيقه أنفاس الحياة، أو أن يستمر الجثمان سليما دون أن تتلفه عوامل العطب، وهو ما أدى في الأحقاب المرهقة التالية إلى قيام الطب على الإسعاف السريع، ثم فنون التحنيط التي ارتبطت بقدماء المصريين، وخلال ذلك كان الطب دون أي كلية أو معهد أو دراسات سوى الخبرة قد تفرع إلى اجتهادات مذهلة في تجبير العظام، ومعالجة كسور الجمجمة، وتلبيط العيون الرامدة بالمساحيق، وقد عوملت أنا من هذا المنطلق علاجاً لعيني اليمنى التي أصابها حسد المنافسين لي حين كنت أول الناجحين، «وقد ضاعت عيني هذه تحت وقع الجهل، أما عيني اليسرى فهي في طريقها للضياع الآن تحت وقع الثقافة»، وكان علاج العيون بمسحوق الشليشم المكون من نيترات الرصاص والنحاس فيما اعتقد يطلقون عليه آنذاك: التلبيط، وقد اندثر ذلك بعد اكتشاف القنبلة الذرية والصواريخ الفضائية بانتشار قطرة العيون بأنواعها المتعددة دون أن تدرى أمي بذلك حتى الآن، حيث لا يزال الطب في جميع المجتمعات حتى التي تبدو على قمة التطور العصري في الغرب الأوربي والأمريكي: مرتبطاً بالسحر والدجل والخرافات والابتكارات الفردية، مع أن هذا العلم تفرع إلى أنواع من الطب استقل كل نوع عن غيره: طب العيون أو الجلد أو الأذن أو القلب أو الأسنان أو المخ أو الأعصاب، ثم هناك الطب النفسي أو الاخصاب ومعالجة العقم

* العربي - العدد ٥١٥ - أكتوبر ٢٠٠١م

والبيطري «الخاص بالحيوانات»، أما الطب العقلي فقد أصبح موضوعه تشخيص الاضطرابـات العقليـة وعلاجها ليتواصل مع الطب النفسـي «وكلاهما مع ذلك مستقل»، ثم الطب الشرعي الذي يجمع اجتهادات وإنجازات كل أنواع علوم الطب السابقة لتطبيقها على مشكلات القانون والقضاء كإثبات البنوة وحالات العته أي الجنـون «من أجل التمهيد لتعيـين أوصياء في أغلب الحالات» والموت الناجم عن عوامل العنف وصولا إلى حقوق قد يكون من بينها التعويضات للورثة والأقارب.

إلا أن أختـي الكبرى كانت تحملنـي فوق أكتافها صبياً أكبـر من كوني طفلا لتذهب بي إلى شيخ اشتهر في ذاك العصر بقدرته الفائقة على إسباغ الشفاء في أجسـادنا الكليلة، وكانت خلال المشوار المرهق بين المزارع التي تفصل قريتنا عن مقر الشيخ المعالج تضطر إلى أن تستريح في ظلال المستشفى الكبير دون اهتمام بما يقوم به هذا المستشفى «لاحظ أني لم أرغب في تأنيث المستشفى»، وكان باعة الحناء وسـفوف الشـفاء من دود البطن، والذين يعالجون وجع الدماغ أي ارتفاع ضغط الدم بالحجامة، وخالعو الأسنان، وأخصائيو تجبير العظام، وناقشو الوشم، ومرممو فقرات العنق، ومانحو العرسان الجدد حبوب التزود بالثقة ليلة الزفاف، ومدخلـو العويل في الأذن التي تعاني من الصفير المزمن، وتسـليك انغلاق الأنف والبلعوم بالسـوائل الطيارة ذات الرائحة النفاذة، والقادرون على صياغة التمائم والأحجبة لفك أسـر الرغبات الشـاحبة أو تنشـيطها، كل هؤلاء يجوبون القرى ليقطعوا الطريق بين أهلي والأطباء الذين انتشـروا في عصر جمال عبدالناصر أي في مصر يعالجون الناس مجاناً: علاجاً جاداً وصادقاً، دعني أشرح لك بعض ما جاء في هذه السطور من ألفاظ أو تعبيرات لم يجربها أو يسمع بها كثيرون من الأجيال الجديدة: السفوف: أنواع من المساحيق ذات الأصول المعدنية أو النباتية، الحجامة: كوب فارغ يتم تسـخينه بحرارة شـديدة ثم توضع مقلوبة على منطقة يتم تجريحهـا في جلد الرأس، وتظل مضغوطة على الجـروح حتى تبرد جدرانٍ الكـوب فيتقلص الهواء فيها ليسـحب ما يراه القائمون بالحجامة: دماً فاسـداً، ونقش الوشم تجريح في الجلد بالوخز والتلوين، وقد مارسته الجماعات الإنسانية منـذ العصور القديمة لأغراض ترتبط بالمقدسـات وطقـوس الترقب منها، وقد يقترن بالحجامة أو التشـريط تعبير الحزن على مفقود أو طلب الحماية من عين الحسـود، أو لإبراز امتياز خاص بالفرد أو الجماعة التي ينتمي إليها، ومن المهم أن نشـير إلى أن الوشـم والكي بالنار وهو غير الحجامة استعمل من زمن طويل،

ولا يزال معمولاً به علامة على المجرمين أو المسجونين أو الأسرى من الأعداء تحقيراً لهم، لكن الوشم بدأ يضمحل الآن، بل وقد اندثر في كثير من المجتمعات المعاصرة.

ومن السهل أن نتذكر أول طبيب عرف في التاريخ أي مارس الطب وأصبح مهنته وليس مجرد هواية له كان ايمحوتب المصري الذي عاش في عصر الملك زوسر رأس الأسرة الثالثة الفرعونية وصاحب الهرم المدرج (٢٧٨٠ - ٢٧٦٠ قبل الميلاد)، لكن الأخطر من الأطباء الذين لم يكونوا أطباء: كان راسبوتين الروسي، والذي قتل في الخامسة والأربعين من عمره على يد فريق من النبلاء راهباً ذا سطوة على كل من يقترب منه، مع أنه كان فلاحاً أميا جاهلاً، إلا أنه سيطر على القيصر والقيصرة عن طريق علاجه الخارق لولي العهد المصاب بنزيف الدم، ثم استفحل أمره في الهيمنة على نساء القصر وزوجات النبلاء، ويعد راسبوتين رمزاً عصرياً للعلاج ذي السطوة الشريرة، وهو منتشر بنسبة قدرات أقل كثيرا في سلوك شخصيات مشابهة تخترق التجمعات البشرية ثم تصبح أسطورة فيها ولاسيما بعد اغتيالها، ولعله من المناسب أن نتذكر أن مواليد المنطقة الروسية في سنوات شهرة راسبوتين الكاسحة قبل عام ١٩١٦ حملوا اسمه، الذي لم يلبث أن اندثر من دفاتر المواليد بعد ذلك.

وسوف أكون واقعا تحت تأنيب الضمير الطبي الحديث لأني بدأت موضوعا عن الطب بقابيل قاتل أخيه هابيل ثم أنهيه براسبوتين الذي يقول عنه التاريخ المحايد إنه «الفاجر اللعين»، دون أن نمر على ابن داود الانطاكي، وجابر بن حيان، وابن أبي أصيبعة، وابن الأحنف «بيطري»، وابن الجزار، وابن جزلة «وكان يدرك فضل الموسيقى على شفاء الأبدان»، وابن جلجل، وابن خاتمة «وضع كتابا عن وباء الطاعون الذي وقع ببلدته»، ومحمد ابن دنيال، والعالم الشهير ابن رشد صاحب الاجتهادات الفلسفية المبكرة والرائعة، وابن طفيل، وابن ميمون، وابن النفيس «مكتشف الدورة الدموية وعلاج ما يصيب الشرايين والرئة»، وابن الهيثم البارع في الرياضيات وعلوم الطبيعة ثم الطب، وعلينا أن نأخذ أنفاسنا حتى لا ندخل العصر الحديث بأطبائه العرب في كل أنواع الطب حتى وعذرا المتخصص في علاج السموم وعلى رأسهم المرحوم محمد سليمان، مع اشارة سريعة إلى طبيب متخصص في البايولوجي هو مصطفى إبراهيم فهمي، وقيمته عندي ترجع إلى أنه أصبح صديقي، مع إعفائي من ذكر باقي أطباء العصر.



● من كثرة استخدام تعبير الجبهة في الحروب، لم أعد قادراً على الإمعان في المسافة التي تكلل رأسها من منطقة عيونها حتى استواء شعرها.

● أخطر ضحايا الجوع: إحساسك بالجمال.

● أرجــو أن تقترب أصابعك مــن صنبور المياه بنوع مــن الرفق، لا أقصد ما توقفت حبيبتك عن الإفصاح حوله قبل أن تهجرك بعدة دقائق.

● الحافــدون: الاســم الصحيح للجيل الذي انتمي إليه بعــد أن فوجئنا بأننا أصبحنا مع الأسف أجداداً لهم أحفاد.

● الجبال التي تقترب من الخضرة تزداد بهاء.

السَّمر*

كنت مشغولاً بموضوع أسامركم به في أمسية قراءتكم هذه السطور، أحاول أن أستدرجكم بعيداً عن القلق والتوتر والضجيج المتراقص مع مشاهد الدم الصارخ في شراسة العنف الحديث على شاشات التلفزيون، فإذ بي أتسمّر أمام وجه بالغ العذوبة السمراء: سيدة - امرأة أفضل - تتسلق بعينيها أرقام بيوت الشارع، فتحركت نحوها مبتسماً، وبعد أن أشرت لها إلى المنزل البعيد الذي تبحث عنه، ودون أن ينطلق من فمها حرف واحد: انبثق إشعاع من عينيها السمراوين - لم أقل السوداوين - في امتنان، بعدها أحسست بانشراح صبياني يسعى بين جوانحي بحثاً عن سمر قديم - مفقود - كنا نسترخي نحن الأصدقاء تحت عذوبة ضوئه الخافت، والرقيق، والهامس، والمفعم بالمرح والحبور... أيضاً.

وأهم عناصر السمر: مسك السيرة، أي الكلام المرتبط بالغائبين، وهي مسألة مكروهة أخلاقياً ودينياً. إلاّ أن إثبات المقصود هنا على النحو الشرير يفسد علينا أنواعاً تخرج من مجالس السمر إلى صفحات الجرائد والمجلات والقصص والأغاني، مسك السيرة على النحو الطيب يخرجنا من الإحساس بالذنب، مع أن ثلاث مدن دخل السمر في خلايا تكوينات أسمائها:

- أسمرة عاصمة أريتريا على البحر الأحمر، والتي كانت في اتحاد مع

* العربي - العدد ٥٢٢ - مايو ٢٠٠٢

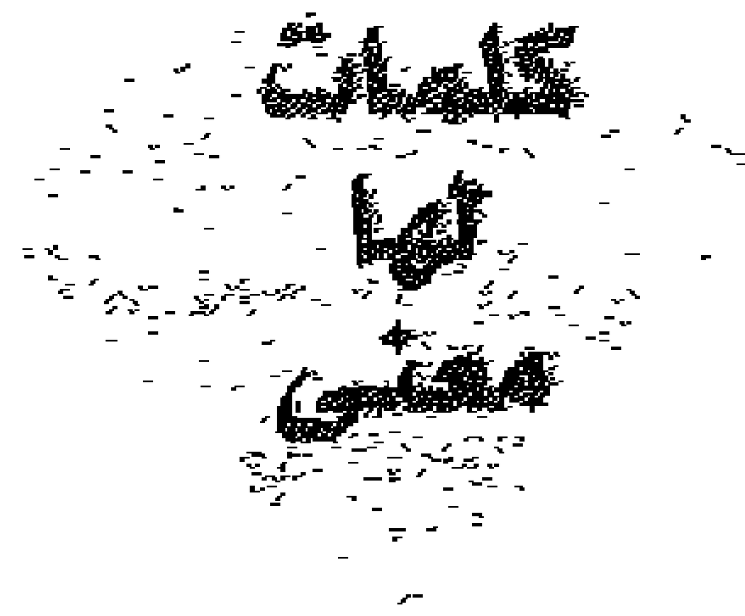
إثيوبيا - الحبشة قديماً - ثم انفصلت، وسامراء العراقية على نهر دجلة ولا تزال بها أطلال مدينة سـامراء العباسـية التي أنشئت زمن الخليفة المعتصم، ولا يزال باقياً من أطلالها - أو من آثارها دار الخليفة المتوكل، والمنارة الملتوية على مسـجدها، وفيها ضريحا الإمام علي الهادي وولده حسـن العسكري، وعندها يقع سدّ سامراء، أما الثالثة التي تخضع عنوة للسمر فهي السامرة: منطقة بفلسطين تكثر بها التلال المستديرة، ويغلب عليها المظهر الجبلي رغم أن كثيراً من السهول تتخللها بوديانها الصغيرة. وفور الخروج من السمر الجغرافي فسوف نقع في تاريخ السامري: ذلك الإسـرائيلي الذي أضل قومه في غياب النبي موسى، وأمرهم بأن يلقوا بمـا يحملون أو يحتفظون من حلي في النار، وصنع لهم عجلاً من ذهب تصدر منه أصوات غريبة بفعل الرياح، ودعاهم لعبادته فعبدوه، ولمّا رجع النبي موسى من غيابه كشف عن حيلة السامري ونفاه «قال فإنّا قد فتنّا قومـك من بعدك وأضلّهم السـامري» (الآية ٥٨ - طه)، ولا يزال اليهود - حتـى اليوم - يسـعون في العالـم بحثاً عن العجـل الذهبي ليعبدوه. والـذي يراجع التاريخ القديم، والعصور الوسـطى - في أوربا بالذات - سوف يجد السامري لايزال مهيمناً، والذي كان شيلوك الدموي في تاجر البندقية عند شكسبير رمزاً مكثفاً وبسيطاً وجميلاً له.

وبحثاً عن سـمر آخر أقـل ضغطاً على الأعصاب فإن الأسـمر كان شـاعراً مصرياً عرفنا قصائده الجميلـة ونحن تلاميذ، ولم أجد تعريفاً له فيما أملك من كتب ومراجع، أما الأسمر والسمراء - صفة للمحبوب، فقد امتلأت بها القصائـد وإن غلبتها الأغاني منذ تغنى بأنواعها فايزة أحمد وعبدالغني السـيد وعبدالحليم حافظ (سمراء يا حلم الطفولة)، أما الأسـمران فهما الماء والبُرّ - أي حبوب القمح ويقال: سمرت الماشية النبات: أي رعته وأكلته. وسمر اللبن أي أصبح سماراً صفة للبن المخلوط بالماء ويطلق أيضاً على لبن الظبية لأنه خفيف الكثافة. كما أن السـمار نبات رقيق بأوراقه وسـيقانه الممتدة طولاً تصنع منه أنواع من الحصير والسـلال في مصر، وكان هـذا النوع من حصير السـمار يغطي أرض حجرات ومصاطب السـمر ذات عصر - وقد بقي منه في بعض البيوت الحديثة قليل. وبين سـمار الفرش وسمّار الجلسـات في مجلسهم كان

اللفظ أيضاً يطلق على ضوء القمر - هل رأيت ما هو آكثر رومانسية من ذلك؟! وأليس ذلك وراء انتشار أسماء سميرة وسمير في آهلنا؟

لكنك إن ضممت ميم السـمر فإنه يعني نوعاً من شـجر الطلح الذي ترعاه الإبل دون المواشـي، وينبت في السهول وبعض التلال تلقائياً . أما إذا وصفت العام بأنه أسـمر فإنه يكون جدباً شديد القفر من الجفاف، فإذا تدخل المسـمار - هذا المصنـوع مدبباً من الحديد كما تعرف - في المسألة فإنه يستولي على السمر ليصبح تسميراً، وسمر الخشب وغيره: شدّه بالمسمار المشار إليه وثبته بالدق على رأسه.

وفي الأعوام الأخيرة بدأت أشـواقنا للسـمر تطرف في عيون الشوق إلى الماضي، فظهرت كلمة السمر في برامج التلفزيون التي تسعى إلى أن تكون هادئة هامسـة، ثم مسرح السامر الذي يروم تقديم الأمسيات ذات الصدى الشـعبي في مسرحياته وتمثيلياته، مع أنني لاحظت أن معظمها يبدأ سـمراً ثم لا يلبث أن يقع صريع ضجيـج الطقوس والطبول ورغبة السامرين أن يقلقوا أمثالنا، مع أن السمر نسيم عليل يرتاح العقل المتعب فـي وجدانه الهادئ، هذا الذي أراح شـهريار الدمـوي ليغفو في الحلم الجميل الذي احتوته به شهرزاد.



● عندما يتلاشـــى الذيل تبدأ الحيوانات في البربشـــة - أي النظرات المتوالية بعيونها، دارون صاحب نظرية التطور لم يقل ذلك.

● اختراق الجمجمة مســتحيل إلا بالشــاكوش أو طلقات الرصاص، العنف يستخدم هذه الطريقة ثم بعدها يندهش لمشهد الجثث.

● حتى حفيدتي تظل تســتثير دعاباتي المرحة لهــا انتظاراً لأن يفتح أحدنا التلفزيون.

● مازلت حتى اليوم أحاول أن تصل أصابعي إلى جرس باب أســرتي دون أن أطرقه بكفّي.

● كلمة (الباطل) لها حروف مشــرعة إلى أعلى، انظر إليها جيداً، ثم انظر إلى (الحق) سوف تجد كلمته مرسومة في هدوء يتيم.

● أول من يستيقظ مبكراً الغراب، لكن العصفور هو آخر من ينام.

● انتبه، ولا تيأس، فإن العيون المتفائلة تســتطيع أن تخترق الســحب لترى القمر.

السَّراب والسرداب والسربال *

ب بيتنا - الذي كان خارج القرية على شـــواطئ البرك والمستنقعات - ظل يبتســـم في رومانسية فقيرة ممعناً في الهواء الطلق، ليتيح لـــي فرصة امتزاج الخيال الصبياني بمـــا آحصل عليه من مناظر الحب والغرام المشـــتعلة على شاشـــة ســـينما المدينة القريبة. وتتوالى السحب حاوية في تكوينات الغروب الملوّن السراب المأمول، دون أن أفطن إلى أن السراب يتوالد في آفاق الرمال الممتدة في الصحارى دون أحراش شجر الجميز والسـنْط والنخيل ومزارع القصب والأذرة. وبالتالي فقد تضاءل ســـراب الأمنيات إلى سرابة الماء السلس المتســرِّب في قنوات الحقول، تلك التي تظل الضفادع والســـحالي تتقافز على حافتها في سرور لا أثر للخيال السينمائي في تكويناته.

ولقد ظللت أتساءل - بما أمتلك من عبقرية قديمة - إن كانت سرابة الماء هي التي وراء لفظ (الســـراب) عندما تتمكن من اختراق الأرض؟ ثم لم تلبث الأســـئلة أن توالت خلال سنوات عمري المتوالية عن العلاقة بين سراديب الذهب والألماس وأعناق النساء، وما السبب وراء الرعب الكامن في الســـرداب المظلم الذي يفح بالترقـــب والهمس والتآمر؟ ولماذا - إذن - نطلق على كل الحيوانات والطيور الجميلة المســـالمة لفظ سرب فنقول: سرب الحمام، ســـرب العصافير، سرب اليمام، سرب الغزلان - دون أن تحظى الســـباع والنمور والصقور والغربان والحدآن بأي سرب، ثم لماذا

* العربي - العدد ٥٢٤ - يوليو ٢٠٠٢

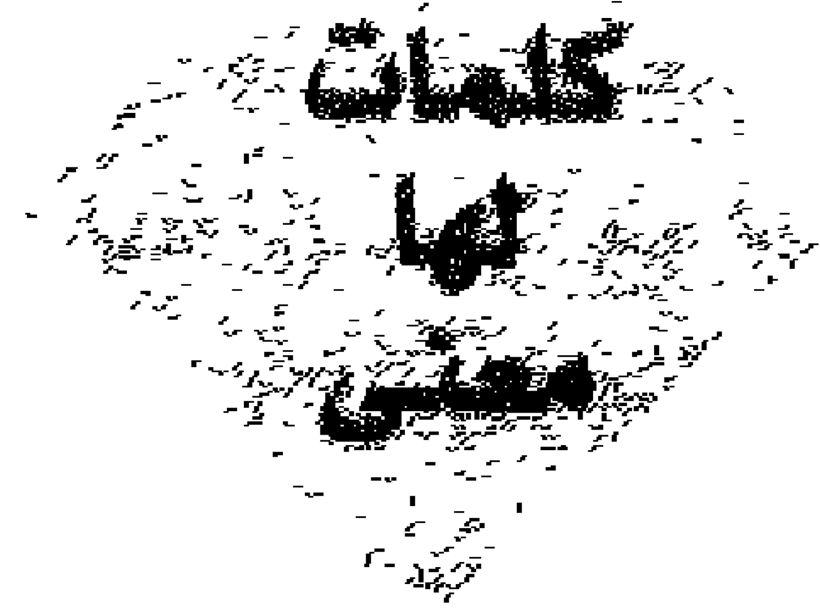
تقوم ثقافة العصر الحديث بتطويع لفظ السـرب للطائرات المقاتلة، ثم سـرب النقاد – أقصد نقاد الفن والأدب – وأسـراب الصواريخ؟ أم أن البحث عن إجابة يصبح تسـريباً سواء بالمعنى الذي يؤدي إلى التوصيل المتسلل السـري كما هو قائم في تسريب أسئلة الامتحانات، أو حيثيات الأحكام، أو نوايا ذوي السلطة إلى من يهمهم أن يعرفوا بهذه الأمور قبل وقوعهم فيها؟

إلاّ أن كل هذه المواد المتسربة أو السرابيّة أو السارية تأخذ مجرى آخر حينما نعرف أن المعجم العربي يجعل السُّـربة هي الشعر المستدق – أي الناعم القصير جدا – الذي يأخذ مساحة منظمة من الصدر إلى السُّرّة، والسُّـربة أيضا: الطريق، وقريب السُّـربة: قريب المذهب أو المشاعر أو اتفاق الحاجة، أما المسْـرب – وجمعها مسـارب – فهي قنوات انسياب الميـاه، وهي معروفة لنا في قريتنا وتطلق على الجداول الصغيرة والترع التي لا عمق لها وتحف بها نباتات بوص الغاب وذيل القط والنجائل غير المشـذبة، وتأخذ الحيات والثعابين مساربها لمواضع آثارها تنساب إليها سـعياً على بطونها، ولا أعرف إن كان للعقارب مسارب لكني أزعم – في ثقة – أن اللصوص يميلون إلى ذلك.

وقد هالني أن النساء حصلن على حقهن في السرب: سرب من النساء على التشبيه بسرب الظباء، إلاّ أن النحل – بعد النساء مباشرة – يصبح له سـربه، بل إن السـرب تعني: النفس والقلب والصدر أيضاً، يقال هو آمن السـرب أو آمن في سـربه: أي أنه آمن النفس والقلب والصدر أو آمن على ماله من أهل وممتلكات وأموال، ويقال هو واسع السرب: وتعني واسـع الصدر فقط، كما أن السّـرب هو الطريق والوجهة والنهج، فإذا انفتحت السـين وتم تأنيـث اللفظ ليصبح (سَـرْبةً) فإنها تعني الرحيل القريـب، أقصد السـفر القريب حتـى لا يختلط بالرحيـل معنى آخر لا يصح الاقتراب منه الآن، جعل الله سَـرْبك آمناً ... ومريحاً حتى تصل إلى مسـربتك الخاصة: أي المرعى الواسـع – أو المزرعة الرحبة، حتى تتسـربل بك الأمور الجميلة، أي ترتديها أو تتناسق نفسياً معها كما هو مقصود بالسّرْبال أي (الارتداء أو اللباس)، كما أن القميص سربال أيضا، والدّرع سـربال بدأ يندثر بعد أن ظلّ أحقاباً سـربال الوقاية في القتال

القديم، حتى لو كان السربال يطلق على كل ما يرتدى من أنواع الملابس والعناصر الواقية، وفي التنزيل العزيز ﴿وجعل لكم سرابيل تقيكم الحرَّ وسرابيل تقيكم بأسكم﴾ صدق الله العظيم.

أما السارب فهو الذي يسرب سروباً يخرج في الأرض ذاهباً على وجهه فيها، وربما يكون مريحاً لي شخصياً أن السارب من يهيم في الأرض دون هدف سوى متعة التجوال، غير أن العين - إذا ما دمعت - فإنها تقع تحت هذا السرب أو السروب، كما أن قربة الماء أو اللبن لا تلبث إن اخترقها ثقب دقيق - دون تمزق - أن تأخذ حقها في السروب، فإن أردت أن نتوقف عن كل هذا التسريب المتسلل فعليك - يا صديقي - أن تنصت لقليل من الموسيقى الهادئة حتى تتسرب إلى وجدانك الذي يسعى إلى نوع من السكون الذي لا ضجيج ولا قلق فيه، حتى تتسرب - آخر الأمر - إلى عالم آخر لا يقلّ جمالاً عن السراب الذي نسعى كي نستمتع برؤيته - ولو لمرة واحدة.



● عندما تسألك أنثى سؤالاً، لا تسرع في الإجابة حتى تتيح لها فرصة أن تظلّ ممعنة في وجهك، أقصد: أن تظل ممعنًا في وجهها.

● العصر الحديث مثل مترو الأنفاق: يمنحك السرعة دون متعة مشاهدة توالي وتتابع المناظر الجميلة.

● لأنها أكثر تأثيرًا ستظل الشمس مؤنثة، أما القمر فسوف يظل مذكرًا يهيم في القصائد والأحلام دون أي فعل مؤثر في النمو أو القوة... أو الموت.

● الشراسة الجارحة من ثلاثة حروف فقط: أسد ونمر وضبع وذئب، فإذا اختلطت الشراسة بالمكر والخديعة تبدأ الحروف في الازدياد: ثعلب وثعبان ولبؤة، دعك من السياسي الآن.

الجُبُّ *

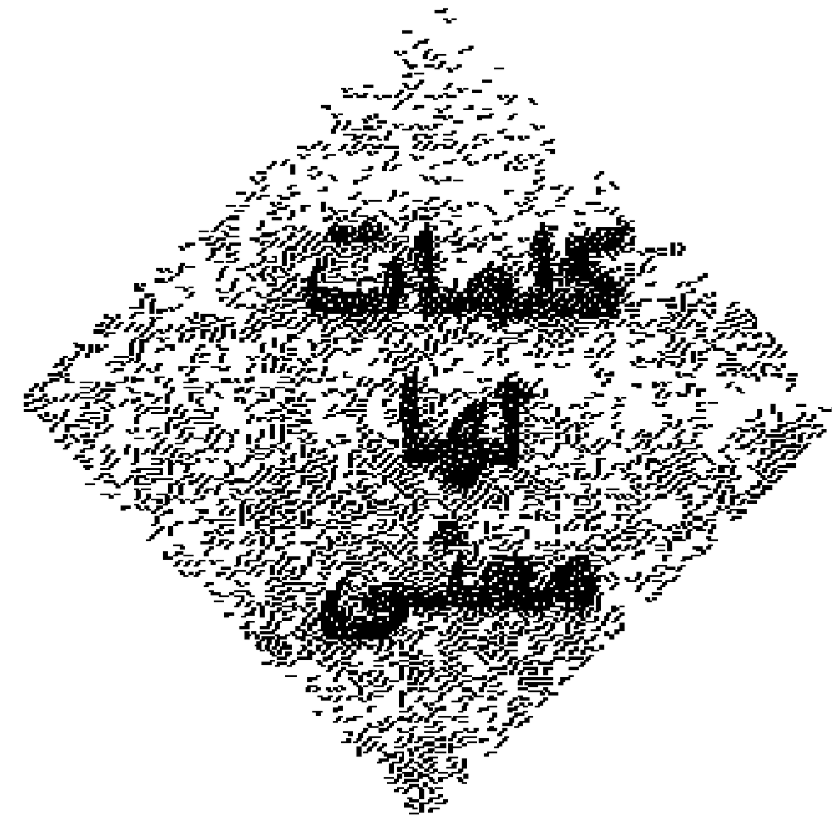
نحن - أبناء الريف - يستدرجنا لفظ (الجبّ) إلى أعماق الرعب، فإن كان هذا البئر العميق يمثل الأمل للعطشان في الصحارى، فإنه في مناطق الأنهار يرتبط بصنوف من الانتقام تؤدي إلى ما حدث لي شخصيا حينما أخرجوا جسد ابن البطران - الصبي - من عمق البئر، فظل كامناً في جوانحي وفي تصوراتي وفي قصصي. وسوف تلاحظ أن الجب طغى على تأنيث البئر وجعلني أسقط في قاع الاضطراب اللغوي. ومازلت أرتاح للموروث عن النبي يوسف - عليه السلام - الذي قال قائل من إخوته: ﴿لا تقتلوا يوسف وألقوه في غيابت الجب﴾، حتى جاءت سيارة - أي مجموعة من السائرين المسافرين - لتنقذه، وتتحرك بعدها حكايته من الجب لتصل إلى ذروتها الممتعة مع (زليخة) ثم أغوار السجن ثم النجاة مرة أخرى. وليس من السهل أن يحدث ذلك لكل من يقع في الجب الريفي لعدم اللجوء إلى هذا النوع من الأعماق لاستحضار ماء يفيض في الجداول والترع والجوابي. والجوابي - هنا - جمع قسري للجابية التي تكون البحيرة الصغيرة أو البركة التي ينهل منها الشادوف المياه في إيقاع موسيقي يثير الشجن والرغبة في الشدو والغناء أكثر من السواقي والمحاريث. ومع ذلك فإن الشادوف سيظل رهين المعاجم حيث نطلق عليه - وربما لهذا السبب - لفظ العود. وبرغم رغبتي العارمة أن أستظل بالعود الذي على الجابية - دون العودة للجب فإن الضمير

* العربي - العدد ٥٢٥ - أغسطس ٢٠٠٢

اللغوي (المستتر أو المعلن) يجعلني أشير إلى أن الجابية تتوافق صوتياً ومعنوياً مع الجب إلاّ أنها تختلف في المصدر اللغوي (جاب – و – جبّ) وهذا شائع في حالات عديدة أخشى أن يبتعلني عمقها دون أن تتاح لي فرصة إنقاذي من بعض السيارة الذين لا ينتبهون لمثل هذا السلوك الراقي في عصرنا الراهن، حيث لا فرق بين الجب والجابية والجبّاية. وكما تعلم – أطال الله عمرك – فإن الجابية والجبّانة، وكما تعلم – أطال الله عمرك – فإن الجبانة هي المدافن – التي تؤوي أجسادنا بعد أن يحل الأجل، وللجبّانة اسم آخر أقرب إلى الأجساد هي الأجداث.

إلاّ أن الجب ليس مجرد بئر، ففور أن تفتح الجيم بدلاً من ضمها لتصبح (الجَبّ) تواجه (القطع)، ومنه جاء الحديث الشريف «إن الإسلام يجب ما قبله)، أي يقطع ويمحو ما كان قبله من الكفر والذنوب. والجب أيضا: الاستئصال، في الأعضاء على وجه الخصوص كالأذرع والسيقان. ولا أعتقد أن هذا الجب يصلح للرقبة – أي العنق – والمخ – أي العقل، لكن النباتات – النخيل بالذات – ترتاح لاستخدام الجب في التلقيح دون القطع والبتر، مع أن اللبن حين يجبّ – أي يصيبه الجُباب (رجاء ضم الجيم) يعني أنه أصبح أكثر دسامة بهذه الطبقة الناعمة المعروفة التي تعلوه. وربما تكون هذه الدسامة وراء الجبة: هذا الثوب السابغ: أي الفاخر واسع الكمين المفتوح أو المشقوق من الأمام (عذراً: ما كان لي أن أشرح لكم الجُبّة). وهناك جبة أخرى من نوع مختلف تفصل بين حبوب العدس البني الغامق لدرجة السواد والعدس الأصفر، والعدس أبو جُبّة له لذة لا مثيل لها في المأكولات مع أهمية محتوياته ذات الطاقة الكامنة التي تفح بالدفء – والحرارة – في عز الشتاء، ونحن في مصر لا نأكله في الصيف أبداً، وكثير من المشاكل أو التصادم العائلي يكون وراءه الاغتذاء المبكر صباحاً بالعدس ذي الجبّة، إنه استنتاج شخصي من واقع شخصي. عليك ألا تجوب هذه المنطقة الآن، حتى لا أضطر إلى الزج بك إلى الجيب: سواء كان جيب الزاوية في علوم الرياضة، أو جيبك الخاص في مجالات الصرف والإنفاق – أي النفقة – والإغداق أيضا، أعرف – مرة أخرى – أن العلاقة بين جيبك والجب صوتية فقط، وهذا خير من اصطحابك إلى عالم الجباية القديم (وزارة المالية بما فيها

من مكوس وضرائب الآن)، أو سـيارة المغامـرات الصحراوية من طراز (جب)، أو جب الباحث اللغوي الاسـكتلندي (السـير هاملتون ألكسندر روسكن جب) الذي ولد في الإسكندرية بمصر إلاّ أنه تعلم في (أدنبرة)، حيث أصبح - بعد رحلة مثابرة علمية - رئيساً لقسم الدراسات العربية في جامعة إكسـفورد، ووضع كتباً عدة في هذا المجال، مثل: مقدمة في الأدب العربي، ومختارات من رحلة ابن بطوطة، والاتجاهات الإسـلامية الحديثة، والمحمّدية، حضارة الإسـلام، وقـد رحل عن عالمنا عام ١٩٧١ بعـد أن أصبح عضواً بمجمع اللغة العربية بالقاهرة، وأعتقد أن السـير هاملتون جبّ يصلح نهاية مريحة للخروج من أي جب آخر.



● إنه مرض نفسـي يخصني: لا أحب أن أنظر في وجوه السياسيين أثناء إلقاء خطبهم، لكن الاضطراب الناجم عن لغة الخطابة يعيدني فوراً إلى وجوههم، اللجوء إلى الفراش أو الشارع أفضل.

● الدنيا على كف عفريت، هناك كف أخرى لاتزال شاغرة.

● التاريخ يحب الجغرافيا، إنها العلاقة الزوجية الأبدية، دعك من الحضارات والمدن المندثرة، عليك أن تستريح - كما هو حادث الآن - تحت ظلال الأطلال.

● حول جلستي على النجيل - أقصد البساط الأخضر - ظلت حفيداتي الصغيرات يتقافزن سعيدات، وما كاد عمهم - الذي هو ابني النشيط - يظهر في الأفق حتى هجرنني لأجلس وحيدا.

● ستظل العسعسة صفة لليل فقط، أما النهار فلا حواس له.

السهم *

بالرغم من أن معظمنا - أو جميعنا - لم يشهد سهما على المستوى الواقعي، فإن السهم اخترق الحكايات والأساطير والأشعار وشاشة السينما والتلفزيون، متجها بسرعة فائقة إلى عدوّ أو خصم أو قلب عاشق أو ظبي أو غزال، ثم لم يلبث العصر الحديث أن أخلى أهداف السهم في الغابات والصحاري والأصقاع، ليعيد توجيهه قاسماً مشتركاً للمساهمة في المشروعات والشركات ذات الأجواء الضاغطة الخانقة لبورصة النشاط الاقتصادي، ليصنع ثراء مضطرباً أو خسارة مذبذبة لا يستطيع الشعر وأنواع المها - أي الغزلان - الارتياح إليها، حتى ولو كان السهم العصري استطاع أن ينطلق من العيون المتألقة - أو الرانية المستكينة - لأنثى لا تود التعبير عما يجيش في فؤادها باللسان، إلا أن أنثى ما قبل هذا العصر الحديث ظلت تجيد - إجادة فائقة بعيدة عن وسائل الإدهاش الجمالي المصنوع - تسديد سهامها في الآفاق الممتدة التي تتجاوز متراً كاملاً لتشع بالشجن الصامت والنشوة، لقد أتلف العصر القائم أرقى سهام الفطرة الحية فينا، والتي ظلت في جعبة كيوبيد إيذانا بالغرام المأمول.

وبعيداً عن لغة العزاء الناجم من لوي الأعناق إلى الخلف بحثاً عن علاج حالة السهوم التي عبثت في المشاعر ليتغيّر لونها بعد أن أصاب سليقتنا الهمّ والغمّ والتوتر وإشعاعات الكهرباء وقلاع حوائط الأسمنت

* العربي - العدد ٥٢٧ - أكتوبر ٢٠٠٢

والضجيج والتصريحات والذكاء السياسي المفتعل والهزال العاطفي، مع إضافة أنواع أخرى من أسـباب السـهوم كالملابس الصناعية وأصناف عديدة ووفيرة من الشـعر المسـتحدث والقصة التي تجاوزت الحداثة، وشـطائر مأكـولات الأركان وراء الحوائط، فإننا - بعـد كل ذلك أو أي مـن ذلك - لا نجيد اختراق مـا نحن فيه من تقدم - كي نصل الأمنيات الرومانسية الغالية والبسيطة، والتي تسهم في استثارة الوجدان الكسول كـي ينجو من وهـج العصر - أقصد الصيف - وحر السـموم، وإمعاننا - بين وقـت وآخر - في عيون زوجاتنا: رعـاك الله وأنقذك من عذاب السهام الصدئة، مع أهمية الابتسام الأبوي الحنون.

وحتى لا أقع معك في تسـاهم، نتقارع في سـاحته كـي يغلب أحدنا الآخر، فإن اللجوء للتسـاهم الذي يعتمد على ذلـك القدح الذي يقارع به من باب التسـلية أفضل مراراً من وقوعنا في صراع الأسـهم: دموية بالغة القسـوة، أو هادئة في يسـر لتصبح ميسـراً - إنه الاسم المهذب للقمـار، مع أن السـهم - في واحد من معانيـه أو مدلولاته يعني الحظ والنصيـب، لكنك لا تسـتطيع أن تخرج بهذا اللفظ مـن المعجم لتصوغ المصطلح الشـعبي الصبور (كل واحد وحظه) ليصبح (كل واحد وسهمه) فقد يعني ذلك إنذاراً - بشـكل ما - للسامع أن موقعة استخدام السهام الحادة: قادمة.

وقـد اضطر السـهم أن يعمل بشـكل لايزال حيا ومؤثـرا في قياس المسـاحات وتحديد النصيـب فيها - بعد أن فقد كثيـرا من أدواره في العيون والغزلان كما تعرض للاهتزازات الجسـيمة في البورصة المالية، واسـتبعد تماماً من الميسـر والقمار، ليصبح القيراط أربعة وعشـرين سـهماً، ثم يعلو الفدان جاذباً أربعة وعشرين قيراطا ليكتمل الدور، وقد أحسسـت بمغزى قيمة السـهم حينما رحل أبي تاركاً مسـاحة واسـعة مـن الأرض الزراعية تصـل إلى فدان أو أقل قليلا، وهـو أمر له معناه المؤثر عندما تكون من عائلة أو أسـرة (مسـتجاب) الذيـن يميلون إلى إبراز مظاهر من يمتلـك مثل هذا الفدان مائة مرة: في الكلام والمبارزة والتشـاحن والمصاهرة واكتشاف عيوب الآخرين الذين تقل ملكيتهم عن ذلك. وكدت إزاء هذه الملكية الشاسـعة ذات الفـدان الذي يحوي عدداً

طيباً من القراريط - والتي بدورها تحوي عدداً مذهلاً من الأسهم - أن أطبع بطاقة خاصة بي تنزعني من سـلك الموظفين إلى مجال المزارعين - أي أصحاب الملكيات الواسـعة ولا يعملون فلاحين، إلا أن البطاقة لم تتح لها الأقدار فرصة الظهور بسـبب إسـهام إخوتي في إفساد متعتي: خمس أخوات بنات وذكر، بالإضافة إلى شـخصي المهيمن على كل هذه الأسـهم، وأمي التي تحظى بالرعاية الخاصـة دون أن يضيع حقها في الميـراث الخاص، حينئذ أصابتني دهشـة روائيـة حينما عرفت زوجتي - كانـت أيامهـا خطيبتي - أن ما أشـدو به من فخـر لا يتجاوز أربعة أسهم، إنها مسـاحة يمكن قياسها بالشبر، هل تذكرون الشبر؟! إن ذلك يساعدني على إغلاق موضوع السهم والأسهم والمساهمة - حتى لو كانت تبرعاً للفقراء واليتامى، دون أن أبرز قدراتي الفائقة حينما - في حالات الصفاء الناجمة عن استقرار أو ارتفاع أسهم البورصة - لاحظت أن كل ما ورد مـن معلومات تاريخية عن مختلف صنوف الشـعوب في العالم، ابتداء من العرب والقوقاز والفينيقيين والإغريق والرومان - حتى الباقي من قبائل الزولو والبوشـمان وسـكان أسـتراليا والهند والتبت والهنود الحمر: يسـتخدمون السهام نفسـها في الجعبة ذاتها بطريقة التصويب نفسها، أو التسديد إلى أنواع متعددة من الغزاة أو المستعمرين أو الأرانب أو الذئاب أو السـباع أو الغزلان أو النسـاء، أو حتى إلى أهلي - أقصد أخوتي - الذين اسـتخدموا حقهم في محاصرة أسهمي التي أجهل كيف أطلقها.



● الحـــرارة مؤنثـــة، والبرودة مؤنثة، أما الرجولـــة فلاتزال تبحث عن صفة لها لا تنتهي بتاء التأنيث المربوطة.

● العقـــل مثل أي كائن حي: يحتاج إلى بعض الراحة دون اســـتعمال، البعض يتركه في تلك الراحة فلا يستيقظ أبدا.

● كل الأنهار تصب في البحر، والبحر ليس بملآن، دون الانتباه إلى أن كل السحب التي تحمل سيول الأنهار في جوفها، تمتلئ بها من البحر.

● الجيـــوب الأنفية مصطلح علمي لوصف ما يصيب الأنوف الحديثة، لقد توقفت حاسة الشم.

● في الســـفر ســـبع فوائد، أخطرها الثامنة: يستحسن ألا تعود مرة أخرى.

الخبر والاختبار*

لعل الأمر يصبح أكثر وضوحاً لو أنك هجرت الموقع الذي تقرأ فيه هذه السطور، وأن تترك خلفك - بعض الوقت - كل أنواع الوثير من المقاعد والفراش والمصابيح وأوراق المكتب ومجالات الدوائر الكهربائية المغناطيسية للإرسال التلفزيوني، وأن تنسى - بعض الوقت أيضا - حبوب تخفيض ارتفاع الضغط الدموي ومخففات الدهون ومذيبات الكوليسترول، مع تجميد ذاكرتك حتى لا تسحب خلفها زوجتك وأنجالك وكل الورثة - رعاهم الله، دون الإشارة إلى وجوب طرد الأصدقاء والأعداء من هذه الذاكرة المفعمة بالقوانين والواجبات والأمنيات والأمور ذات الشجن - أقصد الحزن العميق، بعدها يمكن لك أن تحس بالحياة إحساساً مختلفا حينما تخترق بعض التلال أو الآفاق الخضراء، لتكتشف أن الأمر سوف يصبح أكثر وضوحاً أمام المشاعر القديمة الخالدة حينما تبدأ حواسك في دخول المختبر الواسع الرائق، لتستيقظ ارتعاشات دقيقة وناعمة في الشرايين والآذان والعيون والوجدان، انظر - دون اضطراب أو قلق - إلى هذه السحلية ذات الألوان المتوازية الخطوط الذهبية وهي تنظر إليك وكأنها ترحّب بك، وكأنك خبر في قواعد النحو العربي جاء متألقاً لمبتدأ غامض، أو هذا العصفور الذي تقافز - على الرمل أو في الهواء - عدة قفزات فطرية تجعلك تود أن تمد كفيك إلى صوته المتقطع الطفولي المرح، الاختبار

* العربي - العدد ٥٢٨ - نوفمبر ٢٠٠٢م

أصبح يسيراً - وعذباً - الآن.

إلا أن كل هـــذه العذوبة قد تصادر فجأة من رنين قطعة التليفون - أو المسرة - التي في جيبك (وقد غاب عني أن أنبهّك ألا تجعلها ترافقك)، لتحمل إليك خبراً ســوف يجذبك من كل اتساع الفيافي الجميلة - حتى ولو كان خبراً يحقق لك أمنية أن تصبح عضواً في المجالس الشـعبية أو الوطنية أو الاستشارية أو الوزارية الكامنة في جمجمة العصر، ويستدعي هذا الخبـــر خبرتك في مواجهة الدنيا، وتضطـــر أن تبحث عن صخرة تلــوذ إلى الجلوس عليهـــا دون انتباه إلى هذا النوع من نبات الخابور ذي الرائحـــة الناعمة المزهرة الرقيقة بين أقدامـــك، أو ذاك الخبار الترابي الدقيـــق الذي يتجمّع حول أغصان الشـــجر - وأغصانـــك الآن: أقصد أعضـــاءك، وعيونك تبحـــث بين الآكام على خبر آخـــر لا تدركه المدنية: فالخبر هو منقع الماء في الجبل أو وســـط مناطق الزرع الجافة، كما أن الخَبْر هو - أيضا - السِّدْر والأراك (الذي يستخرج منه السواك المعروف في تنظيف الأســـنان)، كما أن الناقة غزيـــرة اللبن يمكن أن تأخذ حقها فـــي لقب الخبر، مـــع ملاحظة أن الخبر مدينة حديثـــة بالمملكة العربية السعودية على الخليج العربي، وهي مركز تجاري شهير.

ويتقطع (الخبر) إلى عناصر عدة، هجرناها وتم طردها خارج الذاكرة الإنسانية العصرية، فالخُبرة ما تشتريه لأهلك من طعام (حتى لو طلبته جاهـــزاً بالتلفون)، وما قد تحمله في أســـفارك مـــن زاد، والفطيرة - أو الثريدة - الضخمة الدسمة، والشاة التي تستحضرها بالشراء أو الإهداء وتذبحها مع أصدقائك كي تصل بالمتعة إلى حدود الامتلاء، لتصبح خبيراً في الضيافة يشـــهد بخبرتك فيها عدد مذهل من أجهزة الهضم. وحتى لا تنزعج معاً: أنا وأنت، فإنني ســـوف أشـــير بسرعة إلى أن الخبرة قد تجرّنـــا إلى التخابر، لنصبح أعضاء في تلك المؤسســـات التي تقوم على مصالح المخابرات دون مراعاة للمشـــاعر والأحاسيس ابتداء من الهمس أو الدسّ أو تشفير الأخبار، حتى مرحلة الخابور، والخابور لا أثرٍ له في القواميـــس، مع أنه معـــروف بتكوينه الحاد الذي يجهـــز - أصلاً - لملء الثغـــرات في الحوائـــط والأرضيات، ثم لم يلبث أن اســـتخدم في المهام المروعة للخازوق ذلك العمود المدبب الرأس الذي يجلســـون عليه المذنب

- فـي الأزمان الغابرة - ليخترق جسـده، القامـوس اللغوي يقول ذلك معتقـداً أن عصر الخازوق أو الخابور قد انتهى، ومادمنا قد تورّطنا في أمـور لا يصح أن تفكر فيها - آو تتذكرهـا - في الهواء الطلق، فإن من الواجب أن أعتذر إليك، حيث لابدّ ألاّ يفوتنا ما جرى للخبر حينما هيمن في الأحقاب الأخيرة الملوّنة والمزركشة على العالم الواسع الممتع للأخبار في المجلات والصحف والإذاعة والتلفزيون والفيديو والأقمار الصناعية، وتأثيـر الخبر في الفنون التشـكيلية - وبالذات الرسـم الكاريكاتوري، والتعبير التخطيطي، والصور الفوتوغرافية على أغلفة الكتب والمجلات، ولعل أروعها - وعذراً فهذه مشـاعر خاصـة - الاختراق الحيّ للطائرة الثانية للبرجٍ التجاري الأمريكي الشـامخ، لم أشهد الطائرة الأولى لأنها جاءت خبراً دون تصوير من خبير ذي دراية ولماحية.

ولأن بعـض ذوي الخبرة فـي صياغة الأمور لصالحهم قد يفسّـرون - لذوي الشـأن - بعضاً من هذه السطور لتصبح اختباراً قد أرسب فيه دون ملحق، فإنني أرى أن (نكفي على الخبز ماجوراً)، وهو مثل شعبي في الصعيد يميل إلى أن نغطي الأمور الرديئة بإخفائها تحت الماجور - وهو إناء فخاري بدائي يتم إعداد العجين فيه تمهيداً للخبر - ودعك من كون الماجور رتبة عسـكرية أيضا، فالمهم الخبر والخبرة والبعد عن الاختبار والخابـور، وحتى نعود إلى بيوتنا - في المدينة - شـديدي الإحسـاس بالسعادة، أو هكذا نأمل.



● يتــواءم اللون الأصفر مع الأخضر بســـرعة مذهلة، وكلاهما يعاني ويختنق حينما يحتكّان باللون الأحمر.

● ليــس خوفا أو دفاعا أو طلبا لـــلأكل: ينبح الكلب، بل كثيرا ما يظل ينبح بصوت شديد الاقلاق لمجرد إثبات وجوده فقط، بعضنا يفعلها طلبا للشهرة.

● يد الأنثى تظل تشع بأصابعها أنواعا من الإشارات الإنسانية، ذات التواصل المأمول، وما تكاد هذه اليد تتعوّد على تقديم المأكولات وترتيبها لك، حتى تخفت أشعتها، وتبرد.

● الجبان لا يأتي من الجبن فقط، بل من انحناء الجبين أيضاً.

● تصبح النجوم زاهرة مادامت ساهرة في دنيا الشجن الجميل.

● كل القصص التي أبطالها آباء تمور بالجحيم، والتي أبطالها أمهات تنفعل بالمسرة والعشق الحنون، مجرد ظاهرة.

المرأة... والمرء *

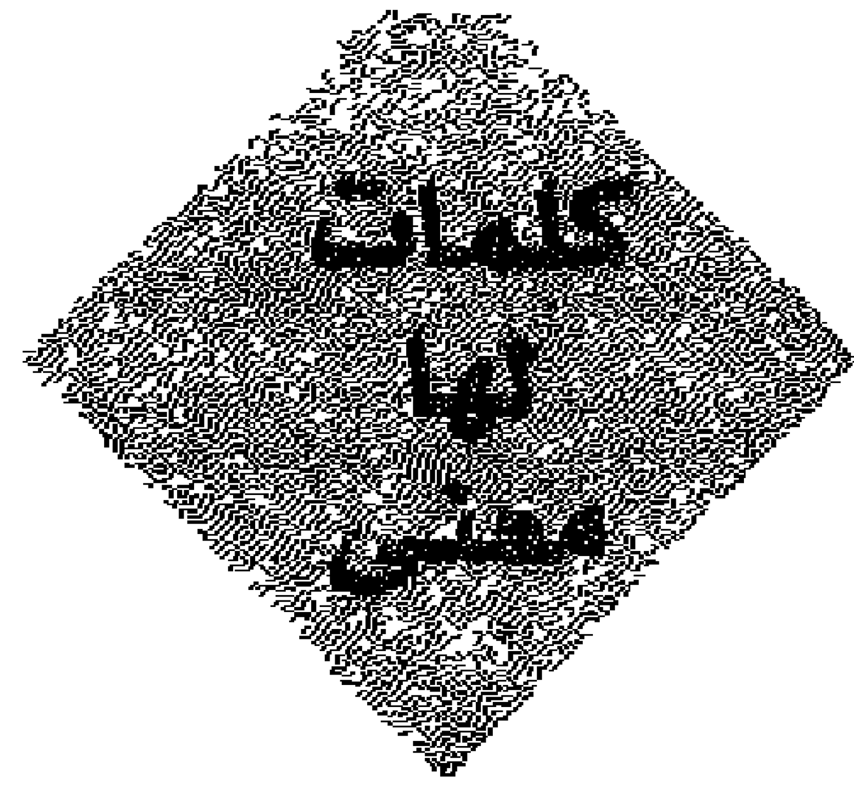
ظللت أزعم لنفسي أنني أعرف أمورا كثيرة، دون أن أدرك أن أي واحد - في هذا العالم - لابدّ أنه يعرف ما لا يعرفه أحد سواه، ونحن - أنا وأنت - نتوجه بنفس معاصرة متمدينة إلى مؤتمر المرأة: في المذياع أو التلفزيون أو في قاعات المؤتمرات، دون أن نتساءل: لماذا مؤتمر المرأة وحقوق المرأة وبرامج المرأة، ولا يوجد من استخدم في المقابل مؤتمر المرء؟؟، مرة أخرى: لماذا نتعامل مع كلمة (المرأة) في جميع الصياغات والشعارات واللافتات دون استخدام كلمة (المرء) مقابلها في المناسبات ذاتها، الرجل أفضل لماذا؟؟، ولأني لا أعرف - مثلك - إجابة محددة، فإن الأمور تزداد مروءة - أي مرونة سلسة طيبة - إذا ما اتضح لنا أن المرأة لا جمع لها من الحروف ذاتها بل جمعها نساء - اللاتي لا مفرد لهن، وكذلك المرء: جمعه رجال، وعلينا أن نمرأ مثل هذه الاستثناءات اللغوية: أي نستسيغها، حتى لا نتوقف عند مفرد الرجال وهو الرجل، ليصبح لنا مريء لغوي مثل ذلك المريء الذي - بالهناء والشفاء - يستقبل الطعام والشراب من الحلقوم إلى المعدة، دون أن نستخدم الفعل مَرئَ أو مَرَأ: أي صار كالمرأة: هيئة أو في طريقة كلامها، ولعل التكوين النسائي اللدن الجاذب المشع وراء دوام استخدام كلمة المرأة مع تجميد المرء، مع أننا نفخر - نحن الرجال - في جميع العصور والأمصار بسيطرتنا على اللغة، فإذا بالمروءة - من المرأة - تتصاعد لتصبح هذه الآداب النفسية

---

* العربي - العدد ٥٣٤ - مايو ٢٠٠٣

التي تحمل الإنســان على مراعاتها ليتمســك بجميل العادات ومحاسن الأخلاق، ونستولي نحن الرجال على هذه المروءة لنبدو في كمال الرجولة - أو الرجولية.

ولعل تلك المروءة - ســواء كانت من سلاســة ورقــة تكوين المرأة - أو من محاســن أخلاق الرجولــة - (أو هكذا تبدو لنا الأمــور) - تكمن - هذه المروءة - وراء المرْو: وهو نبات عطري طبّي (ومن أســمائه الشعبية الخرنبــاش)، كمــا أن المرو نوع من حجر الصوان أبيض براق يســتخدم عند قدحه لإصدار النار في القداحات الحجرية التي استخدمناها قبل الوصــول إلى الولاّعات العصرية، كمــا أن (مرو) مدينة قديمة في واحة كبيرة بصحراء (كاراكوم) فــي جمهورية تركمانيا والتي كانت واحدة من تكوينــات الاتحاد الســوفييتي، ثم هي التي كانــت (مرجيانا) في إحدى مقاطعات فارس القديمة، إلا أن أشــهر (مروة) هي اســم لجبل بمدينة مكة المكرمة، لاحظ أنني أســحب مــن (المروءة) كلمات ومعاني لا تنطبق عليهــا قواعد التخريج اللغــوي بالدقة المطلوبة، وهو ما يؤدي بنا إلى أن نتذكر الخليفة الأموي مروان بن الحكم - والذي ينســب إليه بنو مروان، والــذي ولاه معاوية بن أبي ســفيان أمر المدينة المنــورة، وبعد أمور عدة أصبــح خليفة - في دمشــق، وهذا لا علاقة له بمــروى عاصمة المملكة المروية التي تأتي في السرد التاريخي (٣٠٠-٢٥٠ قبل الميلاد) وكانت تقع على الشاطئ الشرقي لنهر النيل قريبا من قرية (البقراوية) التابعة لمركز شندي حالياً شمال السودان، إلا أن الباقي من كل ذلك هو الصديق الذي لم أعد أسمع عنه شيئا: الشاعر الفلسطيني (مروان برزق)، والذي عاش فترة في مصر، ثم عاد إلى فلسطين وطنه الأثير ثم انقطعت أخباره فور اندلاع الاجتياح الإســرائيلي للمدن والمخيمات الفلسطينية في السنوات الأخيرة، إلا أن الأرض حين تمرؤ: يمســي هواؤها حسناً فهي مريئة، أما المراءاة فهي تعني الموافقة ذات الاتجاه في المجاملة أو النفاق لرؤية - أو وجهة نظر - من يكون أقوى، إنها لغة مخففة وبالغة التهذيب لاتجاهات أخلاقيــة يعاني منها أي مرء أو امرأة منا، دون أن نخفي اعترافنا بذلك في أمور عدة نجد أنفســنا نُرائي فيها، حتــى نبدو أننا نعرف أكثر مما يعرفه سوانا.



● الجروح متعددة – ومتقطّعة، أما الجراح فهي ممتدة بســبب الألف ذات الصدى الصوتي المديد.

● فعلتها الكهرباء عندما ساوت بين بيوت الليل وبيوت النهار.

– كل أطراف الإنســان عبث بها هذا العصر، الأهداب – أي الرموش – فقط هي التي عانت من ذلك خلال كل العصور.

● أي كـف تمتد لتحيي – وتحتك بكف أخرى – دون أن تنفتح العيون: تفقد دفئها.

● عذاب يكتم أنفاســي: مسافر يجلس في مقعده مسدلاً ستائر نافذة قطار يخترق مروج الشتاء.


رباب

ما بين الطرح.. والطرحة *

لا أستطيع أن أنسى: الطرحة السوداء ذات الطريقة الثابتة، والمحكمة، في ضبط رأس ستّي - أي جدتي - نفيسة مع رقبتها وكتفيها، بشكل لا يتغير ولا يهتز في الأفراح أو الدهشة أو الأحزان أو التصفيق الرافض نشوة، أو حين تندمج في حلقات (الزار) أو احتضان الأحفاد الصارخين، وهو أمر لا تستطيع مواجهته طُرح أو طرحات أخرى فوق دماغ فطيمة أو فريجة أو حافظة، تهتز وتضطرب وتنفكّ وتتهدّل كلما داهمتها رياح أو نسائم أو حرارة أو عين رجل غريب، لاحظ أن ستي نفيسة تعبير عربي صحيح شائع في بلادنا - وسط الصعيد المصري - دون كلمة جدتي، كما أن (الست) صفة مطلقة للآنسة أو السيدة شائع في كل البلاد والأقطار، لكننا - نحن أبناء الكتابة - لا نطرح مثل هذه التعبيرات اعتقاداً بأنها عامية لا فصاحة فيها، إنه جهلنا الخاص: دعنا منه الآن، حيث إن كثيراً مما يجري في مجال تفكيرنا يود أن يجد له مطرحاً بين السطور، ذلك أن المشهد الأثير عندي - والذي أشار إليه قائد الأوركسترا الموسيقية يوسف السيسي، يرحمه الله - يركّز في حركة ذراعي أمي خلال تحريك يديها بالمطرحة أمام فرن الخبيز الريفي، وقطعة العجين تتحرك في دورة لدنة سلسة بالغة الرقة لتتسع وتتسع حتى تصبح رغيفاً أو بتّاوة - باتساعها المعروف - لتلقي بها فوق البلاطة الملتهبة، الأجيال الحالية - معظمها - لن يسعد بهذا المشهد،

* العربي - العدد ٥٣٥ - يونيو ٢٠٠٣

وربمـــا أيضا لا يدركون العلاقة الســـاحرة بين حركـة ذراعي أمي أمام الفرن وذراعي يوسف السيسي قيادة للعازفين في الأوبرا، وكلاهما يصل بالإبداع إلى أوج النشوة، دون أن ينطرح اللحن أو الرغيف أرضاً.

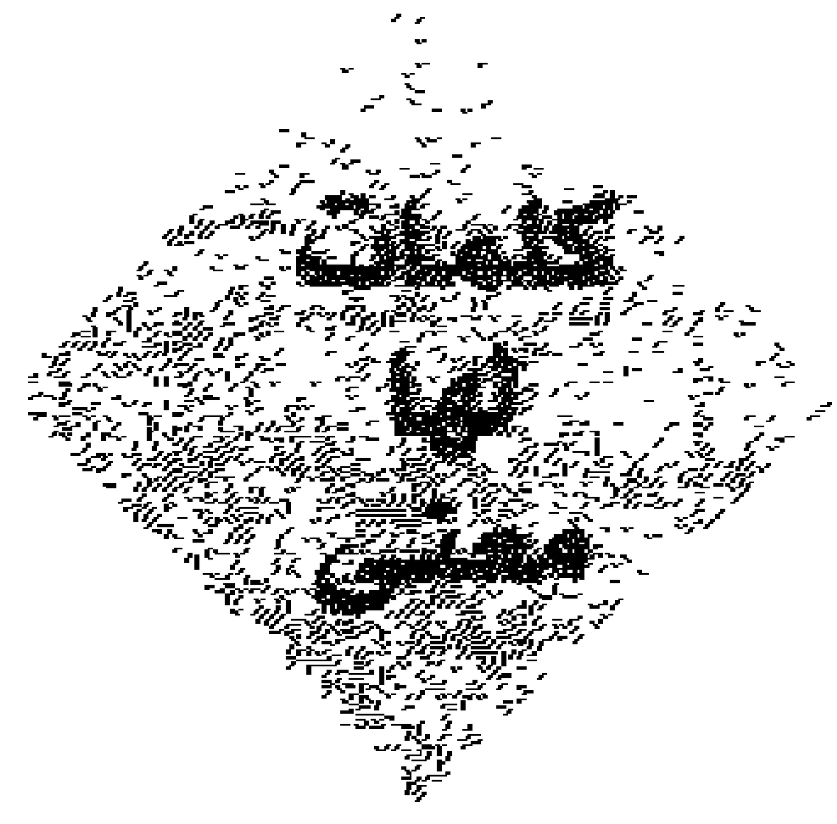
وإذا كان الطرح - في الحساب - إنقاص عدد من عدد آخر، فإنه في الشواطئ يصبح زيادة في المســاحة البرية التي يضاف إليها ما تطرحه المياه من طمي وشوائب، ليصبح طرح النهر - أو طرح البحر - مصطلحا معروفــاً يقع دائما في دائــرة اهتمام خبراء الشــواطئ والموانئ وعلماء البحار، ولعل المدينة المصرية مرســى مطــروح هي الوحيدة التي أعرف أنها اســتأثرت بذلك داخل اســمها دون المواقع والمدن العديدة الأخرى الناجمــة من هذا الطرح،ربما خشــية من الاعتقاد بــأن هذا الأمر قد يؤدي بالمدن إلى أن تصبح طريحة الشــواطئ مثلما نقع فيه نحن لنصبح طرائــح الفراش، مع أن الأطروحة الكبــرى - والجميلة - أن يكون ذلك صفة للقصيدة الجميلــة في المنتدى الجماهيري الدافئ، لتتوالى بعدها أنواع من المطارحات التي فقدناها في المجال الخاص الذي يشــعله شوق العشــق حينما يتطارح اثنان - ذكر وأنثى - في همس التواصل الإنساني ذي الإيقاع البليغ على مساحات الصمت... البليغ أيضا.

وعندمــا يدهم الشــجن حياتنا - ليصبــح حزنا ضاغطــاً - تنطرح الذكريــات جاذبة كل أشــواك الأســى التاريخي: في الأســرى - خلال الحــروب - المنطرحــين أرضاً، والأمنيات - خــلال الهزائم - المنطرحة فــي الجهاز العصبي تعوقه عن التســامي والتحليق الهائم، حيث يصعب علينــا أن نطرح الهموم جانباً، ونقع في اختنــاق الطرحة المطروحة بين قواقع المياه بحثاً عن أسماك تتشبث بها حتى تطفو فوق السطح، إذ تظل الطرحة أداة للصياد الجوال على الشــواطئ وللصياد الجوال - أيضا - في الغابات بين الأشجار الكثيفة بحثاً عن قرد أو نمر أو ثعلب أو أرنب،أو حتى جرذ أو سنجاب أو ثعبان في كثير من الأحيان.

ومن أكثر المشاهد العصرية انتشاراً الطريقة التي يطرح بها السياسيون أو نــوّاب المجالس أو رجال النيابة أو المحامون: أفكارهم على من يودون أن يقتنعوا بها من أصحاب الســلطة من حكام وقضاة وذوي القدرة على اتخــاذ القــرار، حيث يلجأون إلى أنواع من البلاغــة في الأداء وتحريك

الأذرع والاهتــزاز الدرامــي المتداخل مع ما تحويه الذاكرة من مشـــاهد أفلام الســينما ومسلســلات التلفزيون، حتى أننا نضحك في لذة حتى نكاد ننطرح أرضا، دون أن ندرك أن الفاصل بيننا وبينهم طرّاح شاســع، أي مكان بالغ الاتساع.

إلا أن كل شــئون الطــرح والتطارح والانطراح تتصهــر - كلها - أمام الطرحة الوحيدة البيضاء ذات الإشــعاع المتناغم مع الأضواء وإيقاعات الرقص وأمنيات الســعادة، تلــك التي تتألق فــوق رأس عروس تتأهب لتدخل عالم الســعادة المطروح في وجدانها، دعك مما سوف يحدث بعد ذلك من أمور تنطرح الآن في عقلك يا صديقي، والتي تراها في ملابس العريس والتي تظل ســوداء ليظل مضادا لما ترتديه العروس ذات التألق ناصع البياض.



● أخطر أدوات الابتزاز ليست الأذرع أو السكين أو المسدس، إنها العيون: عيون الأنثى بالذات.

● الدليل على أن فن الشعر يعشق الهواء الطلق، أنه يجمع كل بيت منه ليصبح أبياتا، دون أن يصبح بيوتاً مثل تلك التي نعيش فيها.

● الشمس تتعمد السخرية بأفكارنا: أنظر للعمائر أو الجبال أو أشجار النخيل الشامخة حينما تتعامد عليها الشمس فتفقد ظلها، ثم لا تلبث أن تتحرك فتجعل للفئران والأعشاب والعقارب ظلاً ممتداً.

● حاول ألا تيأس بسرعة، إياك أن تيأس ببطء، إنه الموت.

العقار.. والعقيرة *

لـ كان لنا صديق - في مراحل حياتنا المبكرة - ذو عقيرة بالغة العذوبة، وظل صوته بجماله الفِطري ينقل ألحانا وأغاني ذائعة لمحمد عبدالوهاب وزكريا أحمد وأم كلثوم، حتى داهمته رغبة أن يصبح ذا عقار، أي يمتلك مبنى مستقراً ثابتاً لا يمكن نقله أو تحريكه، فاختنقت العقيرة بين حوائط العقار، ولم يكن يمتلك القدرة الكافية لتشديد (قاف العقار) ليصبح دواء يعالج به ما أصاب عقيرته، دعك الآن من كونه رحل عن الحياة - يرحمه الله - عاقراً دون إنجاب منذ شهور قليلة، ودون أن يدري - لو أنه امتلك قدراً من الإدراك اللغوي - أن العقر - بفتح القاف - إذا أصاب أحدنا فإنه يعني أننا نظلّ في مكاننا لا نتقدم ولا نتأخر، في عصر مثل هذا العصر الذي يضغط على أعصابنا الآن ليحاصرنا بأهمية ألا نقع في معاقرة ما يحاصر حركتنا: الجسدية والعقلية.

ولعل الإدمان على معاقرة الخمر هو أخطر ما داهم الإنسان خلال مختلف العصور، وكل الأديان، وعلى قمتها الدين الإسلامي الحنيف، وما ترتب على ذلك من حضارات، وعلى درجات متفاوتة من تحريم صريح حتى تنبيه واعظ، وفي مجال الطب والصحة وعلم السموم، تقع معاقرة الخمور (والمخدرات التي لا نميل إلى استخدام معاقرتها بديلا لتعبير الإدمان) تحت سطوة التحذير الواضح الصارم، وهو ما يؤدي بنا إلى الانتباه الضروري لما حدث من اتساع مذهل في معنى المعاقرة

* العربي - العدد ٥٣٦ - يوليو ٢٠٠٣

خـــارج دوائر الخمـــور ثم المخدرات، لتصل إلى الوقـــوع في دوائر أخرى تبـــدو طيبة وجميلة إذا ما ظلت ذات نســـبة معقولة في حياة من تتحقق شـــخصيته فيها: معاقرة الشـــعر إلقاء وإبداعاً، وفـــن القصة، والرواية، والموســـيقى، والرســـم، والرحـــلات، والتجوال فـــي المواقـــع التاريخية، والتجديـــف في البحار، والإمعان الفلســـفي في الحيـــاة: تدويناً أو بحثاً - مع قضاء بعض الوقت في مجالات الآفاق الممتدة عند غروب الشمس، أو البحـــث العلمي، ثم يجب ألا أهرب من الـــروح التي تميل إلى نوع من المرح لا يتســـع - عند إدمان معاقرته - حتى لا يصبح سلوكاً غير مريح، مـــع أهمية الربط بين الكلمتين: المرح - و - المريح، كي لا نجد أنفســـنا في مأزق المنافسة على المعاقرة. يقولون عاقر فلان فلاناً: أي سابقه في عقر الإبل تظاهراً بالجود والكرم والســـخاء رياءً وتحقيقاً لشهرة وسُمعة بـــين الناس، فلا يـــزالان يعقران حتى يُعجز أحدهمـــا الآخر، وكان ذلك في الجاهلية، ونهى عنه الإســـلام، لكنه استشـــرى في العصر الحديث خلال المنافســـات الشـــهيرة في المصارعة والملاكمـــة، ومعاقرات أخرى تودي بواحد من المعاقرين إلى الهلاك، أو بكليهما معاً.. حتى في الكلام المنطلق منافســـة بين متحاورين على المسرح إثارة للمتعة بين الجماهير، حيث يداهم الإرهاق أحد المتباريين - معاقرة لاندفاع الكلام - ليســـقط منفعلاً ميتاً بين تصفيق عارم بالغ الاستمتاع.

وصفة العاقر التي تلازم البشـــر والحيوان الـــذي لا يلد، تتحرك إلى الطيور للتعبير عما يصيب ريشـــها من آفات تعوق نموه، فإذا انعقر ظهر الدابة: فقد أصابه جرح مؤثر في حركتها، أما إذا انعقر البعير والفرس - دون تحديد الظهر كما في الدابة - فتعني مباشرة: أن قوائمها ضربت بالســـيف، فإن داهمت الكلب صفة العقور فإنه يصبح ســـعراناً متوحشاً مُدمناً للنهش والعض الذي قد يصل إلى حد الافتراس، ويبدو أن (العُقْر): أصل كل شـــيء، وعقر الدار وســـطها، وعقر القصيدة: أحسن أبياتها - وهو ما لا تخضع له قصائد - أقصد أنواع الشعر الحديث جداً، فإذا ما أصابـــت صفة العقر بيضة الدجاجة فإنهـــا تعني أول بيضة تبيضها في حياتها، مـــع أن العقرإذا أصاب الدجاجة فقط فإنها تصبح عاقراً لا بدّ من رصدها ومتابعة حركتها كي تصبح - بعد ساعات طعاماً شهياً، فإذا

أردت المزيد - قبل الاستمتاع بالدجاجة المشار إليها - فإن العقر أصل النار الذي تتأجج منه، أعني أن الفحم يظل فحماً حتى يبدأ في الاشتعال فيصبح عقراً، وإذا كان العقار هو الدواء - أي دواء - فإن العقر منه هو الدواء الذي يمنع الحمل، لاحظ أنها الصفة المعكوسة بين الدواء والمرض الذي يعالجه، فالعقرة - مع أهمية أنها تعني العقم كما أسلفنا - إنما هي تعني أيضا الخرزة التي تحملها المرأة كي لا تحبل، انتبه يا صديقي فإن عقرة العلم النسيان، أما عقرة التاريخ فهي التزوير، وعقرة الحضارة هي التزييف، وعقرة الأخلاق هي الانغلاق دون الانفتاح على المعنى الخصب - أو الخصيب - للصداقة والتواصل الإنساني.



● كنــت أبحث في القاموس عــن (العقرب) فوقعت - وأنا أدري - في (العبقرية)، فاضطررت أن ألوذ هرباً منهما.

● كل مــا في عقلك من أفــكار، وكل ما في جيبك مــن أوراق مالية: لامستها أيدي الآخرين.

● الفرق بين النباح والعواء هو المسافة بين الاحتجاج والنحيب.

● أنواع عديدة من الأعشاب والكلأ والأشواك تتناثر على وجه الأرض، لماذا لم يقولوا: تتناثر على ظهر الأرض؟

● اســتطعت الحصول على قطعة أرض في منطقــة المقابر، وفور أن سلمتها لورثتي: أقاموا المدفن بسرعة مذهلة.

الغَمْز*

أي لغة في العالم- قديما وحديثاً - في حاجة بالغة للغمز، حيث تضطر -هذه اللغة - إلى أن تستعين خارج حروفها المنطوقة بغمزة عين أو جفن أو حاجب أو إصبع، لتشير إلى تأكيد المعنى، أو لزلزلة المعنى، أو نقضه تماماً، أو التشكيك فيه، أو التعبير المسبب للحرج حتى لا يقع النص المنطوق تحت طائلة القانون، والقوانين العقابية الحديثة تدرك ذلك لكنها - ونادراً - ما تستطيع توثيقه، لأن الغمز فن بالغ المهارة، يمكن لي - إن أجدته - أن أدس في إشاراته المنطلقة بعيداً عن لغة اللسان ما أعجز عن نطقه أو كتابته.

ومع ذلك فإن اللغة ذاتها لها غمزها الخاص، مثل تلك التقارير التي تبدو بريئة لمصلحة موظف لا يميل رئيسه إلى ترقيته، حيث يصفه بصفات عديدة من الأمانة والإخلاص والمواظبة على الحضور إلى العمل - حتى في أيام العطلات والإجازات الرسمية، وعندما تطفو هذه المواظبة خارج أيام العمل تبدأ الأسئلة المندهشة من لجنة الترقية التي تعلم أن المؤسسة تغلق أبوابها ونوافذها في غير أوقات العمل، وتبدأ علامات الاندهاش في سحب أنواع من الغمز الشائك حول سلوكه، وحول امتلاكه لمقر إقامة خارج المؤسسة، حيث تبدأ عيون اللجنة في ممارسة غمزها الخاص الذي - وفي هدوء - يسحب الموظف المشار إليه من المنطقة العليا في قائمة الترشيح.

* العربي - العدد ٥٣٧ - أغسطس ٢٠٠٣

وكل صنــوف الإبداع - أدباً أو فنّاً تشــكيليا أو رقصاً بأنواعه - تميل إلى الغمز، وهو مــا يصفه النقاد ببلاغة التعبير، كيف؟؟ انظر إلى غمز صبري موسى في روايته القصيرة (حادث نصف المتر) عندما اصطحب صديقته إلى شــقة زميل له ففتحت الباب امرأة تشبه الأمهات، ثم انظر إلى ابتســامة الموناليزا في لوحة ليوناردو دافنشي الشهيرة وقد تسربت من عيونها إشــعاعات غمز تشــي بما لــم يرد في الابتســامة واليدين المسترخيتين على الصدر، وعليك ألا تهمل الوقوف تحت سطوة تصاعد الموســيقى المصاحبة لصوت أم كلثوم انفعالاً بحال الهوى المفعم بشــجن الرغبة في التواصل، حينما تشــير بذراعها، فتوقف الموســيقى، وتتفتح عيونهــا على صوتها المتصاعد منفردا، والمهتز حتى تصل إلى أوج الغناء، لتســرع الموســيقى خلف الصوت الذي لا يلبث أن يبــدأ في النزول إلى درجة الهمس - أقصد: الغمز، حينذاك ســوف يكون مناســبا أن تتذكر كل جســد جميل راقص يتماوج ويتحرك في سلاســة، فهل تستطيع أن تتخلص من العيون الراقصة لحســاب الإمعان في الجســد فقط؟ غمز العيــون - بالتأكيد - مختلف عن بلاغة الجســد، وهــو ما لم ينتبه إليه شاعرنا العربي الكبير: عمرو بن كلثوم حينما هتف في فخر:

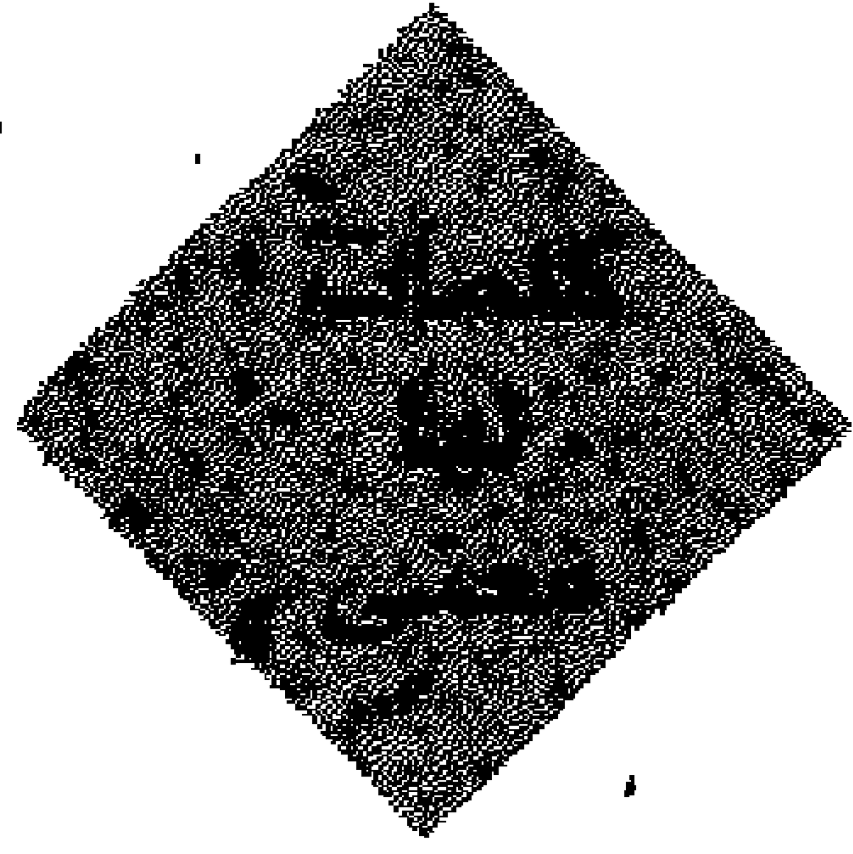
إذا بلــغ الرضيــع لنــا فطامــاً

تـخـرّ لـه الجـبـابـر سـاجـديـنـا

فاقتحم هذا البيت الشــعري الفخيم أن ينتبــه المتعاملون معه - نقدا ودراسة - أن هذا البيت الشعري الذي يخلو من الغمز، أثار غمزاً له شأن مؤثر في عيون وأمخاخ مستقبليه.

إلاّ أن الغمز الأكثر خطورة من فنون الرســم والشعر والغناء، هو ذلك الذي نحس به - ونراه بشــكل واضح، في البيانات السياسية، سواء من يلقيها أو يشــير إليها، فالغمز يخرج من منطقة العين والجفن والحاجب إلى اهتزاز واضح في الصوت، أو انقطاع الوصل بين جملتين متماسكتين، وهو ما يخرج - أصلاً - من التعبيرات المبكرة للأحياء قبل أن نصل إلى مرحلــة النطق، أي عندما كان الغمز يرتبط بالدابة (عليك أن تتذكر أي نــوع يعجبك من الــدواب دون أن أغمز لك)، حينمــا كانت تميل برجلها - غمزاً، في خطوة أو خطوتين تشــبهان حالــة العرج، ثم لم يلبث الغمز

أن دخل دائرة الأخلاق: غمز بفلان أي سـعى به شراً، وغمز على فلان: طعـن فيه (لاحظ التغييـر الذي طرأ على حرف الجـر في الجملتين)، وغمـز بيده الكبش أو النعجة: جسّـها ليعرف مدى سـمنتها أو هزالها، وغمز الفاكهة ليعرف مـدى نضجها، وغمز النص الأدبي ليدرك أغواره والكامـن من تعبيـرات داخله، أما إذا جاء الغمـز مرتبطا بالجرس، أي زرّ الجرس، فإنـه يعني: ضغط عليه بإصبعه ليصلصل أو يدق أو يندفع رنينه، الأخيرة جاءت حديثا في معجم لغوي عصري، دون أن ننْتبه جميعا أن الغَمـزَ - حينما تصبح حروفه كلها مفتوحة دون سـكون الميم - فإنه يعني الرجل الضعيف، ورديء المال، لكن هذا الغمز إذا عاد إلى سـكون الميم فإنه يدخلنا إلى عالم الغمز الواسع ذي الغمازات حين وقوع السمكة في الشص، أو تحريك الأصابع فتحاً وإغلاقاً لثقوب الناي والمزمار أثناء الاسـتعمال الموسيقي، أو الغمازة الأخطر، إنها صفة للفتاة حسنة الغمز باللغـة أو اليد أو اللسـان.. أو الصمت أيضا.. لقـد نجحنا في الكتابة عـن الغمز دون ربطه باللمز، من بـاب التظاهر بالأخلاق الكريمة، حتى لا نستدرج إلى غمزة الخدود الجميلة، علينا أن نصمت الآن.



● نســتطيع – بقدرة فائقــة – أن نهتم بالنوافــذ، وتجميلها بالألوان والستائر، مع أهمية تعويقها حتى لا تنفتح بسهولة.

● كلمــا التهمت الطيــور الحبوب وبقايا الفاكهــة، ازدادت رغبتنا في التهــام لحومهــا، أما الطيور التــي تأكل اللحوم فإننــا نمعن في طريقة طيرانها فقط، نحن البشر نأكل الحبوب والفاكهة واللحوم لنصبح هدفا لتلتهمنا كل الأنواع.

● إذا تركت يديك بين يدي أنثى: يصبح كل ما في ذهنك صحيحاً، أما إذا تركت الأنثى يديها بين يديك: يصبح كل شيء في العالم صحيحاً.

● أمــواج البحار تتــاورك كي تكتب قصيدة جديــدة، ينتهي الأمر بك – وبها – إلى نوع من المتعة جلوساً على صخور الشاطئ.

السلق والسليقة *

سـوف أحتمي بسـليقتي حتـى لا تحاصرنـي بعلمك، دعنـي أعترف أننـي - في حالات عدة - أظل منطلقاً في سـعادة قصـوى هاجراً كل أنـواع الإدراك العلمي الضاغط في آفاق أزيز الطائرات وضجيج التسـجيلات وتصريحات ذوي الشأن، وتراقص مشاهد أجساد المغنيات - أو الغانيات، وألوان مانشـيتات الصحف والمجلات، وتحذيرات الأطباء وخبـراء الضرائب وضباط الشـرطة ورعاة التربية والثقافة والتعليم والأزياء - مع إضافة النشرات الجوية الحـارّة الممطرة، ثم البئر المضيئة بظلام تحليلات الحوادث وسـلوك الأحداث، وموعظـة المقدمات التي تؤدي إلى الأفعال الشـارخة للمشـاعر، حيث لا يبقى سـوى سـلوان مضطرب يؤدي بي إلى نوم يبدو هادئا، لأتسلّق على فراشي قلق الهمّ والوجع، وربما - لهذا السبب وكما جاء في المعجم: السِّلق هو الذئب، ثم إن السِّلق نوع من النبات (عرفته جيداً في الأحقاب الأولى من عمري القروي)، إنه بقلة - من البقول - لها ورق طويل غضّ طري يؤكل مطبوخاً، وكلنا نعرفه دون أن يحظى بموقع مناسب في ذاكرتنا العصرية، تلك التي جاءت في جهازنا العصبي إثر تفاعل مزمن مع تيارات الكهرباء ودوراتها المغناطيسية في الأجهزة ومجالات الرؤية وشرائح المأكولات والعواطف والنسيج الصناعي الجميل الملامس للأجساد والمثير للرغبات والأمنيات.

والسـليقة هي الفطرة، أو الطبيعة التي تختزن الفطـرة لتظهر في تلقائيتها البسـيطة دون تعقيد، يقال - كما تعرف يا صديقي - فلان يتكلم بالسليقة: أي

* العربي - العدد ٥٤٠ - نوفمبر ٢٠٠٣

ينطق بالكلام صحيحا من غير تعلّم، كما أن السليقة تطلق على ما ينسجه النحل في خلية العسل طولاً، ما هو؟ لم يذكر القاموس إفصاحاً عنه أو تعريفاً علمياً به، كما أننا ورثنا صفة السليقي تعريفاً خاصاً لمن يعيشون في البراري، والذي جاء عنه قول الشاعر عن نفسه:

ولست بنحوي يلوك لسانه

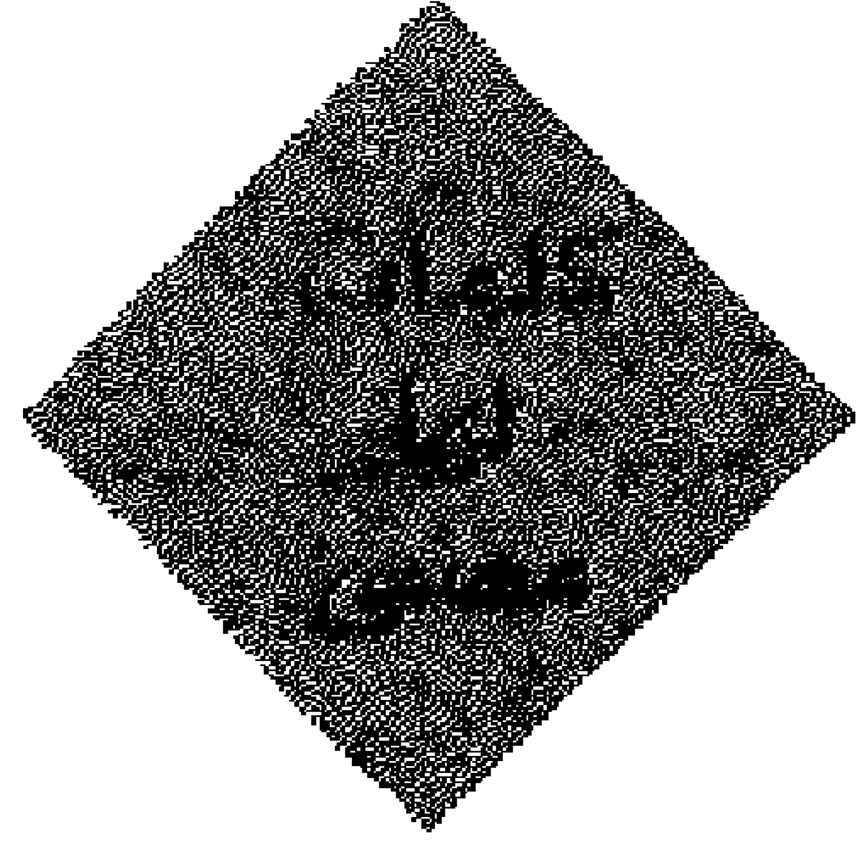
ولكني سليقيٌّ أقول فأعرب

ولقد حاولت - مراراً - أن يكون مأكلي - في المدينة - من السليق الخالص: أي اللحم والخضر تسلق بالماء دون أن يضاف إليها أنواع من السمن أو الدهن أو الزيت أو الأفاويه (أي مكسبات الطعم والرائحة)، ولقد نجحت في ذلك ثم لم ألبث أن أحسست بوحدة بالغة، فقد كانت أمي تفعل ذلك بفطرتها القروية، إلاّ أن زوجتي - والتي هي بلا فخر من المدينة - كانت تفعل ذلك لي وحدي، أرى المائدة تتألق بأنواع من المطبوخات واللحوم المحمّرة وقوارب الروائح النفّاذة المثيرة للاشتهاء خارجة تواً بأوراك وصدور الدواجن من الفرن، وعيوني - التي ليس من السهل أن أغلقها - وأنفي - الذي من المستحيل أن أحول بينه وبين شم المتعة المشتهاة، وحركة أمعائي التي تئز من الإحساس باحتمالات وصول السليق (أو الحساء أو الشوربة) إلى الفم والبلعوم دون تدشين أو اشتعال الفلفل والبصل والثوم مع الكمّون، كل ذلك يتفاعل بعيداً عن أعضائي وأجهزتي فأحسّ بوحدة تدفعني بالشجن اليتيم المعروق، فأكاد أترك المائدة - حيث لا أستطيع التراجع في الاكتفاء بطبق اللحم المسلوق المشار إليه - وأقف في الشرفة وحيداً في الدور الخامس، وحيداً عنيداً، وجائعاً أيضاً.

لكن هذا الأمر الذي تراجعت عنه مراراً، هو ما أدى بي إلى أفكار قادرة على تعويضي - النفسي - بعض الوقت في مسائل لا أستطيع مواراتها بصفة دائمة - حتى لو كشفت عما أملكه من جهل خاص، فبناء على فهمي أو إدراكي أو إحساسي بهذا السحر الذي تسبغه السليقة وتفرزه الفطرة في عقلي: أكتشف أن جميع أنواع المدارس والمعاهد والكليات الجامعية التي تدرس الهندسة - المدنية في هذا المثال، أقصد هندسة الإنشاءات والمباني، يخرج منها عدد مذهل من المهندسين المعماريين، يرسمون ويخططون سمك الحوائط والأسوار ومدى عمق أساساتها في الأرض، مع دراسة وبحوث في الأنواع المناسبة للمباني لأرض معينة بما فيها من تربة ورمال وطمي وحصيّ، وتماسك أو تفتت بالرطوبة وتسلل المياه، وعندما يبدأ البناء يقف المهندسون يراقبون تنفيذ ما خططوه ورسموه من كل

أنواع الارتفاع والزوايا وتفصيلات التداخل والبروز والقدرة على تحمل السقوف، لكنهم - كل المهندسين - يراقبون ويشيرون أو يأمرون فقط، دون أن يمتلكوا تلك القدرة السليقية التي تجعل القائم بالبناء صعوداً من الأساس حتى ارتفاع الجدران، وقد جلس في همة ونشاط، وبإحدى يديه المسطرين: الأداة المعروفة يسوي بها الآجر - طوباً كان أو أحجاراً، ويضع بالمسطرين الملاط (أو المونة ذات الخليط من الاسمنت والرمل الناعم)، واليد الأخرى ترتفع إلى أعلى - بالفطرة المدربة لتتلقى المزيد من الآجر، وعندما تقع قطعة الآجر من يد البنّاء تثير في العمال المنتشرين في ظلال الحائط - نوعاً من السخرية المرحة، لتتدفع أغنيات الصبر والقدرة على التحمل تخفيفاً من الأعباء أو احتمالات سقوط طوبة أو حجر مرة أخرى.

وقد ترتب عن أفكاري - غير المتقنة هذه - أن ظللت أزعم أن المدينة بمافيها من كهرباء وآلات ومجالات مغناطيسية، نجحت في تدمير السليقة والفطرة، فلم تستطع أن تنجب بين جدرانها واحداً من الحواة، والحاوي - كما هو معروف - ذلك القادر على استطلاع الثعابين والعقارب في مخابئها المظلمة، ثم هو الذي يمكنه أن يظل يتمتم ويهمس ويصرخ بلغة لا ندركها ولا نفهمها حتى لو كانت ذات أوامر ونواه، حتى يخرج الثعبان من الظلام ويظل يزحف في الضوء لتمتد إليه يد الحاوي فتمسك رقبته رافعة الثعبان - أو العقرب ذات الذبان الشرس المسموم - لتستكين بين يديه، يقولون هذا دجل، وهذا تمويه وافتعال قدرات فائقة، لكني - وبعقل واع وبصر ثاقب - رأيت ذلك - مثلك يا صديقي - مراراً، واستطعت أن أفهم الفرق جيداً بين الصفتين، لاسيما أن المدن - أيضا - لايمكنها أن تفرز من بين قاطنيها - من يمكنه أن يكون قصاصاً للأثر، عساساً، يسعى في الآفاق الممتدة رمالاً أو براري أو غابات، ليصل بوسائل غامضة ونفاذه إلى مكامن الهاربين والحيوانات والحشرات، إنها السليقة ذات الحساسية المرهفة، والتي لم تتساقط قطعاً تحت نظريات الطاقة والكتلة ومربع سرعة الضوء وآلات الرؤية عن بعد، والأشعة الحمراء واندفاع الصواريخ والأقمار الصناعية في تيارات العلوم والمعرفة والقنابل ذات المجالات المؤثرة، والتي تظل حائرة أمام طبق ملوخية بالأرانب المسلوقة بروائح الفطرة الجميلة، والتي يمكن لك أن تحس بها إذا ما قرأت نصا أدبيا إبداعيا كتبه أبناء البراري بعيداً عما أحدثته المدينة في هذه النصوص من تحطيم حداثي.. بالغ الروعة والرعب أيضا، وبالتالي فعليك أن تحتمي بقدرتك العلمية الفائقة.. وتتركني أمام طبق السليق الجميل.



● انظــر لأصابعك وهي تمتد إلى لقمة خبز لأنك جائع، إنها تكاد تشــدو بما لا يمكن أن يدركه الشبعان.

● يقولــون عني: مبــدع يتأبط شــراً، فأفكر في اغتيالهم فــي قصة جديدة لا أثر لهم فيها.

● ليس صحيحا هذا المثل الســائر: الأقارب عقارب، فالعقارب تميل إلى نوع من المراوحة والتلاقي يندر أن نجدها عندنا.

● رأيت نقودا تتطاير أثناء مشاجرة، فكدت أمتلك جناحين.

القرن... وقرونه الأخرى *

مازلت أمعن - ضيق الصدر - في مسألة أن زوجتي هي قرينتي، وأنني: قرينها، فتجتاحني قرائــن الاتهام ثم الإدانة في القضايا ذات الحيثيـات العصرية المتواترة في الصحف والمجلات، مع أن القرين - بصفته الرفيق المصاحب (لم أقل الصاحب المرافق كي لا تكتمل دوائر الاتهـام) - وارد في كل الصفــات الزوجية الصافية الأمينة على حوائط وأوراق آثار الأقدمين خلال الحضارات المتعاقبة.

إلاّ أن الأمــر يصبــح هادئًا عندمــا نتذكر بداية ظهور قــرون الفول الأخضر البلدي والبَعْلي، إشــارة إلى متعــة الأكل الطازج لهذه الحبوب المنتظمة الغضّة - كالقصائد والموســيقى - داخل القرون، قبل أن تنضج وتصــل إلى مرحلة الجفاف. ولعــل اقتطاف قرون الفول من نباتاتها في الحقول أعمق تأثيرًا في النفس - والمزاج الإنساني - من شرائها آكوامًا صغيرة في كفة ميــزان الباعة، وعليك ألا تغادر هذه اللحظة الصبيانية المفقودة الآن في القرون الحديثة، ولاســيما القرن الذي مضى من ثلاث سنوات، ثم ذلك الضاغط على أعصابنا الآن بما فيه من ويلات الحروب والانفجــارات والمذابح والاجتياح، والغمّ التاريخسي الذي يبدو أن قرونه لن تتكســر أبدًا لنصل إلى مراحل الهدوء والألفة والمراوحة بين نفوسنا والبراري والمراعي والحقول الخضراء، لنرى - ونستمتع - بذوات القرون التي تهيم بفطرتها الحرّة دون مشاكســة وتناطــح هجومًا ودفاعًا، ذلك

* العربي - العدد ١٤٥ - ديسمبر ٢٠٠٣

أن هــذه الحيوانــات - الثديية بالذات - تملك ثلاثــة أنواع من القرون: قــرون جوفاء يتوســط كل قرن عظم ينمو من الجمجمــة كما في البقر والجامــوس والأغنام والظباء، ثم لا تلبث أن تتفرّع القرون إلى أشــكال تذكرك بأغصان الأشــجار الجافة المتداخلة كمــا في الأيائل - والتي - في ثالــث أنواعها: تتشــعب القرون حتى تكاد تجــذب كل الأنظار دون الانتبــاه إلى تكوين حاملها لتجمع بين قــرون البقر والأيائل، ليكون قرن الخرتيــت، وهو غير الكركدن الذي يكون قرنه ذو الشــكل الاســتثنائي الفريد: ناميًا فوق أنفه، إنه وحيد القرن والذي يمكن - بحمقه المعروف - أن يكــون وحيد القــرن العصري أيضًا، والذي يظــل متأهبًا لمداهمة الجيران والأصدقاء تنفيذًا لرغبات غير مدروســة، الإشــارة قد تعني - دون أن أقصد - بعض الحكام وحيدي القرن العســكري الدموي المروع، فوق الأنف ليحجب النظر، وداخل الجمجمة أيضًا.

وقد لقب الإسكندر الأكبر المقدوني بذي القرنين، قيل إنه سُمّي بذلك لأنه كان على جانبي رأســه خصلتان عظيمتان من الشعر تشبهان قرني الحيــوان، أو لأنه بلغ - بجيشــه قطــري الأرض، وبالتالي فإنه المقصود بالنــص الكريم ﴿قلنا يــا ذا القرنين إما أن تعذب وإمــا أن تتخذ فيهم حســنًا﴾ الآية ٨٦ من ســورة الكهف، وقد أطلق هذا اللقب على كثيرين كالمنذر الأكبر والأقرن ملك اليمن، إلاّ أن الأمر يدخل في دائرة شــديدة الحساســية - والحرج - حينما يكون القرنان صفة لشخص ما (دون أن يكــون اللفظ صياغة لمثنى قرن)، إذ إن القرنين نعت ســوء للرجل الذي لا غيــرة له على أهله، إنه نعت مشــهور بيننــا دون أن نتجرأ فنكتبه أو نسجله، مع أنه مرصود في (المعجم الوسيط) بطريقة هادئة دون اقتران الأمر بالحرج، كما أن القرنين مرسومان بوضوح في كل التشكيلات التي تناولت إبليس زعيم الشــياطين ذا النشاط الشرير المداهم للنفوس منذ الحادثة الشــهيرة التي أودت بأمنا حواء وأبينا آدم للنزول من الفردوس إلى ذلك العالم المرهق، حيث ولدنا جميعا فيه.

علينــا أن نتنفس قليلا لعلّنا نجد من يســتضيفنا فــي القرن الذهبي - ذراع البوســفور التركــي - حيث تقــع مدينة اســتانبول، والتي كانت بموقعها الفريــد وجمالها الراقي عاصمــة للإمبراطورية العثمانية في

العصـور الحديثة، وكان اسـمها القسـطنطينية في العصور الوسـطى والقديمة، وهي الآن تضم كنوز الفن الإسـلامي وآثار حضاراتنا بالرغم انتقال العاصمة إلى أنقرة عام ١٩٢٣، فإذا استعصى علينا أن نصل إلى القرن الذهبي بتاريخه وجماله فيمكن لي أن أشير إلى قرية القرنة، ذات الطبيعة الجبلية قريبًا من وادي الملوك (أشـهر منطقة أثرية في العالم) فـي الجبل الغربي المقابل للعاصمـة القديمة طيبة، والتي أصبحت الآن مدينـة الأقصر المعروفة، وتنتشـر منازل قرية القرنـة بين قبور الأفراد (وليست قبور الملوك والحكام)، منذ عهد الفراعنة، وهي التي كتب عنها الروائي الراحل فتحي غانم عمله الشهير: الجبل، أيام أن حاولوا تهجير سـكانها إلى منطقة أخرى بعيدًا عـن القبور الأثرية التي يداوم الأهالي الحفـر فيها بحثًـا عن كنوز الأقدمين. وقرية القرنـة الحديثة هي التي خططها ورسمها وأشـرف على إنشائها المهندس المصري الشهير حسن فتحي، ومـع أن تكوينات بيوتها عصرية وصحية، فـإن الهجرة النهائية لـم تتم من القرنة القديمة إلى الحديثة حتى الآن، والمشـهد - من بعيد - يتيح لـك رؤية القريتين لتحس بما يعنيه التمسـك برائحة المكان ذي السطوة المعروفة على نفوسنا نحن الشرقيين - والعرب - بالذات.

وليس من السـهل أن نبحث عن وسـيلة للخروج من مأزق القرون دون الإشـارة إلى مدينة القيروان التونسية التي أنشأها الفاتح العربي عقبة ابن نافع في بواكير العصر الإسلامي، والتي تشتهر حاليًا بصنع السجاد المنافس للسـجاد الإيراني (دعك الآن من أن السـجاد الصناعي ضغط على أعصـاب النوعين) كما أن بالقيروان جامعًا ذا شـهرة معروفة في جماليات بنائه وقبواه ومئذنته، وقد يؤدي بنا ذلك إلى نوع من المقارنة في هندسـة إنشاء أشهر المساجد في كل دول العالم، وهو أمر لا نستطيعه، تمامًا مثلما حدث لي حينما جرني الموضوع إلى الأدب المقارن والتشـريع المقـارن، والذي جعلني ألوذ بقارون - أشـهر وزراء الفراعنة المصريين، والـذي ورد ذكره فـي القرآن الكريم ثلاث مـرات، أقصد ألوذ ببحيرته فـي الفيوم - غرب وادي النيل - كي أتنفس في الهدوء الجميل المتسـع استقبالاً لشروق الشمس والمبتسم في شجن لغروبها آخر النهار.



● أكثر أعضاء الجسـد حنوًا وأمومة: الجمجمة حينما تغلق كل ثقوب أو نوافـذ الخطر كي لا يصل الهواء إلـى المخ - ابنها أو جنينها الوحيد، الذي يستنيم داخلها - في أمان - إلى الأبد.

● الأسـتاذ الذي داهمنـي ببحث في مجلة أدبيـة نقدية عن إبداعي الرائع في مثل هذه الكلمات، سوف أرفع عليه دعوى تعويض، لأنه وضع عنوانا للبحث: مستجاب.. يتأبط شرًا، وتكرر الإعلان به عن المجلة.

● ليس صحيحًا أنك الأذكى، الأكثر دقة إنك الأقل غباء حتى الآن.

العضو... والعضوية*

لم تستعمل - أو تستخدم - كلمة في العصر الحديث - مثل كلمة (عضو) لحد الاستهلاك أو الإهلاك، فإذا كان العضو واحدا من أعضاء الجسد، كاليد والساق والأذن والعين والمخ، ثم أصبحت الكلمة صفة للمشترك في حزب أو شركة أو جماعة أو نقابة، فإن هذه الصفة اندفعت تفسيرًا مؤثرًا لعضويات أخرى في تشكيل المحاكم، ولجان التحقيق، والعصابات، والتنظيمات السرية، والمجموعات الاستشارية المساعدة لتكوينات وأنشطة النظم الحاكمة (لاحظ أن التنظيم لفظ يسعى دائما كي يصبح نظامًا، وكثيرًا ما يتم اكتشافه والإيقاع به قبل أن يحقق هدفه)، والعضو دائمًا يقع في كل هذه المآزق المفعمة بالروائح المضطربة: ثورية كانت أو ثأرية أو مجرد احتفالات يميل إليها العصر القائم، والذي يزهو بالكيمياء العضوية والبيولوجيا وعلوم الوراثة في بعض الأحيان.

وأعظم - وأخطر - الأعضاء (دعنا مما تفكر فيه الآن) هم الذين ينتمون إلى نقابات المهن الطبية: علاجًا أو جراحة أو تشريحًا أو تنشيطًا أو تجميلاً أو تحليلاً أو بترًا أو تمزيقًا - وأي مصطلح آخر يخترق الأفراد والجماعة والأسرة والمجتمع، ثم - في مجال الأخطر بالذات وليس الأعظم - أعضاء أنشطة المهن الهندسية المندفعة نظرياتهم وقدراتهم: صواريخ وقنابل وأشعة في أعالي السموات وأعماق البحر

* العربي - العدد ٥٤٥ - أبريل ٢٠٠٤

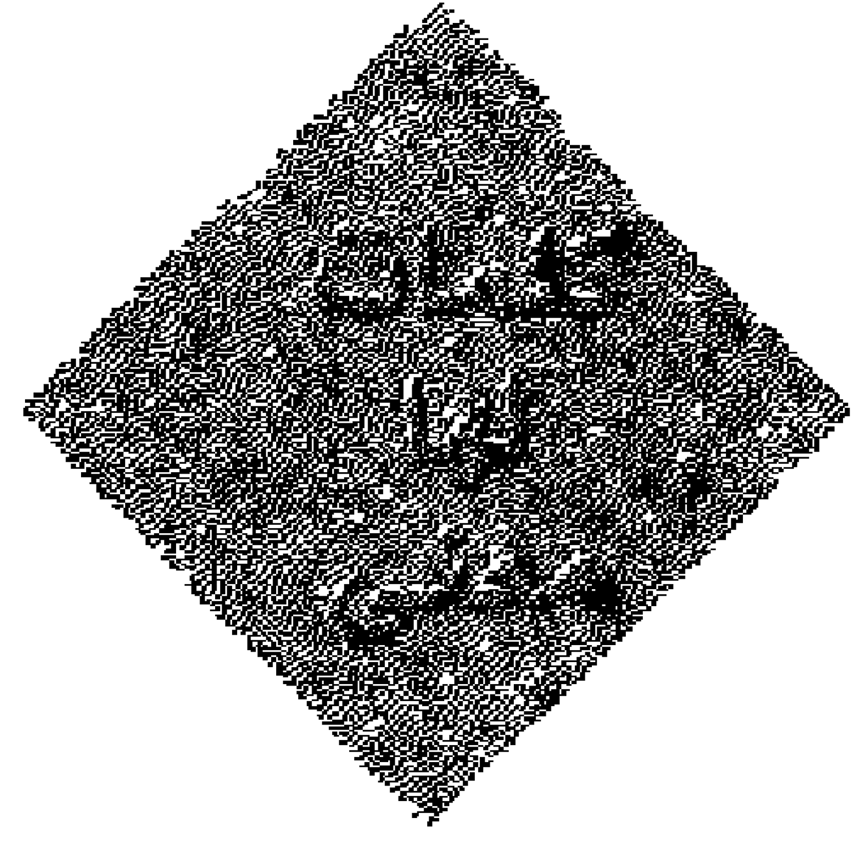
والأرض وشاشات التلفزيون والأخلاق والتقاليد والنظريات الاجتماعية وقواعد السلوك ومجالات الأقمار والنجوم، إلا أن أعضاء عديدين في مجالات أخرى يقومون بأنشطة لتعويض النفس بالمتعة المفقودة عن طريق الفن والتمثيل والغناء والسمر المتراقص على أضواء الضجيج، ومجالات الإبداع التشكيلي والقصصي والشعري تحاول أن يظل لها تفرّدها الجمالي - بعض الوقت - قبل أن تستدرج قدرات بعضهم - الفذّة بالذات - إلى أنشطة أخرى تبدو فنية - من باب ذر الرماد في العيون: (نعم: العيون) إنها أخطر أعضاء النشاط الحيوي - في الإنسان والحيوانات والحشرات، والبوابة التي تنفتح دائماً لتجذب إلى باقي أعضاء التكوين الجسدي كل أنواع التغذية النفسية المؤثرة، دون الحدّ من قدرات حواس اللمس والسمع والتذوق والشم في أداء مهامّها الحيوية، في المتعة واللذة والأسى والشجن والإحساس بالمرارة والندم الضاغط المقلق على المخ والأعصاب.

وأكثر أعضاء النشاط الإنساني - أو المهني مع بعض التحفظ - استخدامًا لعضوية انتمائهم أو انتسابهم لأي تكوين، ولو لبعض الوقت: أعضاء مجلس الشعب (أو النواب أو الأمة) سواء استمروا أو فشلوا أو اعتزلوا في دورات أخرى، فسيظل عضو المجلس متمسكًا بالعضوية مع إضافة (سابقًا) عند زوالها، حيث يستخدمها في بطاقات التعريف وأثناء حواره في المؤتمرات والندوات والمسامرات وسطور التهاني والمناسبات المباركة والعزاء والنعي للموتى والراحلين، ويقوم بعض زملائي أعضاء اتحاد الكتاب (في مصر بالذات حيث يتاح لي الرؤية والاحتكاك الدائم بهم) باستخدام هذه الجملة الدائمة في المقالات والشكاوى والاعتراضات والاستعراضات: (فلان الفلاني: عضو اتحاد الكتّاب) في حين نجد أعضاء نقابات أنشطة ومهن أخرى لا يستخدمون ذلك إلاّ في ظروف وظيفية خاصة جدا: أي في التحقيقات القانونية أو مواجهة إجراءات صعبة أو استخدامًا لحقوق نقابية في السفر والانتقال ودخول المسارح والمصحات والمستشفيات والمتاحف، كأعضاء في نقابات الصحفيين أو التشكيليين أو الممثلين أو جماعات النقاد أو المحافظة على البيئة، والسبب في ذلك التوسع المبالغ فيه لاستخدام بعض هؤلاء الزملاء لجملة: (عضو

اتحاد الكتّاب) يرجع إلى أن هؤلاء بالذات لم تتحقق ذواتهم وشخصياتهم في الكتابة والأداء المهني المتصل بمثل هذا الإبداع أو النشـــاط، حيث لم يحظوا بالشـــهرة المأمولة، وبين انعدام التحقق الذاتي والشـــهرة نقع في الهـــوّة أو الفجوة التي تجعلنا نتحرك وعلـــى هاماتنا هذه العضوية التي لا يســـتعملها فـــي أوراقهم وبحوثهـــم: الأطبـــاء والعلمـــاء والزراعيون والمهندســـون والقانونيـــون والصحفيون والمعلمـــون والإعلاميون - وكل أعضاء المهن والأنشـــطة الأخـــرى، دون أن ندرك - نحن أعضاء الاتحاد المشـــار إليه - أن العضوية - أي عضويـــة - وردت في اللغة من العِضَة: ومـــن بين المعاني في هذه الكلمة: الكـــذب، وبالتالي فإن هذه الصفة قد تتســـلل إلى مَـــن يفرّط في اســـتخدام عضويته في مجـــالات التضخيم والرغبة في الظهور.

وأشـــهر الأعضـــاء قاطبة - بعد أعضاء عصابـــات المافيا المنظمة من قطـــاع الطرق فـــي صقلية في القرنـــين الماضيين وبلغ نشـــاطها قمته فـــي أوربا وأمريـــكا - أعضاء مجلـــس الأمن، وأعضـــاء الأمم المتحدة، وأعضاء أجهزة المخابرات الذين ظهروا نجومًا في السينما والمسلسلات التلفزيونية والانقلابات السياسية، والمذكرات الخاصة بالزعماء والرؤساء الراحلين.

ويظـــل القلـــب العضو ذا الشـــجن المتأثـــر بالمواقف وباقـــات الزهور وانسياب الموسيقى، وتدفق الشعر، وسطوة التعبير في اللوحة المرسومة، والمتألق دمعات في عيون الأعزاء: شوقًا وعتابًا ولومًا..وصمتًا يعبر عمّا لا يســـتطيع أن يقوم به أي لســـان، وبالذات حين تتمـــدد الآفاق الهادئة لحظات غروب الشـــمس ليزحف خلفها - فـــي ودّ بالغ الهدوء والإمعان - ليل آمن، يجعلك تحسّ بعضويتك الجذرية الأصيلة في الوجود.



● مرة وحيدة حينما رأيت نملة تسعى على جدار مقهى، ومن باب المرح أصدرت آمرًا لها بأن تتوقف، فتوقفت، بعدها: أمرتها أن ترجع وتعود من حيث جاءت، فإذا بالنملة تستدير وتعود، ضحك الأصدقاء، بعدها بدأت خلافاتي مع زوجتي في البيت.

● ســأقول لك ما لم أقله لأحد قبلك: أجمل ما في حياتك لم يحدث بعد، أقصد آخطر وليس أجمل.

● ألــم تلاحــظ أن المطارات تخلو مــن العصافير؟ رجــاء الفرار من مطارك الخاص.

● تعليمات طبية: لا تتناول الملح، ابتعد عن السكريات، بعدها يبقى لك نوع من النسيم الذي لن يحسّ به سواك.

● دعاة النقد الأدبي يعلنون الآن أن الإبداع القائم لأصدقائهم يخضع لمرحلــة ما بعد الحداثــة، الموقف محرج لهم بعد ما بعد الحداثة - رجاء عدم التصحيح.

الصِّفْر...والصفراوات *

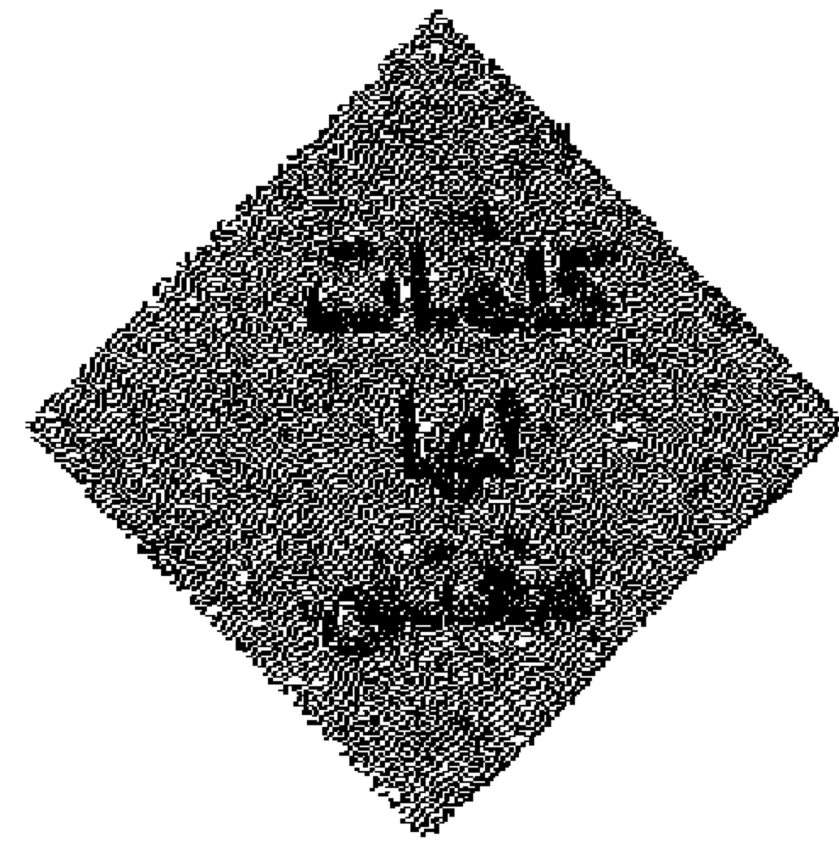
ع علينا أن نستأذن صَفَر - ثاني الشهور الهجرية بعد المحرم وقبل ربيع الأول - كي نخترق المجالات الصفراوية التي تثير الوجل - أحيانا - في الصحارى والعشب الجاف، ثم الجوع، والذي أودى بعدد من العشّاق، هؤلاء الذين هاموا غرامًا تحت سطوة قوس قزح عندما ينسلّ الأصفر في ألوانه بالغة الجمال، ولو أتيح للتاريخ أن يشرِّح جسد واحد منهم فور توقف أنفاسه، لكان التقرير الطبي يشير إلى ما حاق به نتيجة ضمور سائل الV صفراء (الذي تفرزه الكبد ويختزن في كيس المرارة)، بصفته عنصرًا أساسيًا في الهضم والصبر والقدرة على التحمّل: خلال أزمة الغرام بالذات، لكن الأصفر يتراجع أمام صفير الحَكَمْ إعلانًا عن انتهاء مباراة قد تكون نهايتها في مصلحة الفريق الذي نختصمه، ولو أنك تجاهلت صفارة هذا الحكم الكروي: لما استطعت أن تهرب من تأثير الصفير في جماهير مباريات حلقات المصارعة والملاكمة والمبارزة، عليك أن تخرج الآن من هذه المجالات التي تهيمن عليها متعة التعصّب الرياضي كي تواجه صفارات الإنذار حربًا، أو إسعافًا، أو حريقًا، أو إنهاء لممارسات مالية في بورصة الأوراق ذات التأثير في ثروتك، إن ساعة الصفر أكثر وقعًا - وتأثيرًا - في النفوس والتاريخ أيضا، مع أنها لا تنطلق دائمًا، إن مهمتها تبدأ دون أي صفارة، بصفتها مصطلحًا عسكريًا يحدد اللحظة الأولى للتحرّك أو الهجوم، ولا يستخدم هذا المصطلح في

* العربي - العدد ٥٤٦ - مايو ٢٠٠٤

الانســحاب بالطبع، ثم لم تلبث ســاعة الصفر هذه أن تسللت من فيالق الجيوش إلى مجالات الأعمال والمشــروعات، بالإشــارة أو الإيماءات أو النظر إلى أعلى، وأي مجموعة عمل تخضع لســطوة ساعة الصفر حتى لو كانت تقوم بتصوير الروايات أو المواقع، دعك من الإشارة الشريرة التي لابــد من الانتباه إليها في تحرّكات العصابات الإجرامية المداهمة للمدن أو البنوك والمصارف التي تستخدم مصطلح ساعة الصفر أيضًا.

وإذا كان الصفيــر - بالفم اســتخدامًا لأصابع اليد - يصدر منّا نحن البشــر احتجاجًا، أو من شــدة الإعجاب (ولو كان مفتعلاً) أثناء سطوة الــروح الجماهيرية فــي قاعات الأغاني أو الرقص أو الأداء المســرحي المثير للمتعة الشــائعة الآن، فإن هذا النوع من الصفير يســتخدم أيضًا لاســتدعاء أو التنبيــه للطرف الآخر في مواعيد الغــرام - أو الصداقة البريئة، تمامًا كما أن لغة الصفير معترف بها للتخاطب - أو التواصل - بين بعض ذوي الخبرة من البشر مع الحيوانات والطيور والحشرات: في الحقول والجبال والسيرك (موقع استعراض قدرة الإنسان للسيطرة على السباع والنمور - ولا أعرف إن كان مجمع اللغة العربية قد قام بصياغة لفظ عربي مقابل كلمة السيرك)، وكذلك ما يقوم به الحواة للهيمنة على الثعابين والعقارب، حتى أن ما يصدره الحاوي من صفير يكون له جواب - بعد فترة شديدة الرهافة والحساسية - من الثعبان الكامن في شقوق جدران المنازل أو التلال أو الأنفاق، أو بين غصون الأشجار، فإذا ما خرج الصفيــر من دائرة الاســتدعاء والتواصل، أي وضــع فعله الأول مرفوع الصاد ومكســور الفــاء: (صُفِر) فإنه يعني: جــاع، وأصابه الصفار فهو مصفور: صفة لمن أصابه الجوع الشديد، فإذا فتحت الصاد، فإنها تدخل دائرة الخلو أو الخواء: صَفر البيت من المتاع والإناء من الشــراب والقلب مــن الحنان والثدي من اللبن، وإن صفرت يدك من المال فســوف تصفر علاقاتك العصرية بالأصدقاء، والأخطر من كل أنواع الصفار السابق أن يصفــر عقلك أو قلبك من الإيمــان، حيث تجد ذاتك - حينذاك خواء لا يمكن التعبير عنها إلاّ بصفار النبات ليصبح قابلاً أن يكون هشــيمًا في أي لحظة، أو عندما تلجأ إلى أنواع من السوائل الصفراء بحثًا عن عالم وردي.. وهمي.. مريض.

ومع ذلك فإن (الأصفر) حينمـــا يكون صفة مطلقة فإنها تعني المعدن الثمـــين: الذهب، فإذا أعدت الصياغة الأصفريـــة لتكون (بني الأصفر) فيصبـــح المقصـــود ما أطلقناه نحن العرب لقبًا للروم من ســـكان آســـيا الصغرى والقســـطنطينية وما إليها، إلا أن تثنية الأصفر إلى الأصفرين: تعني مباشرة الذهب والزعفران، الذهب أنت تعرفه، أما الزعفران فأنت تستخدم لفظه فقط، إنه النبات ذو الرائحة الطيبة من فصيلة السوسن، وربما يكون ذلك مناسبًا كي نوقف السعي وراء مادة (الصفر) حتى لا نقع فيمـــا يعنيه حينما يصبح رصيدك المادي - أقصد المالي - في المصارف بالذات: صفرًا، مـــع أن الصفر يمكنه أن يخرجك من دائرة الإحراج إذا ما قفز من مؤخرة الرقم إلى مساحة في المقدمة ليزيد إحساسنا بالثراء والمتعـــة كلما تعـــددت وحداته، لنترك للصفر تأثيـــره المعروف في أرقام الهواتف ذات الاتصالات الدولية، بعيـــدًا عن صفار البيض ودود البطن ودرجة الصفر التي تبدأ منها أمور كثيرة في التجمد والتثلج والرســـوب في اختبارات المدارس، والعلاقات الإنسانية أيضًا.



● جبال الجليد تبهرني في اللوحات وشاشة التلفزيون وكتب الرحلات، أرجو أن تذهب إليها وحدك.

● رأيتها، الأشـــلاء والأنقاض والحزن وحطام الأثاث، ظلت تحوم في رقة بالغة الشجن، فراشة بيضاء في دوائر طيرانها أثر لخطوط ناعمة، وساحرة.

● الســـلام ليس مصطلحًا كلاميًا أو إشـــارة باليدِ ذات ابتســـام على الشفتين، السلام - في الأصل - إحساس بالمشاعر في الوجدان.

● الانعزال - أو العزلة - بعض الوقت وراء كل أنواع الإبداع والمخترعات والنظريـــات، الانعـــزال التـــام: كارثة أو مأســـاة، أيهما أكثـــر توضيحًا؟ لا أدري.

● الجيـــوب التي تدخلها النقود تبدأ بـــوادر الثقوب والتمزق فيها قبل أي جيوب أخرى.

● كلما أعدنا صياغة التاريخ، ظل التاريخ يمعن في جهودنا ومحاولاتنا بنوع من السخرية.

● لمـــاذا يهيمن الليل على كل الأغاني والقصائـــد دون إتاحة الفرصة للنهار؟

الشرط *

حاولت مرارًا - مبتسـمًا في سـعادة راقية - أن أخفف من هذا التشـابك في مقص أصابع الوزراء بين الشـريط - إيذانًا ببداية افتتاح المشروعات - والشرطة تنبيهًا ألا تتحرك إلاّ في الحدود المسموح لك بها في الاحتفال، محاولاً أن أسـتبعد الشـريط من شرائط تضميد الجروح المبكرة، الناجمة عن اللّهو الصبياني بين تضاريس مسقط رأسي، حتـى أنني - ذات مرة - اصطدمت دماغي في كبوة مؤلمة على شـريط قضبان السكة الحديدية متعرضًا لمداهمة القطارات، ولقد ظللت - ربما بسـبب أي من ذلك - لا أستطيع أن أرفع عيوني عن التشريط المؤثر في أصداغ حواة اسـتخراج الثعابين، والهيمنة على العقارب ونسـاء الغَجَر والنَّـور، ليترك تلك النـدوب - أو الندبات - التي تشـير إليك أن تفهم نوعية هؤلاء العابرين قبل انتشـار بيانات البطاقات الشخصية في ذلك العصر.

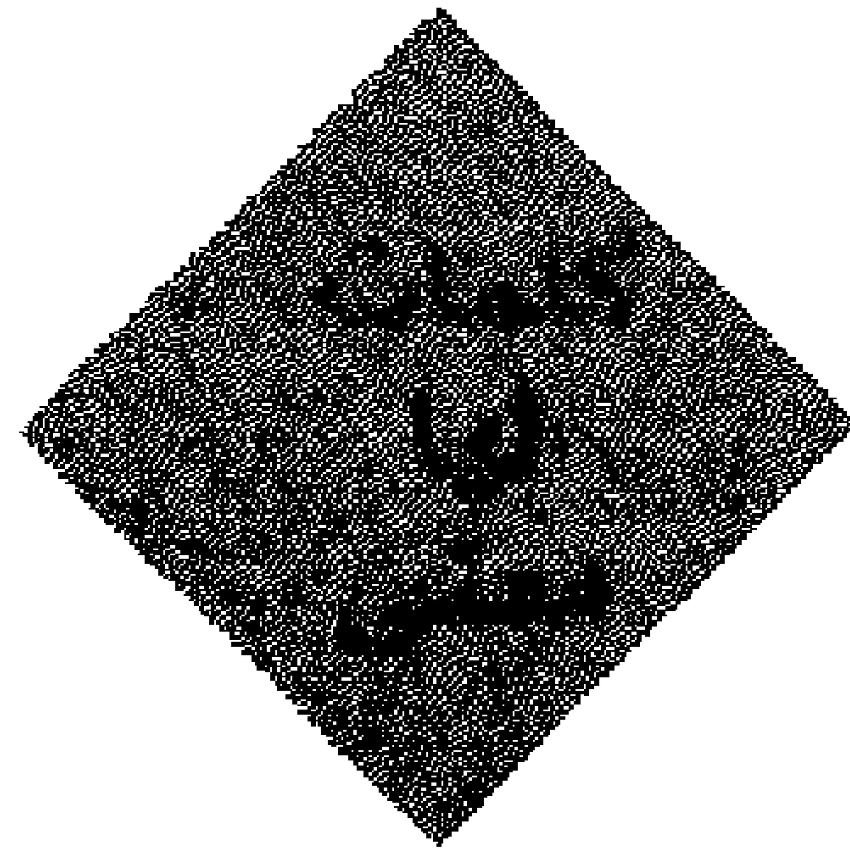
وأخطر أنواع الشـروط ما يعرفه الرحّالة والمتجوّلون وعشّـاق السـفر: إنك تدخل أي مكان بشـروط المكان، سواء الشروط المعروفة في المساجد والأماكن الدينية، أو في دور الأوبرا والفنون، أو حتى قاعات عزف الموسيقى، أو بعض أماكن المتعة الراقية في احتفاليات دبلوماسـية - مثلاً - بالامتناع عـن التدخين أو عدم ارتفاع الصوت مع مراعاة ارتداء الملابس المناسـبة، والسلوك المناسب أيضًا، أي السلوك الرصين الهادئ، والرقيق أيضًا.

* العربي- العدد ٥٤٨ - يوليو ٢٠٠٤

ومن المقلق لك - ويسـبب لأعصابك توترًا يحيل وقتك لعذاب مرهق، أن تتجـاوز - أو تختـرق - أو تتلاعب لفًا ودورانًا حول هذه الشـروط، حيث تسـتخدم قدرات منصبك أو موقعك أو قدرتك الفائقة في الخروج إلى ما لا يتناسـب مـع المكان. ولعـل أول مرة واجهت فيها ذلـك كانت في قطار الصعيد أثناء عملي في مشروع السد العالي بأسوان، عدم التدخين، بعدها تعوّدت أن أتشـمّم - أو أتنسّـم - ما لا يعلن - أو يعلن - من تلك الشروط، وبسـبب ما يعلن وما لا يعلن من مثل هذه الضوابط: تمتلئ قاعات المحاكم في قضايا المسافة بينهما، مع أن الشرط نور في الموروث الإنساني للسلوك، إلا أن مثـل هذه الأمـور المدوّنة في العقود وإيصالات الأمانة تخضع - في كثيـر من الأحيان - للتغيرات النفسـية والاجتماعية لطرف من الأطراف، ويداهـم بنودها تفسـير أو تأويل قد يجد صدى مؤثـرًا في النتائج، ولقد تمنيت أن أوفق وأنجح في تطويع شـروط حياتي الواقعة دائمًا في المسافة المروّعـة بين ما أريد وما أسـتطيع، وأنت كذلك يـا صديقي، حيث نعاني دائمًـا ممـا يقال في اللّغة - أي لغة.. والعربية بالذات - أشـرط نفسـه لكـذا: أعدها وطوّعها وهيأها لهذه التبعات - المؤقتة أو الدائمة، ولذا فإن اللغات كلها - أيضا - تمتلئ بأدوات الشـرط: تلك الألفاظ التي تسـتعمل لترتيب اللغة لتصل إلى الأسلوب المنضبط المؤثر (مثل: إنْ - بتسكين النون - ومَنْ ومهما وإذا ولو...)، وحتى في حالات التمنّي والسعي لتحقيق الآمال - ومعظمها غير معلن - فإن الشـروط تبرز دون أدوات وألفاظ الشـرط، ليت ولعلّ وأرجو وآهٍ: آهٍ يا قلب عليك أن تخفف الشـجن حين تلقاها حتى لا تندفع إلى سلوك غير مريح معها.

وأخطر ما أنجب الشرط هو الشرائط، شرائط فتيلة السراج، والمصباح الـذي ضاغطته كهربـاء أضواء العصر الحديث حتـى كاد يدخل مجال الإندثار، وشـرائط تسـجيلات أجهزة الإرسـال في الصوت ثم الصوت والصورة، ليس الإرسـال فقـط، بل وأجهزة المراقبة والتجسـس وجمع الأدلـة ضد الآخرين، إدانة أو كشـفا للأسـرار، أو الابتزاز أو حتى في مجال المتعة التي انتشـرت في العصر القائم، حينما أمتلك ما يسعدني من شـرائط تخص حياتك وسـلوكك، دون أن يكون لي هدف آخر سوى متعتي الشخصية العصرية البائسة.

إلاّ أن صياغة أي شرط قد تتحول إلى مشرط بالغ القدرة على الاختراق، ليصبح المبضع الذي يستخدمه - بالعقل - ذوو القدرات التحليلية في العلوم والفلسفة والاقتصاد، لكن أرقى اختراق لهذا المشرط - المبضع - يظل في أيدي الأطباء ليصلوا إلى مكامن الداء ومنابع الأذى في الجسد الإنساني سعيًا لتحديد عناصر ووسائل العلاج، وهو ما استفادت به أجساد أخرى في الحيوانات والطيور والزواحف، ما نعرفه وما قد يظل بعيدًا عن عيون ومدارك أمثالنا غير المتخصصين، حتى أن معظم الحقائق الثابتة الآن في كتب الطب والعلاج تخضع للحركة الأولى لهذا المشرط، والذي بدأنا حياتنا به خلال التجربة الإنسانية المبكرة: الختان - أو الطهارة في المصطلح العامي المنتشر في أقطارنا - دون أن ننسى حين نفتح الراء بلا تسكين ليصبح الشرْط: شَرَطًا، يصبح المعنى بالغ الرقة: إنه العلامة، ومنها جاء الشرطان: نجمان يقال لهما قرنا الحمل يظهران أول الربيع، إشعاعهما البعيد بالغ الرقة بعد منتصف الليل، لكنه - مثل الأمور الجميلة - والمريحة - لا يستمران في مجال رؤيتنا كثيرًا، مثل كل الآمال والأمنيات التي تشع داخلنا - أو أمامنا - بعض الوقت، ثم تخبو أو تغرب، لكي نقع من جديد في شروط الحياة ونتائجها، نتحملها شريطة أن نكون ذوي مبادئ رقيقة وراقية، تبعدنا عن الشريط، أقصد الحبل المفتول حولنا، والذي تستعمله الشرطة المحلية، أو الإنتربول: الشرطة الدولية، أو الأخطر من كل أنواع الشرطة ذات السطوة المبتسمة: الزوجات، أمهات عيالنا وجدات أحفادنا.



● كل أنواع السيول تترك في نفسك أثرًا مؤثرًا: أمطارًا كانت أو مياه أنهار أو تنفيث بواطن آبار، الأكثر تأثيرًا، بعض نقاط الدم الأحمر في وجه أنثى.

● الأطلال تمر علينا في رومانسية رقيقة خلال القصائد والأغاني، جرِّب مرة أن تشهد أطلال فترة صبيانية من حياتك حينما - دون قصيدة أو أغنية - تقف كابية وحيدة مهجورة تشي بقصة حبك الأولى، قصيدة ضاغطة دون التعبير عنها لغة باللسان.

● قد يكون ممتعًا أن أهرب من سداد مبالغ قليلة مديون بها، لكن الأخطر أنني - الهارب من السداد - أفاجأ بنفسي أدفع أضعافها حين أزور - دون تمهيد - صديقًا قديمًا في منطقة بعيدة، أحس أنه محتاج، ويرفض هو الاعتراف بما أفكر فيه، دعك من أنه يأخذ المبالغ، إرضاء لي فقط، ومبتسمًا أيضًا.

● تعطلت سيارة الركاب الضخمة على شاطئ البحر الأحمر قبل الوصول إلى مدينة الغردقة بساعات، الشمس تغرب، وآفاق المياه الهامسة جذبتني كي أجلس على صخرة، هيام مفتقد في المدينة، أصلحوا السيارة بعد ساعة، وعانيت كثيرًا حتى أستجيب لصراخ السائق تنبيهًا لمواصلة السفر، نظر لي السائق في غضب مختنق، رافضًا إدراك ما أنا فيه.

رمضان...كريم *

في المعاجم اللغوية فقط: يرتبط رمضان - هذا الشهر الجميل - بالرمضاء: أي شدة الحرارة، والأرض التي تكاد تشتعل من وقع صهد الشمس، والحجارة المستكينة بؤسًا تحت سطوة لهيب الطقس، ومنها جاءنا المثل العربي القديم لمن يلوذ بمن لا يجد لديه الأمن والأمان والمعنى الإنساني للمأوى (كالمستجير من الرمضاء بالنار)، وهو المثل الموروث الذي يستخدمه واحد مثلي من آل مستجاب ضد واحد مثل الدكتور أحمد مستجير - عالم الوراثة المصري المعروف والمشهور خارج مصر، مما يجعلني - في أحيان كثيرة أفخر بالتكوين اللغوي لاسم عائلتي دون الغضّ من حقدي الدفين لأني لا أملك شهرة آل مستجير، ولذا فقد كان الأذكى - والأنقى - قدرة شهر رمضان الكريم على الانفصام الحادّ بينه وبين السعير - أقصد الرمضاء المشار إليها، حتى في السنوات التي تشاء أقدار توالي شهورها أن يأتي رمضان الكريم الجميل خلال فترة الصيف.. الحار جدًا.

وشهر رمضان القروي له انشراح يفتح الوجدان بشكل مختلف عن رمضان البدوي أو المدني - أقصد رمضان الخاص بي شخصيًا، ليس اختلافًا في النوع، بل في طقوس استقباله وممارسة الحياة خلال أيامه ولياليه، ونحن أبناء القرى نخفي كثيرًا من أسرار حياتنا الرمضانية حينما تتحقق لنا درجات من الأوضاع الوظيفية - أو الاجتماعية - في المدن بالذات، ففي الأحقاب الأولى من حياتي في قريتنا لم يطرأ في بالي أن الكنافة يمكن أن تظل من المخبوزات الحلوة طوال العام وليست في شهر رمضان فقط، بل الأخطر من ذلك أن الكنافة ظلت في

* العربي - العدد ٥٥١ - أكتوبر ٢٠٠٤

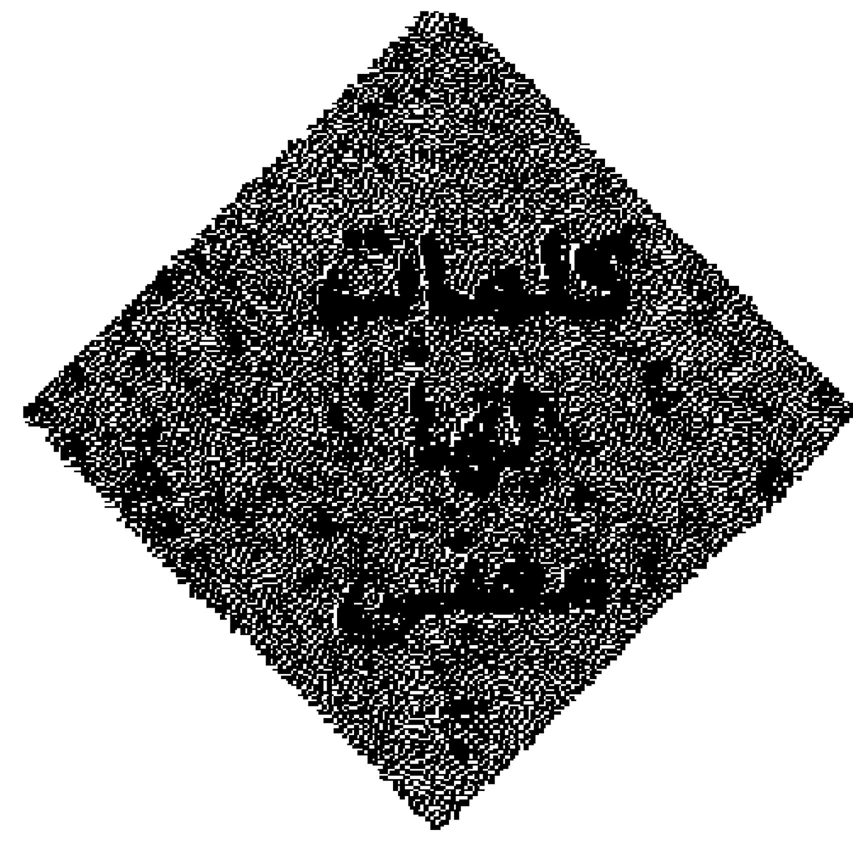
ذهني الريفي هي هذه الشعيرات من العجين السلس المرن الأبيض، والذي ينتهي أمره - بعد إنضاجه الســريع على الدائرة المسطحة المتسعة فوق الفرن، بعد أن يقوم ذو الخبرة المرنة بتسـييل الخيوط العجينية من خروم - أو ثقوب - الكوز ليصبح دورانه متناسقًا - كالتناغم الموسيقي - مع دوران مسطح الفرن الملتهب، وعنــد هذه الخيــوط العجينية ذات النضج المحدود ينتهــي أمر الكنافة عندنا، وتقوم أمي بوضعها في أكوام صغيرة وقد رشــت فوقها السكر الناعم أو العسل الأسود السائل مخففًا، حيث تصبح - هكذا - قابلة لأن تتحول بين الأصابع إلى لقيمــات في الفم الجائع، غير أن هذا الأمر تراجع إلى الخلف حينما اتضح لي أن الكنافة - في مناطق أخرى - يتم تنظيم شــعيراتها في صينية وقد حشــيت بالجوز واللوز والزبيب، لتخرج مسطحة بالغة الأناقة والجمال المتدرج بين اللون البنّي الفاتح والغامق - أي الذي يذكّرك فورًا بالنضج في سعير الفرن.

وبالتالــي فقــد تراجع رمضــان الريفي الطيب تحت ســطوة رمضان الآخر خــارج قريتنا - أو خارج بيوتنا بمعنى أكثر دقة، حيث بدأت أنواع من مخبوزات الفطائر متجاوزة الكنافة، أشــهرها القطايف التي تحتوي في بطنها أنواعًا من الياميش والمكســرات والزبيب، غير أن نوعًا من القطايف تناولته - بلذة فائقة - في قرية البحيرة البدوية القريبة من مدينة إدفو - أســوان - على مشــارف الصحــراء الشــرقية (يفصل مجرى نهر النيل بينهما)، وكنت ضيفًا على شــيخ قبيلة العبايدة الشهيرة، حينما فوجئت بأن القطايف محشوّة بنوع مجهز بطريقة ســاحرة من البلح اللدن، مع أن إفطار رمضان فــي تلك الليلة كان يحتوي على أنواع من الفطائر المحشــوّة بالمكســرات والياميش والزبيب، كما أن قمر الدين تم تقديمــه إلينا رقائق من الصفحات الورقية، تمامًا مثلما كانت قريتنا تقدمه، إلا أن عصير قمر الدين في الأكواب الذي يفتح شهية الصائم فور أذان المغرب في المدينة يحل مكانه التبلّغ بعدة بلحات لدنة، أو بلحات رطبة في الريف حيث نفتقد البلح ذا الصلابة المرنة الجميلة، وكثيرون كانوا يتبلغون بالبلح خالصًا ليلة القدر إحساسًا بتحقيق الأمنيات الخالصة الطيبة، وتكاد بلادنا كلها - المصرية: الريــف والمــدن والواحات - تعتبــر الفول المدمس - بــكل تجهيزاته - مرتبطا برمضان الجميــل الكريم (مهما احتوت المائدة أو الطبليــة أنواعًا لذيذة ثمينة ســمينة تعبق بالروائح من اللحوم والطيور)، ولا نميل إلى إدخال الأســماك في مجالات متعــة الإفطار الرمضاني، إلا أنني فوجئت بأنواع عدة من الأســماك تقدم في هذه المناســبات عند أهــل الموانى والبلاد المطلة علــى البحر، وربما يدفعنــي ذلك إلى التنبيه إلى عادة موروثة لدينا، ولــم تتغير تغييرًا مؤثرًا حتى

الآن في مناطقنا القروية والبدوية - دون المدن - في حالات استقبال وتكريم الضيوف عندنا، أن أفضل - وأكرم - ما يمكن إعداده للضيف لحوم الضأن، بعدها لحوم صغار العجول (الجاموس والأبقار)، ثم تتتالى في قيمة التكريم لحوم الدواجن، ويظل الحمام جزءًا من الضيافة مضافًا إلى أي مائدة وليس متفرّدًا، ونادرًا ما تدخل الأرانب والبط والأوز خلية الاستقبال. أما الأسماك فهي مطرودة من موائدنا - أو طبلياتنا - الريفية في رمضان أو أي شهر آخر، وبالذات في حالات الضيافة، مع أن الفول المدمس عنصر أساسي بجوار العناصر الأخرى في شهر رمضان بالذات، والمجهز بالزيت والليمون والخل دون أي سمن أو زبدة.

وأشهر موائد قريتنا كانت تلك التي يحضرها الشيخ راشد - يرحمه الله - كان ضريرًا يرفع رأسه دائمًا إلى أعلى، وفي آخر أيام حياته كانت أسنانه قد أصابها ما يصيب القلاع الأثرية من خلخلة لتكون أطلالاً كالحة، كان حاضر الذهن، حار القريحة، جذابًا في تعليقاته الساخرة والشائكة - يحتل الشاعر أبو نواس، شعرًا وسلوكًا - موقعًا واضحًا فيها، وليس صعبًا أن تختلط هذه التعليقات بمُلح وحلاوة العناصر الرمضانية من فطائر ومكسرات وعصائر، كما أنه من السهل إدراك أن كثيرًا منها أيضًا - هذه التعليقات والحكايات - كان يختلقها ويصطنعها الشيخ راشد لحظة سخونة الاندماج في الكلام - مع الأكل - أو بعد الانتهاء منه، وقد نجحت هذه الشخصية الفريدة - بالرغم من تكرارها في مواقع أخرى - أن تكون عنصرًا رمضانيًا على الموائد العامرة، وفي غير الشهر الكريم أيضًا، إلا أن الأمر لم يعد سهلاً ظهوره الآن، أقصد الشيخ راشد.

والسبب في ذلك أن سهرات رمضان الجميلة ظلت مخدومة بالتفاعل الإنساني، في ذلك الوقت الذي كانت البيوت تبرز قدراتها الخاصة في تجهيز المأكولات ومختلف مشروبات السهر الرمضاني، مع النصوص الدينية: تجويدًا وقراءة وترتيلاً، وانشراح النفوس يؤثر في التواصل والإدراك، وهو ما تقلّص الآن، لم يتقلص فقط، بل اندثر، بسبب سطوة التلفزيون بمسلسلاته وألغازه وإعلاناته وفوازيره وحلقاته ذات المواقف الضاحكة والمحرجة أيضًا، مع أهمية أن معظم المأكولات بكل أنواعها تأتي جاهزة، ومغلفة بالرقة والجمال، وما يساعد على أن تظل الجماجم - بعيونها - مطارًا مسطحًا لاستقبال مختلف مراكز الإرسال التلفزيوني دون سمر أو تعليق أو مسامرة حميمة، مع اتساع الابتسامة المتماوجة في المجالات الكهربائية والمغنطيسية.



● هـــذا الصمت الســـابق علـــى أذان مغرب رمضان الكريم، يســـتغرق حتى الكلاب والقطط فتظل بلا نباح أو مواء.

● لا حفـــلات زواج تقام في هذا الشـــهر الكريم، وتحدد ليلة الدخلة - دائمًا - ليلة الخميس الأخيرة التي تسبق عيد الفطر.

● الوقفة هي اليوم السابق على عيد الأضحى، ومع ذلك فقد تعوّد شعبنا أن يتعامل مع اليوم السابق لعيد الفطر بالإحساس ذاته دون الطقوس.

● محرم ورجب وشـــعبان ورمضان وربيع أســـماء منتشـــرة فـــي كل أقطارنا العربية، أين صفر وجماد وشوال وذو القعدة وذو الحجة؟

● كنـــا نتراهـــن - ونحن صغـــار - أن قمر رمضان - منذ ظهـــوره هلالاً، ثم وصوله إلى اتساع البدر، لا يمكن للسحب أو الضباب أن تحجبه.

أطواق الطاقة *

ظلت الطاقة - تلك النافذة البدائية الصغيرة في بيتنا الريفي - تجذبني خلال ليل الصمت والحركة الناعمة للنسيم - لأنظر منها إلى الغيطان الممتدة على شواطئ البرك والمستنقعات وغابات قصب السكر والأذرة وقدرات أبي زيد الهلالي الشجاع الباسل، وهو ما لم تمنحه لي كل أنواع النوافذ ذات مصاريع الشبابيك والستائر في كل المدن بعد ذلك، حتى بعد أن داهمني أينشتين - هذا العالم الألماني الأمريكي - بنظريته التي ربطت الطاقة بمحصلة ضرب الكتلة في مربع سرعة الضوء لتتوالد القنبلة الذرية التي دمرت هيروشيما ونجازاكي، لتستسلم اليابان بعد ألمانيا إنهاء للحرب العالمية الثانية، وتركتني هذه الطاقة أحاول أن أفرغ محتوياتها الساخنة في الفؤاد داخل رسائل العشق والغرام: الأساس الإنساني في الإبداع الأدبي، مع أن هذه الطاقة - نافذة بدائية أو نظرية علمية - التفت طوقاً مبكرًا حول وسط (مفيدة) راقصتنا الريفية التي هزت أجناب ذكرياتنا الصبيانية والرجولية بصفتها أجمل من امتلك اهتزازا أنثويًا في تاريخ قريتنا، ولذا فقد جاء ابن حزم - بعد دخولنا مراحل الإدراك الثقافي خلال الأحقاب التالية - ليختصر الأحلام والأمنيات والتجارب في طوق الحمامة دون استبعاد طوق مفيدة المشار إليه، وهو ما أدى بي إلى الوقوع في مأزق حينما - منذ سنوات قليلة - كتبت مقالا عن مأزق بطرس غالي - أمين عام الأمم المتحدة حينذاك - في تطويقه وتحديد تصريحاته وحركته حتى لا يخرج عن وظيفته تمهيدًا لاستبعاده، وقلت إن نقطة الضعف تكمن في رقبة الحمامة دون جسدها، مع وضع المصطلح المصري للاعتذار: لا مؤاخذة - بين الحمامة ورقبتها، وهو ما لم يفعله ابن حزم في كتابه (طوق الحمامة)، فاضطربنا جميعا:

* العربي - العدد ٥٥٢ - نوفمبر ٢٠٠٤

آنـــا وابن حزم والحمامة بما ترمز إليه بمفهومها الشـــعبي الدارج، مع أن تحريك أي طوق لغويًا يؤدي إلى الطاقية الشهيرة بكل أنواعها في مختلف بلادنا العربية - والشرقية أيضا، تلك التي تصنع من الصوف أو القطن أو الكتان لتصبح غطاء للرأس، والتي - هذه الطاقية - تشـير بشـكلها وإشـارات الزخرفة والألوان في خيوطهـا إلى انتمـاء صاحبها، وفي بلادنا المصرية - كمثـال - نجد أن الطاقية النوبيـة تحمل تكوينات متداخلة في جمالية بالغـة الروعة، وهو ما لا يتوافر في طواقي المناطق المتعددة في صعيدنا المصري، بل وتتحول إلى تكوين أبيض خالص وبسـيط إشـارة للبراءة والنقاء في من يميل إلى إعلان انتمائـه الديني، كما أن الجماعات البشـرية المتنقلة المتحركة دون ثبـات في الصحاري والجبال المصرية والسودانية: مثل الغجر، والنّور، والحلب - مع أهمية فتح الحاء واللام - تستخدم كل منها طاقيتها ذات الإشارات اللونية الدقيقة الرقيقة، التي تصنع تناسقًا فطريًا بالغ السلاسـة والتواصل الفني مع أبناء الـوادي - الذين أنا منهم، وهو ما رأيته مختلفًـا عندما تواصلت رحلاتي في طواقي العبابدة - وهي قبائل مسـتقرة في الصحراء الشـرقية - ذات اللون الواحد والتكوين المشـرع في فروسية من الأمام فوق الجبهة مباشـرة، ولقد أدى بي ذلك أن اقترحت على أساتذة التراث الشعبي أن يدرسـوه - مع باقي إشـارات الملابس الأخرى على باقي الجسد، وخصوصًا أننا في معظم المناطق الشـعبية المصرية بدأنا نتخلى عن الزي الشـعبي الموروث تحت سطوة الملابس العصرية الوافدة - غازية لنا - من الغرب، حتى أن الطاقية بالذات بدأت تنزاح أو تتطاير أو تندثر من فوق رءوس الموظفين، ساحبة معها كل أنواع الملابس الأخرى.

وأخطر من اسـتخدم مصدر الطاقـة والطاقية والطوق هم جنود الأمن حينما يحاصـرون - أقصد يطوقون - مناطق الخارجين علـى القانون، وجنود الجيش تطويقًـا لمعسـكرات الأعداء، والأسـاطيل ذات البوارج الضخمة غـزوًا للموانئ والمواقـع البحرية، وطاقية الإخفـاء التي ارتداها أحد أبطـال (ألف ليلة وليلة) لتخفيـه عن عيون البشـر فيحقق ببسـاطة - ودون خـوف - أمنياته وآماله في الحصول على المال والغذاء والسـلوك الحر الذي يشتعل بالرغبات التي جاءت - بعد ذلك - في أفلام سينمائية، أشهرها ما قام به بشارة واكيم - بعد عثوره على طاقيـة الإخفاء - ليصل إلى ما يريد - وعلى رأس ما يريد: الراقصة الشـهيرة: تحية كاريوكا، لكنه يجد نفسـه موضع الخيانـة والغدر ممن يحيطون به، فيمزق الطاقية ويعود خاويا وخالصا إلى منزله، وقد أنتج هذا الفيلم المصري عام ١٩٤٤، فحقق نجاحًا، فقام مخرج آخر بإعادة صياغة الحكاية في (عودة طاقية الإخفاء)

بعدها بسنتين مستخدمًا بشارة واكيم مرة أخرى ومستخدما الممثلة اميرة امير بديلة لتخية كاريوكا، ثم تناثرت طاقية الإخفاء في مشاهد سريعة إثارة للمرح بين الناس في مواقف مسرحية أو إيحاءات حوارية في مسلسلات التلفزيون وقصص الأطفال.

إلا أن أهم كائن حيوي استولى على التطويق كانت الحية، يقال: تطوقت الحية، أي التفّ جسدها الثعباني تمهيدًا لأن تأخذ موضع الهجوم الدقيق الشرس على الضحية، وشاءت بي ظروف العمل في الصحراء أن أسمع حكايات من جنود سلاح الحدود - وكلهم من أبناء النوبة - عن القدرات الفذة التي تستخدمها الطريشة حينما تلتف بسرعة مذهلة حول نفسها ثم تقفز من فوق الرمال اختراقا لواحد من هدفين: الهدف الأول وجه الجندي المتطي الجمل، والهدف الثاني - الأقل قيمة - وجه الجمل ذاته، في الحالة الأولى يضطرب الجندي قائد الجمل فيفقد السيطرة على الجمل وفي الثانية: يضطرب الجمل ويمكن للجندي أن يسيطر على الجمل، والطريشة نوع من الحيات بالغة الشراسة والمكر والخداع، وتعيش في الصحارى فقط دون مناطق الزراعة أو الغابات، وهذا ما جعل كثيرين يطلقون على الطريشة صفة (المطوّقة) فقط، في حين أن يحيى الطاهر عبدالله استخدم الطوق - بمعنى الخصار - موازيا للأسورة - أي السوار الذهبي في روايته الشهيرة. ومع ذلك فإن أنواع الحيوانات والحشرات والزواحف المطوقة نادرًا ما تظهر في النص الأدبي - العربي بالذات، في حين قامت نمور بتطويق بطل (ثلوج كليمنجارو) في خيمته لأرنست هيمنجواي، كما أن بحارًا قائدًا لسفينة صيد هاجمه حوت مما أدى به إلى فقدانه لإحدى ساقيه، فظل بقية عمره يسعى في المحيطات والبحار بحثًا عن (موبي ديك) أي هذا الحوت، حتى عثر عليه في جنوب المحيط الأطلنطي وقام بتطويقه مع معاونيه حتى بدا الحوت وكأنه استسلم، ليقفز البحّار المنتقم على ظهر الحوت الذي يندفع به إلى آفاق - أو أعماق - البحار، إنها رائعة الروائي الأمريكي هيرمان ملفيل، ومن الغريب أن الذي قام بالدورين في هذين الفيلمين كان جريجوري بيك، وقد قرأنا وشاهدنا في روايات أخرى محاصرة النمل أو تطويق القرود أو مطاردة العفاريت أو هيمنة الخفافيش أو التفاف العناكب والعقارب على معسكرات جنود أو معتقلات أو سجون أو أسوار حدائق أو مساكن وكهوف مناطق سكنية، ربما لأن خيالي - وثقافتي - تم تطويقها أيضًا بأنواع عديدة من الكائنات الغريبة، التي حالت بيني وبين أن أجد طوقًا شرقيًا أو عربيًا أستخدمه في النجاة من هذه الأمواج الهادرة، حتى لو كانت فدوى طوقان من أشهر شاعرات العصر العربي الحديث.

● الهــم والغم والحزن تدفعك للخلــف، أو للخوف، أو للاضطراب أو للأمــام - حقدًا أو دفاعًا عن النفس. الفرح والســرور والارتياح يدفعك للإحساس بالمتعة والرضا: إلى الأمام فقط.

● لماذا تكثر لحد الانتشــار كتابة الذكــور للمذكرات أكثر بمراحل عن الإناث؟

● عليــك أن تلقــي نظرة - بريئة - إلى مدارات الحظ التي ننشــرها يوميًا - وكل صباح في الصحف والمجلات، ابتداء من الســرطان والأسد والقوس والحوت وانتهاء بالعقرب والدلو والثور، لماذا لم تســتطع الزهور والعصافير والفراشات أن تجد مدارًا واحدًا بين كل هذه المدارات؟!

بين النفر..والنَّفْور*

ظل القط النَّفور يحاصر نومي خلال دهور طفولتي وصبيانيتي، كان مــواؤه يخترق في شراســة - زقزقة عصافيــر النخيل في البكــور، وعندمــا أراه، تحت تيارات دخان فــرن الخبيز الذي تكمن بين جمراته الأواني الفخارية ذات اللحوم الملتهبة، يظل القط النفور مكشّــرًا عن أنيابه، مســتعدًا للهجوم الشرس، دون أي ممارسة لأي هجوم، لكنه يظــل مرعبًا، وعندما كانت كفّ أمي تمتد إلــى أنواع أخرى من القطط والكلاب: تنحني رءوســها حبًا وامتثالاً وطلبًــا للطعام، ولم أكن أدري - حينذاك - أن قواعد النفور تنتشــر بــين مخلوقات متناثرة بين الخراف والجديان (ذكور الماعز) والأوز والبط والخيول والظباء والجمال، والبشر أيضًا، حتى أن النفري - الذي أصبح شــهيرًا لدى عدد من ثوار الثقافة المعاصرة - لم أجد له أثرًا - أو عنه ســطرًا واحدًا في الموسوعات، لقد كان ابن عبدالجبار بن الحسن النفري من أكثر الشخصيات غموضًا في التاريخ الفلســفي أو الإبداعي، ولم يعرف له ســوى كتاب شــهير - الآن - هــو (المواقف والمخاطبات) وهو الكتاب الذي قيل إن النفري لم يكتبه، بــل كتبه ابن بنته أو أحــد تلاميذه كما جاء في الطبعــة التي أصدرتها دار الكتــب المصرية بعد أن تحمّس له عام ١٩٣٤ المستشــرق الإنجليزي نيكلســون، شديد الإعجاب بالشــطحات غير المرغوب فيها إزاء العقائد الدينية، ولقد رحل النفري بين عامي ٣٥٤ و٣٦١ هجرية.

والنفور - في المعجم الوســيط - هو الخروج أو هَجْر الوطن والضرب

* العربي - العدد ٥٥٣ - ديسمبر ٢٠٠٤

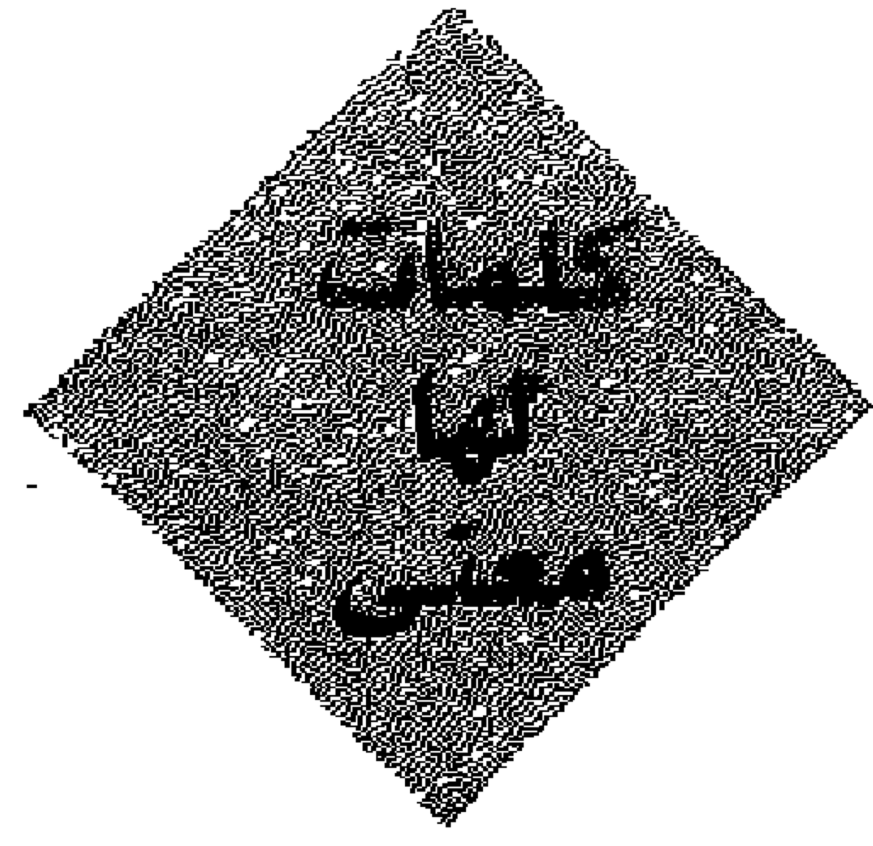
في الأرض، ولذا فإن النفور عندما يصيب الجسد الإنساني - دون النفس الإنسانية - يعني ذاك الورم الذي يؤذي اللحم والأعصاب، متوازيًا مع نفور الزوجة من زوجها حينما تعرض عنه وتصدّه، فإذا نفرت الجماعة من الناس ضد العدو ذي الخطر عليهم: يصبح النفور حالة أخرى يقوم بالتنبيه إليها - في الجيوش الحديثة - النفير حينما ينطلق مؤذنًا بالاستعداد تمهيدًا للدفاع أو الهجوم، ومن الغريب أن هذا النفير لم يرد في المعجم الوسيط: أحدث وأشهر معاجم مجمع اللغة العربية، تمامًا كما لم يرد النفري - المشار إليه - في الموسوعات، في حين وردت النافورة التي تنبثق مياهها في ميادين المدن - خاصة العواصم - متألقة في أضواء كهرباء ناعمة وساحرة.

والنَّفر يطلق على الفرد، أي الشخص الواحد، واعتدنا أن يختص لفظ النفر على ذوي الاحتياج، هؤلاء الذين يُستدعون للعمل في أشغال يدوية أو استخدامًا للفأس وما يقاربه تقليبًا للأرض أو قطعًا لجريد النخيل، أي الأعمال المحدودة، لكن النفر أيضًا يطلق على الجماعة من ثلاثة إلى عشرة رجال، ومنه جاء موروثنا في الجملة المشهورة (فلان لا في العير ولا في النفير)، والعير ما يجلب عليه الطعام والاحتياجات من قوافل الإبل والبغال والحمير، وتطلق هذه الجملة - أو المثل - تعبيرًا عن الفرد الصغير القدر، أو الذي تنقصه القدرة على الحركة الفاعلة النشطة، وربما يكون المصطلح المعاصر - (السّلبي) - أي فاقد الإيجابية تعنيه أيضًا.

إلاّ أن عددًا من زوجات قدماء المصريين دخلن التاريخ المبكر متوجات بالنفر، أشهرهن: نفرتاري سيدة زوجات رمسيس الثاني والمهيمنة على قصره، ولها هيكل بين هياكل آثار أبي سنبل في جنوب مصر، ونفرتيتي: زوجة أخناتون وشريكته في الخروج على عبادة (آمون) ليصبح (آتون)، ثم ما حدث بعد ذلك من كوارث الارتداد. وتقول الموسوعة العربية الميسرة إن نفرتيتي واجهت مأساة مروعة بعد وفاة زوجها الملك أخناتون، فاستنجدت بواحد من أعداء زوجها الراحل، فأرسل إليها بواحد من أبنائه ليتزوجها ويشاركها في العرش، لكن الرواية لم تكتمل، فهناك مَن كمن له في طريقه إلى نفرتيتي، وقام باغتياله، وتظل منطقة (تل

العمارنة) حتى الآن تحكي حكاياها عن هذه الملكة نفرتيتي، والتي لها - بين كنوز متحف برلين في ألمانيا - تمثال نصفي رائع مشهور، وآخر في متحف القاهرة، وقريتنا - ديروط الشريف - تنظر بنصف عين إلى تل العمارنة - عاصمة نفرتيتي وأخناتون - حيث لا تزيد المسافة بيننا على عشرين كيلومترًا، لكنها - هذه العاصمة القديمة - دخلت التاريخ المبكر، وهو ما تحاول قريتنا أن تفعله الآن.

ويحظى العصفور - في أيام الطيش والنزق، أي قبل أن تهيمن عليه عصفورة ذات بهاء وذكاء - بلقب النُّفّرور، لاحظ القياس الصوتي والإيقاعي بين العصفور والنفرور، إنه الفعلول بوزنه اللغوي الجميل الذي جاء على تكويناته: زغلول - خفيف الروح - والطفل - وفرخ الحمام أيضًا، ثم: البهلول الجامع لصفات الخير والمرح والفكاهة (وقد تولد منه البهلوان المعروف)، والشملول: غصن الشجرة المتشعب بالأوراق النضرة، والذي في السياق خارج المعاجم، فإن الشملول هو ذلك الذي يمتلك اتساعًا مفتعلاً ونشطًا في المعرفة العامة، والذي كثيرًا ما تردد - أي الشملول - في أفلام نجيب الريحاني وبشارة واكيم. عليك أن تتذكر نفرورًا آخر: إنه الزرزور، وحتى لا نعود إلى النفور والتنافر، فتدخل علينا المخاصمة، فإن المنافرة - في واحدة من معانيها - تعني المفاخرة وإعلان المجد الشخصي، ثم هناك عندنا في الأرياف خارج المدن - تعني المنافرة اتجاها لأن يطلق الزوج أو الزوجة لفظًا غير مريح على طفلهما، أي يلقّباه لقبًا مكروهًا تنفيرًا للجن والعفاريت أو عين الحسود عنه، مثل: شحاتة وهي تعني التسول وطلب المعونة كما هو معروف، وتوازيها في المقصد دون المعنى: الحرامي - أي اللص، والغلبان: أي المحتاج الذي يعاني الغُلب، وما إلى ذلك من ألفاظ التنافر التي تدعونا أن نحمد الله أن منحنا القدرة على الإدراك حينما ورد في سورة الإسراء: ﴿وأمددناكم بأموال وبنين وجعلناكم أكثر نفيرًا﴾، ليصبح للنفير تأثير نفسي يمنحنا بعض العزاء والارتياح.



● كلانا يعرف، ويتباهى بالمعرفـــة، ويناجز الآخرين بها، وكلانا يجهل أيضًا.

● حتى الغيوم والبرق والرعد ووابل المطر: تظل خارج الأفئدة العامرة الصافية غير قادرة على اختراقها.

● أي عدد مذهل من أحفـــادي، الذين داهموا حجرتي صباح احتفال آبائهـــم وأمهاتهم بيوم ميلادي، فصرخت في هـــؤلاء الورثة الذين يحبو نصفهم على الأرض: لماذا تفعلون بي ذلك بعد أن توقفت عن الإنجاب يا ذوي القلوب القاسية؟

● حينمـــا تدق بيدك دقات ناعمة على بـــاب صديق قديم لم تره منذ ســـنوات طويلة، فيفتح لك البـــاب، ويمعن فيك بعينيـــه، ويبربش بعض الثوانـــي، ثم يفتح ذراعيه، ويعود للإمعان فيك مرة أخرى، لحظات نادرة بالغة التواصل الإنساني.

● وقفت الزوجة أمام القاضي تشـــرح ما تعانيه من زوجها، نظر إليها القاضـــي في ملل آمرًا أن تختصر، فاســـتدارت إلى الخلف وخرجت من المحكمة دون أن تسمع أي أمر أو رجاء بعودتها.

● عندمـــا تتلألأ الجواهر لتصبح لؤلؤا، تبدأ الأنامل ســـابحة ســـعيًا لتلمسها.

القميص.. والمقموص *

ظللت دهورًا أتقمص شخصيات لأقوم بدورها الرائع الممتع: أبو زيد الهلالي سلامة أثناء انسيابه من ترانيم ربابة الراوي الممتزجة بانطلاق لسانه وملامح وجهه في الآفاق الصحراوية لمصارعة الزناتي خليفة، عنتر الفارس العتيد الذي احتواه جسد وكيان سراج منير تمثيلاً ليحقق حلمه - وحلمي أيضًا - في الوصول إلى عبلة، طرزان المتقافز مع أبناء الغابة بين أشجار تتراقص قرودًا تتحدى الرياح والأعاصير، ثم لم ألبث - مع التطور الفكري - أن هدأت خواطري في الإمعان الرقيق الدقيق في عذاب عماد حمدي لأتقمص دوره مع شادية وماري كويني، بعدها جذبتني تحية كاريوكا عدة ليال في سخونة أو عذوبة مواقفها المتوالية مع نجيب الريحاني وكمال الشناوي، وحاولت أن أتقمص أي دور ليوسف وهبي فاتضح لي أني لا أتوافق معه، وأن أسمهان كان يجب أن ترحل موتًا دون أن تتوافق معه أيضًا، وكان الأجدى أن أخرج على كل هؤلاء في الوادي الذي تقع فيه قريتنا - ديروط الشريف - لأزيح جانبًا عمر الشريف حتى انفرد بفاتن حمامة، والتي لم تلبث أن ابتسمت لي في حب أخوي لا يصلح ولا يتناسب مع ما أضمره، وكانت النخلات السبع تتهادى مع النسيم في ساحة بيتنا المبتسم فوق تعاريج البرك والمستنقعات خارج القرية، وبالتالي فقد نزعت عني قميص الأدوار كلها لأضطرب حين مشاهدتي لأفراد متسللة من الحقول: اللصوص والذئاب والثعالب والكلاب والنموس أو الأنماس (جمع نِمّس) مع إضافة القطط والضفادع والجرذان والعقارب والثعابين وبعض الطيور الشريرة، حيث لم ألبث - خروجًا على ما ارتديت من تقمص - أن بدأت أكتب خطابات غرام بديلاً

* العربي - العدد ٥٥٧ - أبريل ٢٠٠٥

لخيول وأشجار وأسلحة لا أمتلكها، ولا أجيد استعمالها إن امتلكتها، وهو ما أدى بي إلى أن أشـعر بسـخرية مريرة - ومريحة - إزاء كل ما مرّ في حياتي المبكرة - لفقداني الشجاعة والقدرة على المواجهة أو المداهمة في أكوام قمصان مهملة على شواطئ وصحارى وجبالي النفسية، دون أن أدرك أن الدابة حين تقمص فإن ذلـك يعني أنها بدأت تنفر وترفض وتحتج على ما يجري، ثم لا تلبث أن تضرب الأرض بأرجلهـا، مـع أن القمْص - في معنى آخر - كما جاء في المعجم - يؤدي إلى أنها تجري أو تعدو في مرح ونشاط، لكن البحر حين يقْمُص ضد سفينة فإنه يحركها بموجه المضطرب، تمهيدًا لأمور أخرى قد تحدث بسبب العواصف، ذلك أن التقمص في الماء يعني التقلب للانغماس - أي الغرق في الأعماق.

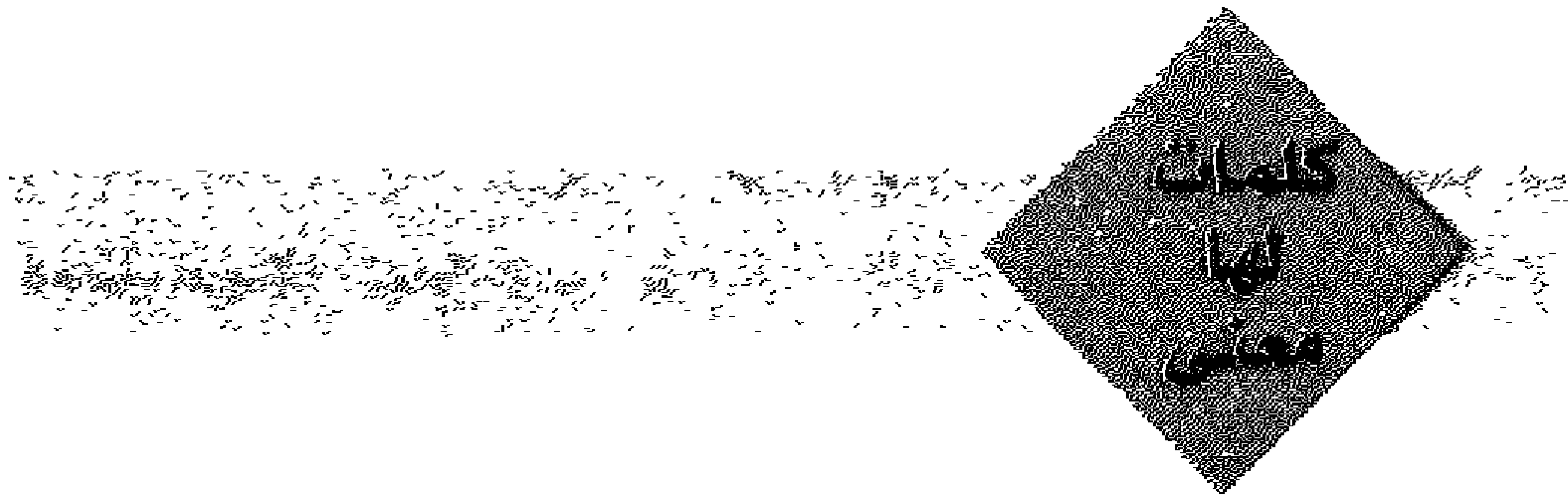
وأعظم قميص له دور إنسـاني مؤثر كان قميص النبي يوسـف عليه السلام، حينما راودته عن نفسـه زليخة زوجـة العزيز التي هو في بيتها ﴿ولقد همَّت به وهمّ بها لولا أن رأى برهان ربه كذلك لنصرف عنه السـوء والفحشـاء، إنه من عبادنا المخلصين، واسـتبقا الباب وقدَّت قميصه من دبر﴾... إلى آخره (الآيتان ٢٤ و٢٥ من سـورة يوسـف). ومع أهميـة العبرة الأخلاقية فـي حادثة قميص يوسف، فإن القيمة التعبيرية بالمفهوم الأدبي لا بدّ أن أقف أمامها كما حدث لي مرات من قبل، ذلك أن بعض كتّاب القصة أو الرواية كثيرًا ما يلجأون إلى وسائل تعبير بالغة الاسـتقطاب الفاحش، لأنواع من جماهيـر القراء لا يملكون الدروع والحصانة النفسـية، حين يسـتقبلون - في حرية وشجاعة - مثل هذه المواقف، وهو ما يؤدي - في حالات عديدة - إلى تدخل السلطة القانونية حماية للأخلاق من تعبيرات وأحداث تؤذي المشـاعر. ولو انتبهوا بشـكل جيد إلى هذا الوصف الأنيـق الراقي الذي ورد فـي القرآن الكريم، لأدركوا المعنـى الحقيقي للتفاعل الأدبي الراقي أيضًا، دون النظر إلى تلك الشـهرة التي قد تتحقق لهم بالأسلوب - عذرًا - الرخيص. ولعل معظم أشـهر أدباء النصوص القصصية - في العالم العربي - وغير العربي - حققوا مجدهم بالانتباه الجيد للتعبير المشـار إليه عن حادث قميص يوسف.

وعندما تشـدد الفعل الماضـي (قمّص) فإنه المبالغة فـي التعبير عن حالتين متعارضتـين: قَمّـص فيصبح القميص: أي ارتداه ولبسـه. أما قمص فلانًا: أي ألبسه القميص. وخروجًا على القميص الذي هو ما يرتدى، فإنه القميص أيضًا غلاف القلب، والمشيمة تلتف حول الجنين، وكنا في زمن غابر قد شهدنا مرة أو

مرتين بعض من انتصر على خصمه فألحق به إيذاء بطريقة استعراضية، حيث يكبله – أي يقيده – جالسًا على مسطح عربة، وقد خلع عنه قميصه ليلتف حول رقبته وجسده، وهو مشهد تخلصنا منه في بعض مجتمعاتنا منذ ما يقرب من نصف قرن، وكان يقال إن المنتصر قد وشم هذا المغلوب، واعتقدت أنها جاءت من الوصم لا الوشم، لكن وقوعي في لفظ المشيمة أن مرادفها القميص يعيدني إليها الآن، لاسيما أن القمصة تعني مباشرة البعوضة حين تطير فوق الماء، بل إن المشيمة قد تأتي من الشامات التي هي علامة في البدن يخالف لونها اللون السائد في جلد صاحبها.

أما (التقامص) فإنه التسابق في الجري، وهو ما تعودنا على مشاهدته في مباريات العدو بين العدد الكبير من الشباب للوصول إلى الهدف، والقُمُّص بصفته أحد ذوي المراتب الدينية في الكنيسة المسيحية فإنما أصله اللغوي: القمس – بالسين لا بالصاد، واحتل وقع صرف الصاد محل صرف السين في النطق، ثم لم يلبث أن أصبح لفظ القُمُّص هو المعهود نطقًا وكتابة الآن، مع أنها وردت من اللغة اليونانية ومعناها (المدبّر)، وهو أعلى من القس، وجمعه قمامصة، بصفته لفظًا منتشرًا في التناول المصري لبعض رجال الدين المسيحي.

لكن ما لم أجده في المعجم أن للقَمص معنى شعبيًا معروفًا، حيث يقال إن فلانا (انقمص – على وزن انفعل) أي فشل في تحقيق هدفه سلوكيًا، أو منطقيًا في التحاور، أي عدم إقناع الطرف الذي يود أن يستفيد منه، فيحس حينئذ بالألم والضيق والفشل، إنه يتقمص، وكثيرًا ما كنت أسمع واحدًا من ذوي الشأن ينبه من يشكو أن يستمع إليه جيدًا ولا ينقمص، وربما كان هذا الانقماص إحساسًا واردًا عند زليخة – زوجة العزيز – عندما باءت بالفشل في مسألة قميص يوسف، لنرث هذا الانقماص منفصلاً عن الحادث، أو هكذا يجب أن ننظر للأمور، كي نحافظ على هذا اللقب الذي نميل إلى إضفائه على من يتمكن من الهيمنة على منطقة عمل لنطلق عليه (أبو القمصان) دون أن ندري السبب، وحتى لا يظل أحدنا مقموصًا.



● يا لهذا الجمال الرقيق الذي يشع من المياه الهادئة الساكنة، إياك أن تجعلها تستمر في سكونها، إياك...

● أكثـــر الناس بعدًا عن كتابة الخطابات الغرامية المتألقة: من يكتبون المعاهدات الدولية.

● مع أهمية علامات التعجب والاستغراب: يقوم القمر بدور مؤثر في قصص غرام الأصدقاء، مع أنه مذكر، والشمس مؤنثة.

● الحديد والنحاس والألمنيوم، وحتى الرصاص والماغنسيوم والكوبالت واليورانيـــوم - وكل عناصر المعادن - تـؤدي مهمات واضحة في الأرض والســقف والحوائط والفراش والنوافذ والمواقد والأفران، عدا الذهب، إنه لا يقوم بأي دور مؤثر في حياتنا، ولايزال الذهب هو الأكثر استمرارًا وشيوعًا، دعك من البلاتين فإن معظمنا لا علاقة له به.

القنديل.. والجندول *

بينما ظـل المثقفون العرب يتألقون بأضواء الحوار والأفكار حول قنديل الروايــة - يحيى حقي، احتفالاً بتاريــخ مولده المئوي في القاهرة: قامت أنامل البيئة الريفية التي عشــت فيها المليون عامًا الأولى مــن عمري بانتزاع (قنديل أم هاشــم) من المؤتمر ليكــون قنديلنا الآخر والأساسي الذي لم نطلقه على أي مصباح: قنديل الأذرة الشامية، أو كوز الأذرة في لغة أهل المدن، غير أني - عشقًا لقنديلنا الذي أدمنت انتزاعه من حقولنا وحقول الآخرين - فوجئت بأن المعاجم ودوائر المعارف توقفت عند القنديل ذي الأنوار دون القنديل المشــوي ذي الصفوف المتوالية من الحبــوب الغضّة اللينة اللدنة حول وفــوق عظام الكوز، وحاولت أن أجد أي أثــر في صياغة أخرى، كأن يكون القنديــل وراء الجندول الذي كان عنوانًا معروفًا وجميلاً وشهيرًا لقصيدة شاعرنا علي محمود طه، والتي انتشــرت بين كل جماهيرنا العربية بينما شــدا بهــا محمد عبدالوهاب العبقري البارع في لحن ســاحر متماوج، فــإذا بالطامة الكبرى أن أجد الجنــدل بمعنــى الصخور التي تعتــرض مجرى الأنهار، وتســمى خطأ بالشــلال - وهو ما ورد في معجم الجيم الكبير، وســبب التقاء القنديل بالجندول: أننا نعاني مأزق نطق الجيم المعطشة لغويًا في الريف لتتحول إلــى قاف فاقدة الخصوبة القديمة، كمــا أن هذه القاف ذات الخصوبة في القلم أو ذوي القربى فــي لغتنا الفصحى والريفية، تتحول في المدن إلى (الألم وذوي الأربى) كما هو منتشر ومعروف، ولم أعثر على جندول

* العربي - العدد ٥٥٨ - مايو ٢٠٠٥

على محمود طه ومحمد عبدالوهاب على أي أثر.

وبالتالي قررت أن أترك جانبًا هذا المأزق، ودنيا الحياة اللغوية واسعة وكريمة ولا تجادلني وتحاورني إلاّ في حدود المتعة التي أسعى إليها، غير أن الجندول عـاد إلى جداول قلبي يتهادى ويتمـاوج على مياه البندقية الإيطالية، تاركًا أمـر الاعتراف به لغويًا جانبًا، وهو ما أدى بي إلى نزق خاص بي لا أحب أن ينتبه إليه الآخرون بصفته تصرفًا غير محسـوب، لأخلع ملابـس المخ - أقصد العقل - وأقفز من فوق الجندول أو اليخت أو القـارب إلى مياه الجداول والأنهار، ودون اعتبار لعدم درايتي الجيدة بالسـباحة، أو حتـى العوم الصبيباني القديم، لأشـهد تلك الفنادق ذات الشـهرة السـياحية في مصر وتحمل اسـم (كتراكت)، وتعني مباشـرة الجنادل: أي الصخور التي تعترض مجرى النهر عند الجغرافيين، وتصنع مشهدًا بالغ الروعة في منطقة أسوان بين جزيرة النباتات ثم جنوبًا نحو خزان أسـوان، ثم تختفي فور بناء السـد العالي، من منطقة النوبة حتى وادي حلفا على حدود مصر مع السودان، وكلها - هذه الجنادل - ليست شـلالات تندفع المياه من فوقها متساقطة في المجرى المندفع إلى أسفل كما في مناطق شـلالات نياجرا شمال أمريكا، وكليمنجارو المتدفقة من فوق الجبل إلى غابات إفريقيا الاستوائية، والتي كانت موضوعًا جذابًا في العمل الروائي الشـهير لهيمنجواي (ثلوج كليمنجارو) حيث كانت سوزان هيوارد تقيم في خيمة وسـط ضجيج الطبيعة الشاعرية مع جريجوري بيك، في فيلم سينمائي بالغ المتعة، وبالغ الضراوة أيضًا.

الأخطـر من هيمنجواي وعلى محمود طه والآخرين السـابق ذكرهم: هي أمي، تلك المرأة ذات السليقة الفطرية الريفية، والتي عرفت مصطلح القندلة أو الجندلة قبل أي من هؤلاء، صفة أو تهديدًا أو دعاء بالعقاب، والفرد المجندل أو المقندل هو سيئ الحظ الذي يقع تحت سطوة لحظات عدم الحب، أو ضيق الآخرين به، وكثيرًا ما يلجأ المنافسـون إلى وصف بعضهـم البعض بهذه الصفة خلال أوقـات الغضب أو الحقد والنميمة، ومـع ملاحظة أن المعاجم لم تذكـر أيًا من هذين اللفظـين: القندلة أو الجندلة، إلا أنها أوردت أن قنديل - فعل ماض - فلان: أي عظم رأسه، ومشى في استرسال واسـترخاء، وهو نوع من الكِبْر أو الكبرياء المفتعلة

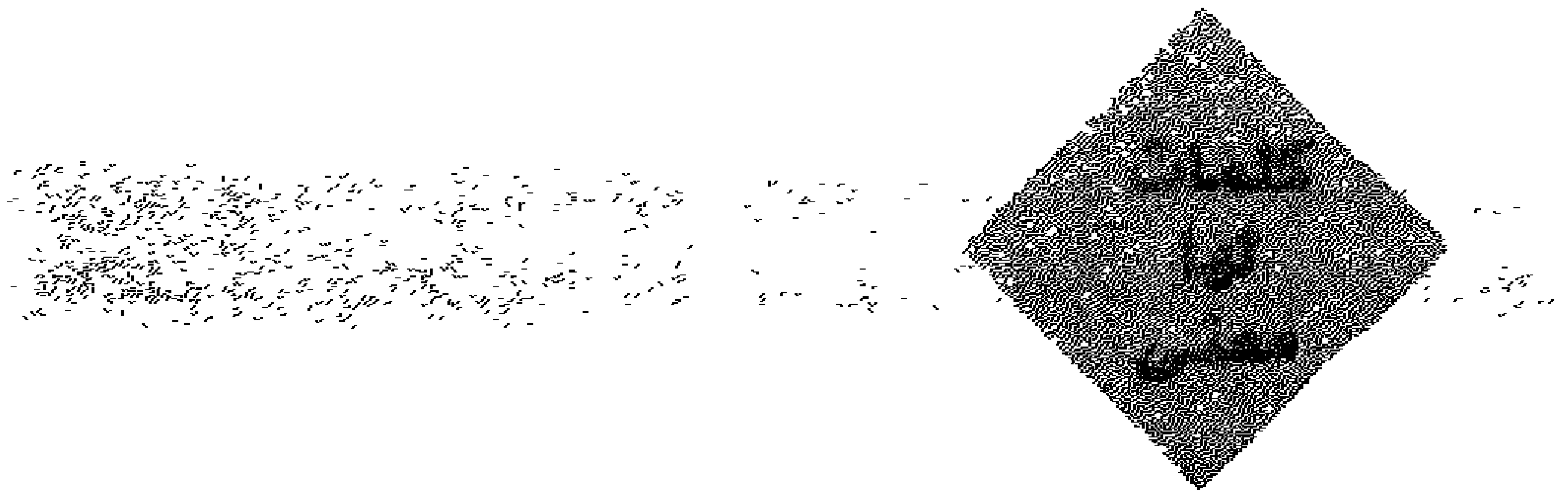
- الجملة الأخيرة وضعتها أنا تفسيرًا لمشاهد بعض من أعرف، مع أني أميل إلى سماع صوت المغني الراحل محمد قنديل دون الربط بينه وبين أي قنديل آخر: مضيئًا أو ملعونًا، ووجهه الضاحك المرح باكتنازه الواضح: يثير في الوجدان بهجة أخرى مضافة إلى تلك الصادرة من عناصر الغناء من كلمات وطرب وموسيقى وتدفق في الحنجرة، ولذا، فإن كل كلمات الأغاني المفعمة بالحزن والأسى تتحول عندنا - دون قصد - إلى حزن جميل وأسى مقبول بسبب هجر الحبيب، حيث قام بترسيب اليأس في قلوبنا المبكرة غناء الآخرين - أقصد معظم الآخرين، وربما كان ذلك وراء عدد واضح من رفاق الصبا حملوا اسم قنديل، ومن المؤكد أن قنديل أم هاشم ليحيى حقي لا علاقة له بهم، في حين أن الجندل كان اسمًا لجندل بن عبيد الشاعر الأموي الذي لم يكن مشهورًا، وهو ابن الراعي النميري الأكثر شهرة والذي كانت بينه وبين جندل المثنّى الطهوي (٩٠ هجرية - ٧٠٩ ميلادية) مهاجاة شعرية لم تصل في شهرتها إلى المهاجاة التي قامت بين جرير والفرزدق وازدحمت بها كتب المدارس.

وفي المثل الموروث (جندلتان اصطكتا) - أي وصفًا للصراع بين اثنين شديدي التصلب بصفتهما قرنين يتصاولان أو يتصادمان أو يتجادلان في خشونة.

ولعل دومة الجندل تصلح إنهاء لهذا الموج الصاخب في اللغة الذي ألقى بالجندول بعيدًا عن كل مسطحات المياه نهرية أو بحرية، لكن دومة الجندل تظل مدينة شامية قديمة، وتاريخية أيضًا، تبعد عن دمشق ما يقرب من ٢٥٠ كيلومترًا، مشهورة بحصونها، وقلّد رسولنا الكريم - صلى الله عليه وسلم - القائد العسكري الشهير خالد بن الوليد لفتحها، حيث نجح في ذلك، وعقد معاهدة سلام مع حاكمها (أكيدرٌ) الذي قدم - بعد المعاهدة مباشرة - إلى رسول الله في المدينة المنورة، لتأتي دومة الجندل بعد ذلك في هذا البيت الشعري:

حمامة جَرْعًا دومة الجندل اسجعي

فأنت بمرأى من سعاد ومسمع.



● كنــا نقول – فــي زمن مبكر – مدحًا لشــاعر أو كاتب: إنه مطبوع، صفــة للفطرة الطبيعية في إبداعه، الآن يمكن لك أن تلجأ لذات الصفة – بعد أن فقدت وظيفتها السالفة – لتصبح كاتبا أو شاعرًا مطبوعًا في كتب أو دواوين حتى يعترف بك فصائل اتحاد الكتاب في البلاد العربية، دون أن نعترف بك نحن.

● أحــرّ من الجمر، اندثر الجمر تحت اجتياح الأدوات الكهربائية، ولم يبق ســوى جمر الفحم في (الجوزة والشيشة) وبعض بقايا أعداد الكبار فقط، هل يصلح تعبير عصري آخر من أسلاك الكهرباء أو فرن الغاز؟

● كل الأوامــر قصيــرة وجازمة، لكــن التواصل والابتهــال والإمعان والتهويم في الآفاق الممتدة تظل ممتدة دون حزم أو جزم.

● كل الأعاصير والزوابع والطوفان بسبب الزلزال في جنوب شرق آسيا: مجرد احتجاج من ملل عصري يمتصه الكون من برامج التلفزيون.

للأخطار.. جمالها أيضًا*

ظللت سنوات عدة أكتب باب (جبر الخاطر) في واحدة من صحفنا، معتمدًا على إحساس بأن أي كاتب - والمبدع أدبًا بالذات: في حاجة إلى من يجبر بخاطره، لاسيما هؤلاء الذين لا يملكون القدرات المادية أو الوظائفية - أي تلك التي تعتمد على مناصبهم الخطيرة ذات التأثير في الاهتمام به، وبإبداعاته، ولم يطرأ في بالي أن الخاطر المطلوب جبره يتعاوم مع الخطر في بحور اللغة، بل قد يتعالى على الخطر ويسحبني إلى أجواء التخاطر، تلك الأجواء التي مرت بي - وبك أيضًا، حينما - في إحدى المرات - طاف في بالي (عبدالظاهر) الذي كان يعمل في مشروع السد العالي جنوب أسوان، في القطاع ذاته، الذي كنت أعمل به، عملي كان إداريًا، وعمله كان مع العمال وراء آلات تحريك الرمال، لم نكن أصدقاء بالمعنى العميق، ثم لم تلبث الأمور أن تغيرت وتفرقنا في مجالات أعمال متناثرة في المواقع المصرية، ولم يطف في بالي هذا الرجل أبدًا طوال سنوات عدة، ثم لم يلبث أن طاف في ذهني ذات صباح، في القاهرة، كنت أتجول هائمًا وخاضعًا لهذا النوع من المتعة، التي لا نحب أن نتحدث عنها - في منطقة السيدة زينب ثم الموسكي، ويسارًا إلى ميدان العتبة، وظل عبدالظاهر يتطاير ويعود فيحط على أغصان عقلي، ثم توقف عن التحليق لأقع في حالة اندهاش لا تفسير لها، فقد رأيت عبدالظاهر قادمًا من بعيد متوجهًا - في ابتسامة سمراء شديدة العذوبة - نحوي، وفاتحًا ذراعيه أيضًا.

---

* العربي - العدد ٥٥٩ - يونيو ٢٠٠٥

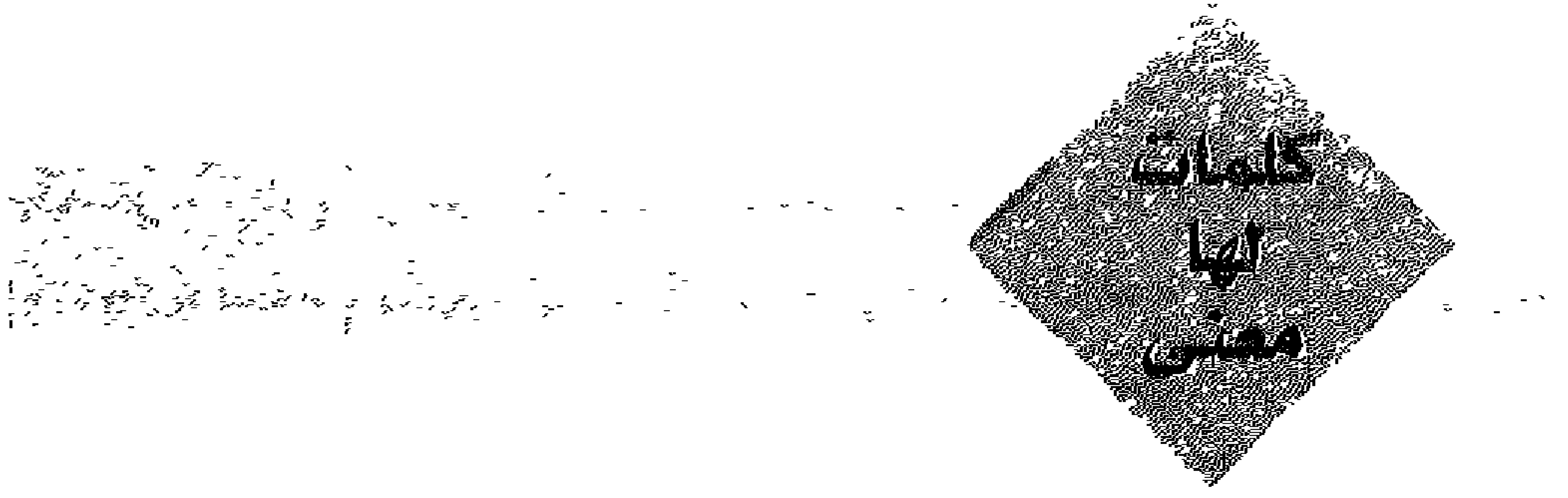
ومـــع أن هذه الحروف الثلاثة: الخاء والطــاء والراء - تصنع مصدرًا لــكل ما هو مقلق أو مرعب: الخطر، فإن لغتنا العربية تميل إلى معالجة الخطورة بالمخطرة، انظر إلى صديقك الذي ينجح في امتحان، أو ينتصر في مباراة حينما يخطر في مشيته، أي يتبختر، وهو الفعل الذي يستخدم في الأســلوب المدرسي دون الكلام العادي، حتى يصل بنا الأمر - عندما يرتفع قدر أحدنا ويعظم، أن يصبح خطيرًا، أي ذا شأن مؤثر مع استبعاد مؤقت لمعنى الخطورة النابعة من الأفعال الشرســة أو الشــريرة، وربما يكون هذا الخطير يمتلك قدرة استشــفافية، ليــرى ما لا يراه الآخرون أو يدركونه دون اســتخدام العين أو الحواس الأخرى. إنه أمر نادر لكنه معروف ولم يستطع العلم الحديث أن يفسره، الله هو الأعلم الأعلى دائمًا، مع أهمية أن نعرف أن التخاطر مجرد جزيئة بســيطة من الاستشــفاف الإنساني الخطير.

وقد استدرجتني خطورة الخطر والمخاطرة والتخاطر إلى عمتي اسمها خطيرة - بنت عم والدي، ومع أننا نطلق كثيرًا من الأسماء والألقاب ذات المعاني الشــائكة أو المازحة، فإن خطيرة كانت تكمن في المعاجم اللغوية دون إدراك منّــا، أنها - في صيغة الخطّار المذكر: الأســد، أو الســبع، والخطــار أيضًا العطار تاجــر العطور ذات الروائــح الجميلة، وبالذات المســك، إلاّ أنــي فوجئت أكثر بأن الرمح الفاتك بالأجســاد يحتل معنى الخطار أيضًا، وكذلك المقلاع الذي مارســنا اللعب به في بدايات حياتنا صيدًا للعصافير أو إسقاطًا لثمار النخيل والأشجار من بلح وجميز، فإذا ما تقلص هذا الخطّار وعاد ثلاثيًا: خَطّر: يصبح العارض من السحب أو الغيوم الناتجــة من الاهتزاز، هل المقصود بذلك ما يتلبّد به الجو نتيجة للــزلازل أو القنابل - والتي أخطرها في تاريخ البشــرية حتى الآن: تلك التي ألقيت على هيروشيما ونجازاكي إنهاء للحرب العالمية الثانية؟ أو ما حدث من أسابيع في جنوب شرق آسيا؟

عــذرًا، علينا أن نعود إلى الخطر البســيط، بعيــدًا عن الخطر المقلق المؤلم، أقصد: المخطرة المشــار إليها من قبــل، ولكي نتمخطر في بعض الســطور راودتني تلك المحفّة ذات الأذرع من الأمام والخلف، على ظهر دابتين (في قريتنا كنا نســتخدم الحمير لقلّة الخيول)، لترقص فوقها -

في حالة استعراضية من طقوس حفلات الزواج - راقصة جميلة، وخلفها تجلس العروس متألقة في طريقها إلى بيت عريسـها، وكنا نطلق عليها: التختروان، وفوجئت بأن هذا معنى التختروان المباشر: في اللغة الفارسية، وكان يركبها ذوو الشأن من الرجال والنساء - في حال استعراض لذوي الخطورة، في مناسبات الفرح أو الزهو أو الانتصار، وعندما تضغط على التختروان بالصوت والإحساس المعنوي فسوف يقودنا إلى المصدر العربي، حتى أن الخطر - رجاء كسر الطاء - تعني مباشرة: المتبختر، وتعني عندي الآن تواصلها مع التختروان، مع محاولة عدم الانزلاق مع التختروان إلى التخت، والتي تعني - في معناها الأول - العرش الخاص بالملوك، ثم تعني - بعد ذلك السرير، أو أريكة الجلوس، ثم لا يلبث التخت أن يصبح اصطلاحًا في الموسيقى العربية، إنه الجماعة عازفة الموسيقى المصاحبة للقائم بالغناء مع المنشدين والمساعدين، وكانت هذه الجماعة تتألف من رئيس (هو المايسترو الآن - أي قائد الأوركسترا) وثلاثة ممن يضربون على الآلات الوترية: القانون والعود والكمان، ومن ضابط ينقر بالدف لضبط الإيقاع، ثم يضاف إليهم صاحب ناي أو مزمار، وعدد آخر - إلى جانب هؤلاء - للترديد الصوتي لبعض أجزاء الدور - أي الكورس.

ومع أن التخت المشار إليه جاء نتيجة الولع بالتختروان، ونابعًا من المعاني والإشارات المتوالية، المتولدة من الخطر والخطورة، فإن هذا التوليد سوف يقودنا إلى متاهات بعيدة، تكمن فيها - كمثال - التختة بصفتها سبورة تعليمنا المبكر أو المقعد الخشبي الذي كنا نجلس عليه، علينا أن نغلق باب المخاطرة في التوليد اللغوي الآن.



● لا يفوق ابتسامة الأنثى جمالاً، سوى تلك البداية المبكرة للابتسامة التي تتهادى على شفتي طفلة وليدة، عندما تمعن فيك أولاً، مع أهمية أن أسنانها لم تظهر بعد.

● كل الجبال ذات الصخور تحترم جلستك على خشونة وشراسة تكويناتها حينما تمعن في غروب الشمس، أو ترنو إلى بدايات شروقها.

● لقد انقلبت المعاني، حيث أصبح الهجر يستهلك سعرات حرارية أقل بكثير من التواصل العصري.

● يا لهذه النعومة التي تزهو بها أنامل - أقصد أصابع - عازفي الموسيقى، وتلاقي كفوف العشاق، وأنامل النشالين واللصوص مع جيوب الضحايا.

● إياك أن تمعن كثيرًا في التفكير، العقل قابل للاعتصار، لاسيما أن خلايا المخ لا عضلات فيها.

الرسم *

ارتسمت على وجهي - دون أن أرى وجهي - علامات الغيظ، حينما اتضح لي أن الرسم - هذا الفن الجميل - سوف يقودني إلى الرسوم الحكومية الخاصة بتحصيلها، كالضرائب والجمارك والعبور والمرور في الطرق، دون محاولة الهروب منها في أسعار الطماطم والقلقاس والملوخية والزواج والميلاد - والطلاق أيضًا، أو الإخلال بحق الرسوم - أي رسوم - بالرفرفة فوق رايات الأوطان والسفن والسجون وسيارات ذوي الشأن والإسعاف وإطفاء الحرائق، ثم تثبت - دون رفرفة - على زجاج مقدمات مركبات تصنيفات السلطة البشرية، ليصبح رسم الهلال إشارة للأطباء، والثعبان الملتوي حول كأس السموم رمزًا للصيادلة، والصقر - أو النسر لا أدري - وقد وقف بمخالبه بين أغصان زيتون الشرطة أو الجيش، ولا يلبث الميزان ذو الكفتين أن يتهادى معلقًا بين أصابع يد فتاة جميلة فاقدة الإبصار تحقيقًا للعدل المجرد على كل أنواع المحاكم بمداخل مبانيها وأوراق حيثياتها وأوامر قوانينها وأحكامها، وتظل إيزيس - صديقتنا نحن المصريين - تحتل مسطحات الآثار القديمة بجدرانها في الهياكل والمعابد والمقابر وقصور الفراعنة، ويظل أوزوريس واقفًا أمامها في إشفاق ورومانسية، اعتزازًا بما قامت به إيزيس من نشاط أسطوري، حينما فتح به شقيقه (ست)، ومزق جسده، ونثره في أعماق القرى والنجوع والكفور والسراديب، والأناشيد وكتب المدارس، حينئذ قامت إيزيس - زوجته المصون - بالسعي والبحث

* العربي - العدد ٥٦٠ - يوليو ٢٠٠٥

والسفر في أرجاء المعمورة، لتجمع في صبر أسطوري رائع: كل أعضاء حبيبها، عظامًا محطمة أو جمجمة ممزقة، لكن الرسوم خلت من تحديد نوع الحقيبة أو القفص أو المقطف أو الجوال أو البرميل الذي استطاعت إيزيس المخلصة استخدامه في الإحساس العارم بتحقيق ما لم تستطع أنثى أن تفعله مع رجلها الممزق - حتى في أفلام السينما أو المسرح أو الروايات الأدبية الحديثة - وهو ما أدى بواحد مثلي، يمتلك نوعًا من الأسئلة التي يصعب الإجابة تاريخيًا أو واقعيًا عنها، أن يسأل: ألا يجوز أن تتداخل أعضاؤه مع أعضاء - ممزقة ومنثورة في كل الأركان - لرجال آخرين؟ وكيف - بقية السؤال الشرير - استطاعت إيزيس أن تفرز كل هذه الأعضاء لتستبعد ما لا يكون لأوزوريس منها - الرسوم والكتابات لم تقترب من ذلك أبدًا - حتى أنني تركتها بطلة تسعى كل شهور أو سنوات عدة لتجمع هذه الأعضاء، وبعد نجاحها في تركيبها وصياغتها ومعايشتها، يتضح لها أن هذه الأعضاء لم تكن لأوزوريس كلها، وتبدأ من جديد في البحث والتنقيب في كل أرجاء الأساطير عن فضلات وأعضاء قرينها البطل المشار إليه، دون الإخلال بمتعتي حينما أشاهد الرسوم، التي تجمعها معًا على المسطحات البنائية الأثرية دون أي تمزيق.

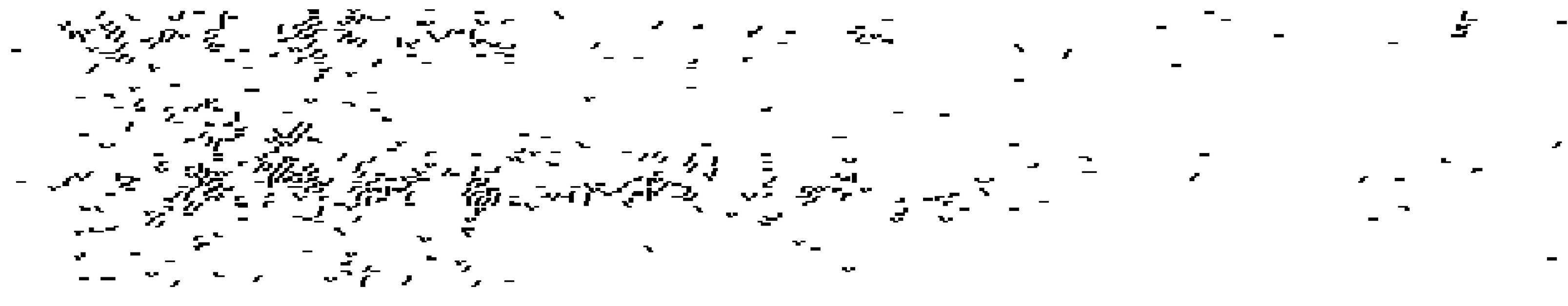
والرسم - في أحيان عديدة - يتحول من رسوم ورسومات، إلى طقوس مراسم تعيين كبار العاملين في الحكومات، لكنها تكون في أهدأ وأجمل صورها - هذه المراسم - في استقبال الرؤساء والزعماء، وفي الترحيب بالسفراء في قاعات القصور. ومع أن واحدًا منا لا يستخدم المرسم بصفته مفرد المراسم في هذه الطقوس والبروتوكولات، فإن أصدقاءنا المسيحيين يميلون إلى توصيف كبار رجال مذاهبهم عند اختيارهم إلى درجة أرقى في الكهنوت ليصبح مرتسمًا بمرسوم من المراسيم - وهذا اللفظ نجده في التراث العربي حتى الآن.

والرسم في علم المنطق: تعريف الشيء بخصائصه، ويطلق أيضًا على تمثيل شيء أو شخص أو موقع جغرافي أو موقعة تاريخية - بالإشارة والتبسيط - أي ليس على شاكلة رسم اللوحات بما تعنيه من معانٍ في دقة التفاصيل وحركة الخطوط وانطلاق الأمواج اللونية، التي هيمنت على كثير من نشاط فن الرسم المعاصر، ولعل الرسم البياني يقوم

بوظيفة خاصة، تعبيرًا عن تجريد العمل، والجهود والاستثمارات البشرية والمالية والعقارية، ليصبح الخط البياني واضح التعبير عن المقصود، دون تفاصيل التقريرات والمذكرات والتوضيحات الأسلوبية.

لكن الرسم - في واحد من حالاته المتعددة - يعني الأثر الباقي من الأحقاب الماضية، أي بعد أن غفت وانتهت عهودها، وهو ما نجده كثيرًا في رسم دار الحب، حينما يأتيه العاشق القديم ليجده أطلالاً، مع أن الشخص الداهية الذكي ذا الخبرة والتجارب كان يطلق عليه «رَوّسم»، فإذا قمت بتعديل الروسم الداهية لتصبح الواو بعد السين: رسوم - رجاء فتح الراء - فإن اللفظ هنا يعني ذلك القادر أن يظل يومًا وليلة سيرًا على الأقدام، وهي صفة جديرة بأمثال العاشق الشهير الرومانسي الأصيل: قيس الساعي سيرًا في آفاق الصحاري، باكيًا حزينًا، بالغ الشجن بالقصائد سعيًا وراء ليلى، في حين أن الرسوم من الإبل - أي الجمال والنوق - تعني تلك التي تترك أثرًا على مساحات ومسافات الرحلات، دون وقوعها في مأزق الفن البديع المتألق في قصائد أثر الحب والغرام.

أحاول الهروب من كل أنواع الرسم والرسوم والمراسم والمراسيم والرسومات، حتى أهدأ قليلاً، محتفظًا في الفؤاد بما كنت أتمناه منذ دهور صبيانيتي الأولى: أن أكون رسامًا، ولقد تركت بعضها خطوطًا فوق حوائط قديمة في قريتي، أقصد بقايا خطوط لا تصنع مجدًا، كالذي حظي به قليس - أي قليس؟! إنهم كثيرون، في حياتنا، وفي قلوبنا أيضًا.




● عليـك أن تمعن في السـماء قليلاً، ليلاً أو نهـارًا، أقصد عليك أن تخـرج من المدينة وتجلس قليلاً فوق تل من الرمال، وتمعن في السـماء قليلاً، إنني أقصد علاجك مما أنت فيه.

● عندما تتحرك الفرشـاة بالألوان، فإنها تنظر إلى القلم بنصف عين راجية أن يتركها حرة خارج خطوطه المحاصرة.

● من الجلد جاء الجلاد، الذي يسـتخدم سـوطه فـي إلحاق الأذى بالآخرين، والسوط - أيضًا - من الجلد ذاته.

● تحتفـظ زوجتي بي - بكل فخر - لأنها تترك لي حرية التنفس بين وقت وآخر، وهو مالم تدركه النظم الحاكمة.

● كثيـر من الحيوانات والحشـرات والنباتات تحـس بالتغيرات التي تحـرّك الليـل والنهار والشـتاء والصيف، دون أن تقع فـي مأزق بلادة الثقافة المبالغ فيها.

الشال... والشاليه *

ما كدت أمعن في الشال، الذي تألقت بين انسياب نعومته: جارتنا القديمة، وأحفادها يتعابثون - مرحًا - حولها، حتى جرفتني ذكريات هذا النوع من تكوينات النسيج الذكي المتسلل حول الرقبة والصدر لتلتف أطرافه حول المنكبين، ضحكت جارتنا حينما ذكرتها بأنني ظللت أحقابًا طويلة بين قوسين من الشيلان: شال الرجال، الذي ينفرش على الجزء العلوي من البدن، وأحيانًا يعاد صياغته عمامة، ثم شال السمك النهري، الذي كان يصطاده مَن يدرك أن الشال لا يأكله أي أحد كالقرموط أو المشط أو البساريا، فالشال السمكي نوعان: أبو ريالة - وهذا ما ورد في كتب السمك دون تدخل مني، والقرقور، وكلاهما ضخم بالنسبة لأسماك الأنهار - مع صغره وضآلته بالنسبة لأسماك البحار، كما أن كليهما أملس الجلد، كبير الرأس، يقومان بتحريك أشواك الزعانف فترة طويلة بعد الصيد، ويصدر القرقور أصواتًا تكاد تكون إحساسًا بألم الاغتراب، بعيدًا عن الماء، وبعضه تظهر له عيون شقراء تظل مفتوحة حتى تبدأ عملية إعداده لدخول جهنم في الطريق إلى المائدة الكريمة.

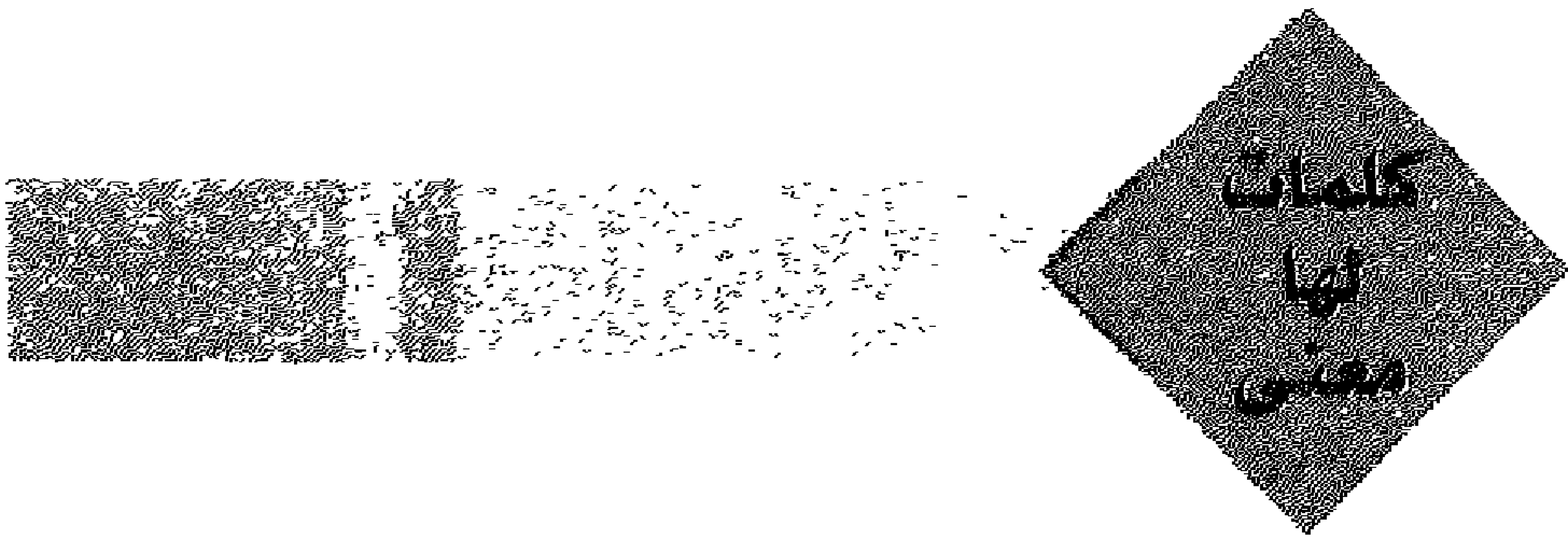
لكن هذه الشيلان - حول الرقبة أو بين مياه الأنهار - لم تنتبه إلى نوع من البطيخ الشيليان، انتشر في أقطارنا منذ نصف قرن، مع أنواع أخرى من البطيخ المتضخم استدارة أو طولاً، شديد الاحمرار، حتى أن البطيخ البلدي المعهود بدأ يضطرب لونًا ولُبًا، لأن البطيخ - كل أنواعه - يملك

* العربي - العدد ٥٦١ أغسطس ٢٠٠٥

مـــن اللب ما لا يتصـــوره نبات آخر، وظل هذا الشـــيليان الضخم الممتد هدفًا لذوي الثقافة والقدرات المادية، حتى قضى في الســـنوات الأخيرة على البطيخ البلدي بشـــكل واضح، وهي ذاتها الطريقة، التي تمكنت بها الشـــاليهات من القضاء على العشـــش والأكواخ، لا أقصد عشش وأكواخ المكافحين من أهلي في الريف، بل تلك العشـــش البسيطة المصنوعة من البـــوص في المصايف الراقيـــة على البحر، والتي اشـــتهرت منها - في رأس البـــر التابعـــة لمدينة دميـــاط المصرية - عشـــش أم كلثوم ومحمد التابعـــي ومصطفى أمين، وماري كويني، ويوســـف وهبي، وعدد كبير من مشاهير الفنانين والوزراء ورجال المجتمع، وأثناء اندثارهم رحيلاً قضاء وقـــدرا لا اعتراض عليهما - قامت الشـــاليهات بإعادة صياغة عشـــش رأس البر بشـــكل راق وجميل يشابه تلك الشـــاليهات، التي تتراقص في هدوء على مســـطحات وقمم جبال الألب الأوربية في سويســـرا وشمال إيطاليـــا وغرب فرنســـا، لتؤدي دور المصحات، بعيـــدًا عن ضجيج المدن وفقر العشـــش، وهو ما أدى بي شـــخصيًا - حين كتبت عن حياتي - أن أستخدم مصطلح الشاليه فوق المستقعات السويسرية، التي ولدت على ضفافهـــا خارج قريتنا ديروط الشـــريف، دون أن أقترب من كلمة كوخ أو بركة، أو أي إشارة لهذه التكوينات القروية، وسيكون مريحًا - حينما تقرأ هذا الموضوع ابتداء من الشيلان والشيليان والشاليهات: أن تراعي إيقاع الكتابة حينما تنفصل مقاطعها بالشولة، تلك الفاصلة - ثم أصبح اسمها الفصّلة - التي تحول دون الاندفاع في القراءة، مما يعوق عقلك عن متعة الاســـتقبال، وقد شـــاءت ظروفي أيضًا - أثناء العمل في بعض الصحف - أن أواجـــه كتابات كثير من الأصدقاء - أو حتى الأســـاتذة - بضرورة الاهتمام بهذه الفصلة أو الشولة، وما قد تحتاج إليه الكتابة من علامات أخـــرى للاندهاش أو التعجب أو الاســـتفهام، أو حتى النقطة الضرورية عند انتهاء المقطع أو الموضوع، إن للشـــولة دورًا مؤثرًا في استقبال قراءة أي نص، وقد تخلص أستاذنا إحسان عبدالقدوس - في رواياته المنشورة كلها - من كل ذلك باســـتعماله لثلاث أو أربع نقط بين الجمل، لكن ذلك لا يحل وظيفة الشـــاولة بالمعنى الذي أقصده، ولقد كان شيلوك - تاجر البندقية عند زميلنا شكســـبير - شديد الحرص - مع همس الكلام، مع

فواصـــل المقاطع، لتنتهي مســـرحيته بنجاحه في الوصول إلى قطع رقبة مَن استدان منه المقابل قبل بداية الشولات.

إلا أن الذي يعلو على كل هذه المسائل: الشهر الجميل شوال الهجري، الذي يأتي جوابًا لقرار رمضان الكريم الموسـيقي، حينما تأتي الأســرة بأفرادهـــا المتناثريــن يوم عيد الفطــر أول أيام شــوال، يلعبون ويلهون ويأكلــون صباحًا الفطير والبســكويت وكعك العيد، ثــم يقومون بتقليب جيوبي، انتزاعًا لثروتي، ليتقافزوا ســعيًا إلى المراجيح والمزامير، وركوب الخيول الخشبية، ليتركوني وحدي في البيت أسعى - دودة تتقلب وسط أوراق الكتب - باحثًا عن شــيلر الفيلســوف الإنجليــزي، صاحب كتاب «ألغاز أبو الهول»، وتلك الجملة المشــهورة عنه «إن الإنســان معيار للقيم والأشــياء جميعها»، وفرناند شــيلر هذا مختلف - عصرًا وانتماء - عن الأكثر شــهرة فريدريك فون شــيلر، الشــاعر والكاتب المسرحي والمؤرخ والفيلســوف الألماني، والذي عاش طريدًا، هاربًــا من الدوق فريتمبرج، الذي ســيطر عليه، وعيّنه طبيبًا بالجيش، ليكتب مسرحية «اللصوص»، والتــي يقال إنها مــن أعظم مســرحياته، وخلال تجوالــه الهروبي في أوربــا قبل رحيله عــام «١٨٠٥ ميلادية»، تمكن من إبداع معروف في فن التراجيديا، وبعد مسرحيات عدة، اعتزل الحياة مجهدًا، ولاسيما نشيد «إلى الفرح»، الذي لحّنه الموســيقار الشــهير بيتهوفن في الســيمفونية التاسعة ذات التألق الموسيقي المتفرّد، وسوف يجرّنا الكلام عن شيلر إلى دروب وأنفاق وحدائق وبحيرات وشــاليهات أخرى عدة، سوف تسبب لي إرهاقًا، قد يدفعني أن أفعل مثل شــيلر، فأهرب - فوق الأرض أو تحت السماء إلى «شــيلي»، آخر جنوب أمريكا الجنوبية، لأمعن في البحيرات والبحار - باحثًا عن مستنقعات قد أسعد على شواطئها باصطياد واحد من شيلان بحر يوسف في صعيد مصر.



● كل شـــيء يبدأ هادئًا وبســيطًا، دعك من الصيــاح الآن، انظر إلى لحظة غروب شــمس آخر النهار. عليك أن تظل ممعنًا في جمال الوجود حتى لو تواطأت الرياح ضدك.

● الشر يساوي الكتلة في مربع سرعة الفراغ.

● أول مــا يبلى في الملابــس الكريمة: الجيوب، الملابــس البخيلة لا جيوب لها.

● يكثــر هذه الأيام أن أبدأ كلامــي بمصطلح بالغ التهذيب: صدقني، لو أمعنت في وجهي لاكتشــفت أنني لا أثق فيك، ولا في نفســي، وكلانا يبتسم.

● لو اســتطعت أن تســتعيد الفطرة القديمة في الإحساس والتواصل والكلام والصمت، فســوف تأكل وتستمتع وتحس بما لن يحس به جهاز التلفزيون، الذي ســوف يتعطل لعدم الاهتمام به وتشغيله، وقد يقع على الأرض.

● الســلام يقل المعرفة - جملة موروثة دون أن ندري أن الحرب تدمر المعرفة، والجمجمة التي تنفثها.

كتاب العربي
٧٤

المحتويات

العدد ٧٤ أكتوبر ٢٠٠٨

أسعار النسخ وقيمة الاشتراكات

الكويت	١دينــار	الجزائـر	١٢٠دينارا
السعودية	١٥ريـالا	اليــمن	١٥٠ريـالا
الأردن	١دينـــار	قطــر	١٥ريـــالا
ســوريا	٥٠ ليرة	سلطنة عمان	١ريـال
البحرين	١دينـار	لبنــان	٥٠٠٠ ليرة
مصــر	٢جنيـه	الإمارات	١٥درهمـا
السودان	٢٠٠ جنيه	المغـرب	٢٠درهمـا
تــونس	٢دينـــار		

سعر النسخة خارج الوطن العربي ٣ دولارات أمريكية
الاشتــراك في الكــويت ٥ دنانـــير
في الدول العربية ٨ دولارات أمريكـية
خارج الوطن العربي ١٦ دولاراً أمريكيا.

الاشــتراكـات

قسم الاشتراكات - مجلة العربي - وزارة الإعلام
ص.ب: ٧٤٨ الصفاة - الكويت الرمز البريدي ١٣٠٠٨
على طالب الاشتراك تحويل القيمة
بموجب حوالة مصرفية
أو شيك بالدينار الكويتي باسم وزارة الإعلام.

مكتب العربي الرئيسي في الكويت

ص. ب ٧٤٨ الصفاة - الكويت - الرمز البريدي: ١٣٠٠٨
بنيد القار - قطعة ١ - شارع ٤٧ - قسيمة ٣
هاتف البدالة 86 / 82 / (00965)2512081
فاكس: (00965) 2512044

P.O.Box: 748 / Al Safat Kuwait.
E.mail: alarabimag@alarabimag.net
www.alarabimag.net

المراسلات باسم رئيس التحرير

مكاتب العربي في الخارج

القاهرة: الهرم - ٥ شارع ترعة المريوطية - عمارات الخليج
عماره ٣ الدور الأول - دارعين للدراسات
هاتف: ٣٣٨٧١٦٩٣
بيروت: ص.ب ٧٠٨٢٧ أنطلياس / لبنان
هاتف: ٠٠٩٦١٣٤٠٨٤٠٧
فاكس: ٠٠٩٦١٤٤٠٨٤٤٨

كتاب العربي

إصدارات كتاب العربي

١- الحرية	د. أحمد زكي «يناير ١٩٨٤»
٢- العلم في حياة الإنسان	د. عبد الحليم منتصر «أبريل ١٩٨٤»
٣- المجلات الثقافية والتحديات المعاصرة	مجموعة كتاب «يوليو ١٩٨٤»
٤- العروبة والإسلام وأوربا	د. محمود السمرة «أكتوبر ١٩٨٤»
٥- العربي ومسيرة ربع قرن مع «الحياة.. والناس.. والوحدة في دول الخليج العربي	مجموعة كتاب «نوفمبر ١٩٨٤»
٦- طبائع البشر	د. فاخر عاقل «يناير ١٩٨٥»
٧- حوار.. لامواجهة..	د. أحمد كمال أبو المجد «أبريل ١٩٨٥»
٨- آراء ودراسات في الفكر القومي	مجموعة كتاب «يوليو ١٩٨٥»
٩- أضواء على لغتنا السمحة	محمد خليفة التونسي «أكتوبر ١٩٨٥»
١٠- الكويت ربع قرن من الاستقلال	مجموعة كتاب «يناير ١٩٨٦»
١١- نظرات في الواقع الاقتصادي المعاصر	د. حازم الببلاوي «أبريل ١٩٨٦»
١٢- السلوك الإنساني.. الحقيقة والخيال	د. فخري الدباغ «يوليو ١٩٨٦»
١٣- آراء حول قديم الشعر وجديده	مجموعة كتاب «أكتوبر ١٩٨٦»
١٤- المسلمون والعصر	مجموعة كتاب «يناير ١٩٨٧»
١٥- من أسرار الحياة والكون	د. عبد المحسن صالح «أبريل ١٩٨٧»
١٦- دراسات حول الطب الوقائي	مجموعة كتاب «يوليو ١٩٨٧»
١٧- خطاب إلى العقل العربي	د. فؤاد زكريا «أكتوبر ١٩٨٧»
١٨- المسرح العربي بين النقل والتأصيل	مجموعة كتاب «يناير ١٩٨٨»
١٩- الفلسطينيون من الاقتلاع إلى المقاومة	مجموعة كتاب «أبريل ١٩٨٨»
٢٠- أندلسيات	محمد عبد الله عنان «يوليو ١٩٨٨»
٢١- ماذا في العلم والطب من جديد؟	مجموعة كتاب «أكتوبر ١٩٨٨»

٢٢- الإسلام والعروبة في عالم متغير	د. عبد العزيز كامل «يناير ١٩٨٩»
٢٣- الطفل العربي والمستقبل!	مجموعة كتاب «أبريل ١٩٨٩»
٢٤- القصة العربية أجيال وآفاق	مجموعة كتاب «يوليو ١٩٨٩»
٢٥- تاريخنا... وبقايا صور	د. شاكر مصطفى «أكتوبر ١٩٨٩»
٢٦- الإنسان والبيئة صراع أو توافق؟	مجموعة كتاب «يناير ١٩٩٠»
٢٧- نافذة على فلسفة العصر	د. زكي نجيب محمود «أبريل ١٩٩٠»
٢٨- نظرات في الأدب والنقد	عبد الرزاق البصير «يوليو ١٩٩٠»
٢٩- الإسلام وضرورة التغيير	د. محمد عمارة «يوليو ١٩٩٧»
٣٠- الخليج العربي وآفاق القرن الواحد والعشرين	مجموعة كتا « أكتوبر ١٩٩٧»
٣١- القصة العربية.	مجموعة من الكتاب «يناير١٩٩٨»
٣٢ - أرقام تصنع العالم	محمود المراغي « أبريل ١٩٩٨ »
٣٣ - على جناح طائر	د. شاكر مصطفى « يوليو ١٩٩٨ »
٣٤ - المسلمون من آسيا إلى أوربا	مجموعة من الكتاب « أكتوبر ١٩٩٨»
٣٥ - إسبانيا.. أصوات وأصداء عربية	مجموعة من الكتّاب « يناير ١٩٩٩»
٣٦ - ثورات في الطب والعلوم	مجموعة من الكتاب «أبريل ١٩٩٩»
٣٧ - نبش الغراب في واحة العربي	محمد مستجاب «يوليو ١٩٩٩»
٣٨ - المثقفون والسلطة في عالمنا العربي	أحمد بهاء الدين «أكتوبر ١٩٩٩»
٣٩ - التعبير بالألوان	مجموعة من الكتّاب «يناير٢٠٠٠»
٤٠ - حضارة الحاسوب والإنترنت	مجموعة من الكتاب «أبريل ٢٠٠٠»
٤١ - شهرزاد تبوح بشجونها	مجموعة من الكاتبات «يوليو ٢٠٠٠»

كتاب العربي

اصدارات كتاب العربي

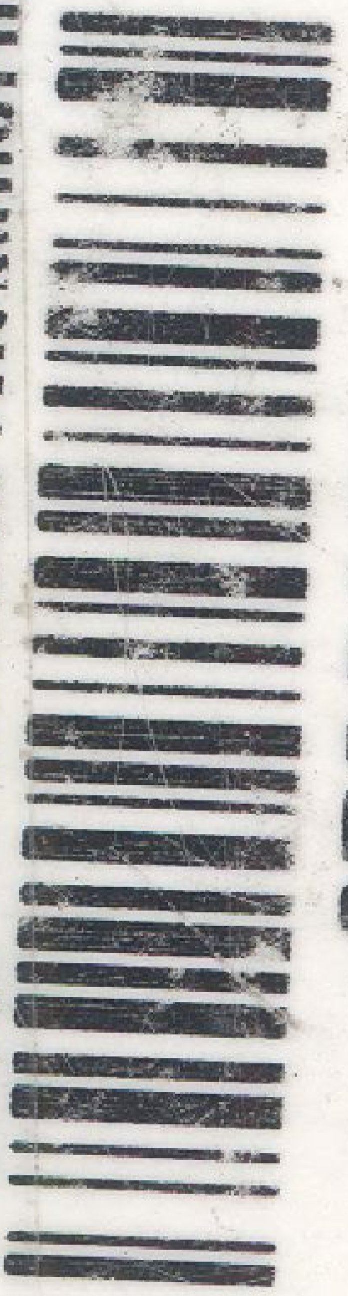
٤٢ - قوافي الحب والشجن	نخبة من الشعراء «أكتوبر ٢٠٠٠»
٤٣ - الطب البديل	د. محمد المخزنجي «يناير ٢٠٠١»
٤٤ - منمنمات تاريخية	سليمان مظهر «أبريل ٢٠٠١»
٤٥ - الإسلام والتطرف	نخبة من الكتّاب «يوليو ٢٠٠١»
٤٦ - الطريق إلى المعرفة	د. أحمد أبو زيد «أكتوبر ٢٠٠١»
٤٧ - إيقاع على أوتار الزمن	د. نقولا زيادة «يناير ٢٠٠٢»
٤٨ - دمار البيئة... دمار الإنسان	مجموعة من الكتّاب «أبريل ٢٠٠٢»
٤٩ - الإسلام والغرب	مجموعة من الكتّاب «يوليو ٢٠٠٢»
٥٠- ثقافة الطفل العربي	مجموعة من الكتّاب «أكتوبر ٢٠٠٢»
٥١- الثقافة الكويتية أصداء وآفاق	د. سليمان العسكري وآخرون «يناير ٢٠٠٣»
٥٢- جمال العربية	فاروق شوشة «أبريل ٢٠٠٣»
٥٣- كلمات من طمي الفرات	نخبة من الكتّاب «يوليو ٢٠٠٣»
٥٤- مرفأ الذاكرة	مجموعة من الكتّاب «أكتوبر ٢٠٠٣»
٥٥- مستقبل الثورة الرقمية	نخبة من الكتاب «يناير ٢٠٠٤»
٥٦- فلسطين روح العرب الممزق	نخبة من الكتاب «إبريل ٢٠٠٤»
٥٧- مراجعات في الفكر القومي	د. محمد جابر الأنصاري «يوليو ٢٠٠٤»
٥٨- الأندلس صفحات مشرقة	نخبة من الكتاب «اكتوبر ٢٠٠٥»
٥٩- الغرب بعيون عربية (الجزء الأول)	نخبة من الكتاب «يناير ٢٠٠٥»
٦٠- الغرب بعيون عربية (الجزء الثاني)	نخبة من الكتاب «أبريل ٢٠٠٥»
٦١- المعرفة وصناعة المستقبل	د. أحمد أبوزيد «يوليو ٢٠٠٥»
٦٢- غواية التراث	د. جابر عصفور «أكتوبر ٢٠٠٥»
٦٣ - نبش الغراب «المجموعة الثانية»	محمد مستجاب «يناير ٢٠٠٦»

٦٤- دائرة معارف العرب	جار النبي وعلي سيد أحمد علي «أبريل ٢٠٠٦»
٦٥- حوار المشارقة والمغاربة «الجزء الأول»	مجموعة من الكتاب «يوليو ٢٠٠٦»
٦٦- حوار المشارقة والمغاربة «الجزء الثاني»	مجموعة من الكتاب «أكتوبر ٢٠٠٦»
٦٧- الثقافة العلمية واستشراف المستقبل العربي	مجموعة من الكتاب «يناير ٢٠٠٧»
٦٨ - عن الدهشة والألم ٥٠ قصة بأقلام عربية	مجموعة من الكتّاب «أبريل ٢٠٠٧»
٦٩ - المجلات الثقافية مهمة الاصلاح وسؤال المعرفة (الجزء الأول)	مجموعة من الكتّاب «يوليو ٢٠٠٧»
٧٠ - المجلات الثقافية مهمة الاصلاح وسؤال المعرفة (الجزء الثاني)	مجموعة من الكتّاب «أكتوبر ٢٠٠٧»
٧١ - البحث عن آفاق أرحب مختارات من القصة الكويتية	إعداد وتقديم: د. مرسل فالح العجمي «يناير ٢٠٠٨»
٧٢- «العربي» نصف قرن من المعرفة والاستنارة الجزء الاول	نخبة من الكتّاب «أبريل ٢٠٠٨»
٧٣- «العربي» نصف قرن من المعرفة والاستنارة الجزء الثاني	نخبة من الكتّاب «يوليو ٢٠٠٨»
٧٤ - نبش الغراب «المجموعة الثالثة»	تأليف: محمد مستجاب

الطبعة الأولى: ١٥/١٠/٢٠٠٨
رقم الإيداع في مكتبة الكويت الوطنية :
Depository Number: 272 / 2008
ISBN: 978 - 99906-38-37-0 ٩٧٨ – ٩٩٩٠٦ – ٣٨ – ٣٧ – ٠ :ردمك

هذا الكتاب

اشتهر محمد مستجاب بقصصه التي تحكي حالات أشخاص من عائلة مستجاب، فتصور الواقع في ربوع الصعيد في شكل قريب من الواقعية السحرية. لذا فأغلب من يريدون التعرف إلى كتابات مستجاب يتوجهون صوب قراءة قصصه، بينما قلة فقط من القراء هم من يتعرفون إليه من خلال قراءة مقالاته. وتفسير ذلك أن أغلب القراء يتوقعون أن كاتب القصص الساحر، يندر أن يكتب المقال بواقعية متزنة. لكن المجلد الحالي الذي يحوي الجزء الثالث من مقالات محمد مستجاب في مجلة العربي، يحطم هذه التصور الخاطيء ويثبت أن الكاتب المجد ليس مجرد فنان حالم ومغرق في الخيال، بل هو مشاغبٌ يقيم في بلاد الواقع يملؤها صخبا.



كتاب العربي ٧٤
AL ARABI
نبش الغراب
«المجموعة الثالثة»

وزارة الإعلام: مطبعة حكومة الكويت